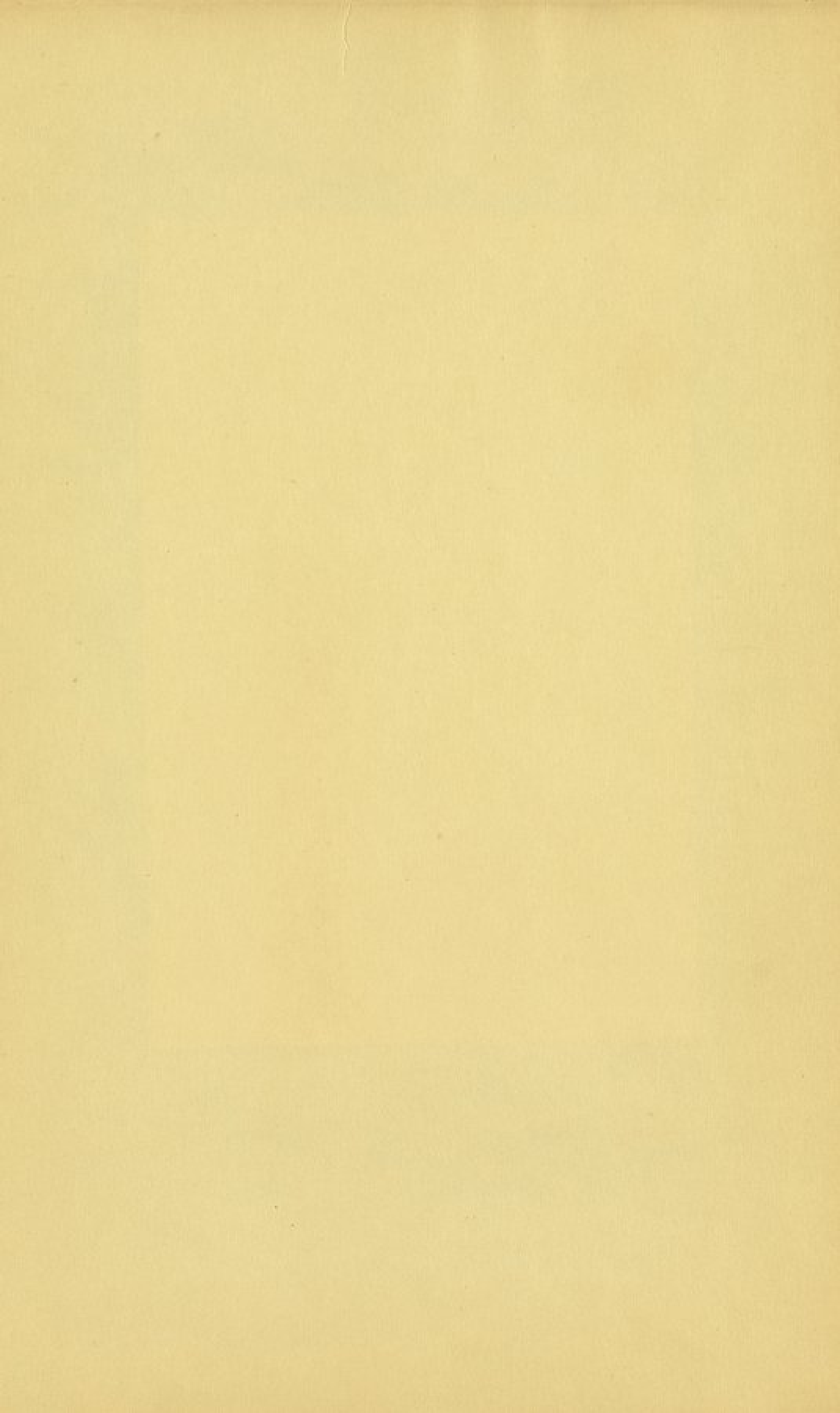

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0021732710



ابن عبد ربه وعقده

وهي رسالة قدمت الى دائرة الدروس العربية في كلية العلوم والآداب
بجامعة بيروت الاميركية لنيل شهادة

استاذ في العلوم

بقلم

جبرائيل سليمان جبور

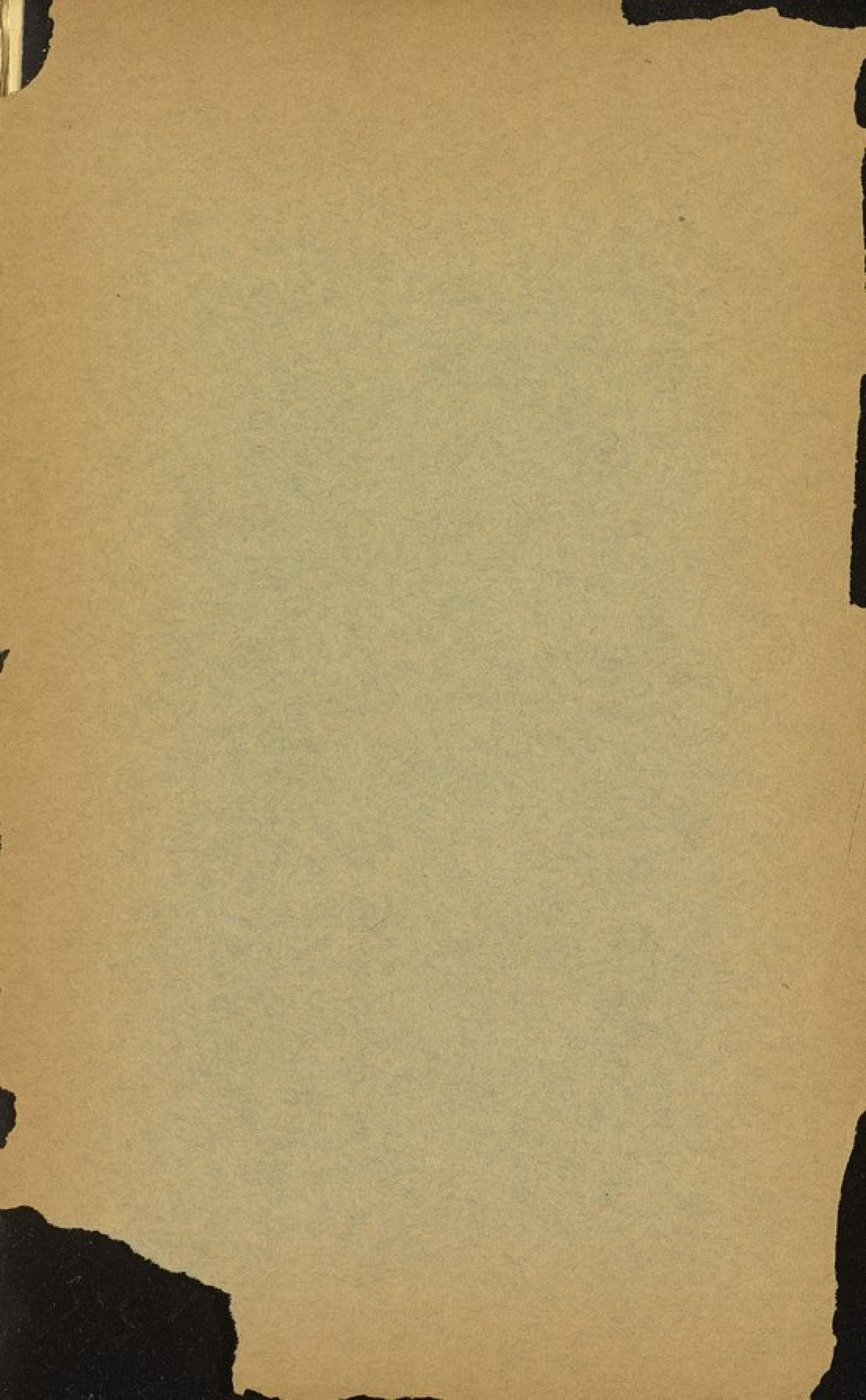
احد مدرسي الأدب العربي في جامعة بيروت الاميركية

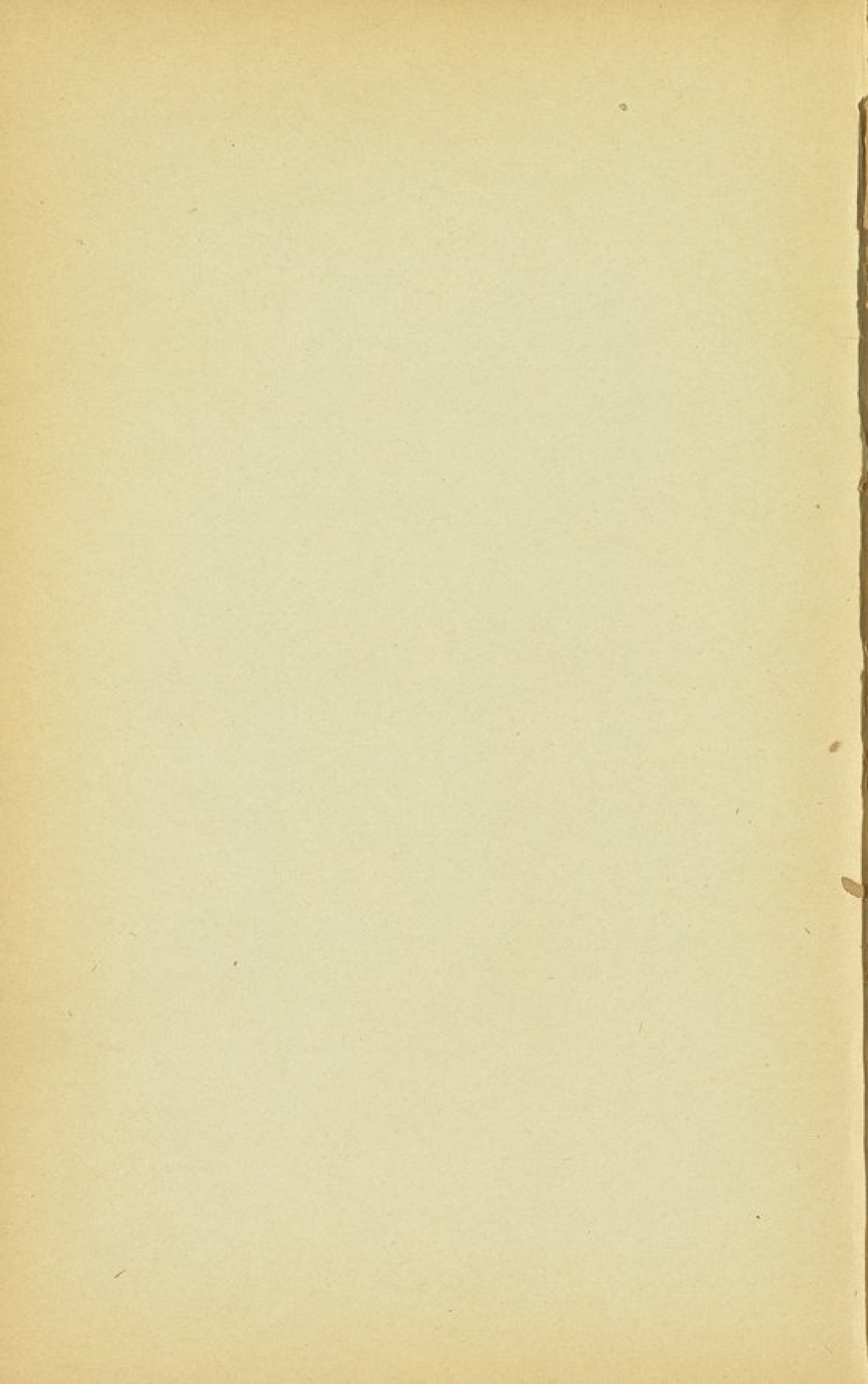
نشرت تباعاً في مجلة المشرق

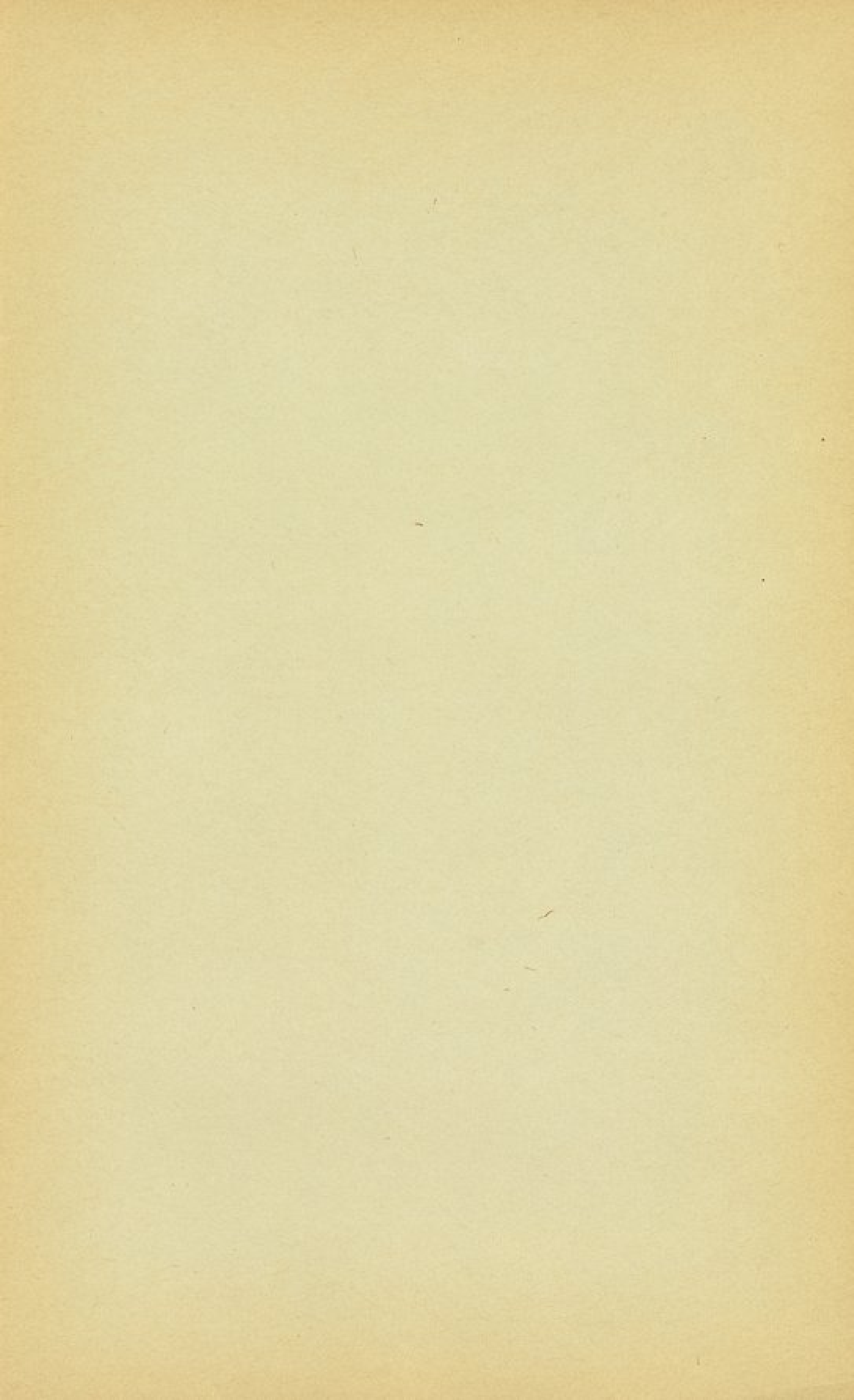
المطبعة الكاثوليكية

بيروت

١٩٣٣







ابن عبد ربه وعقده

وهي رسالة قدمت الى دائرة الدروس العربية في كلية العلوم والآداب
بجامعة بيروت الاميركية لنيل شهادة

استاذ في العلوم

بقلم

جبرائيل سليمان جبور

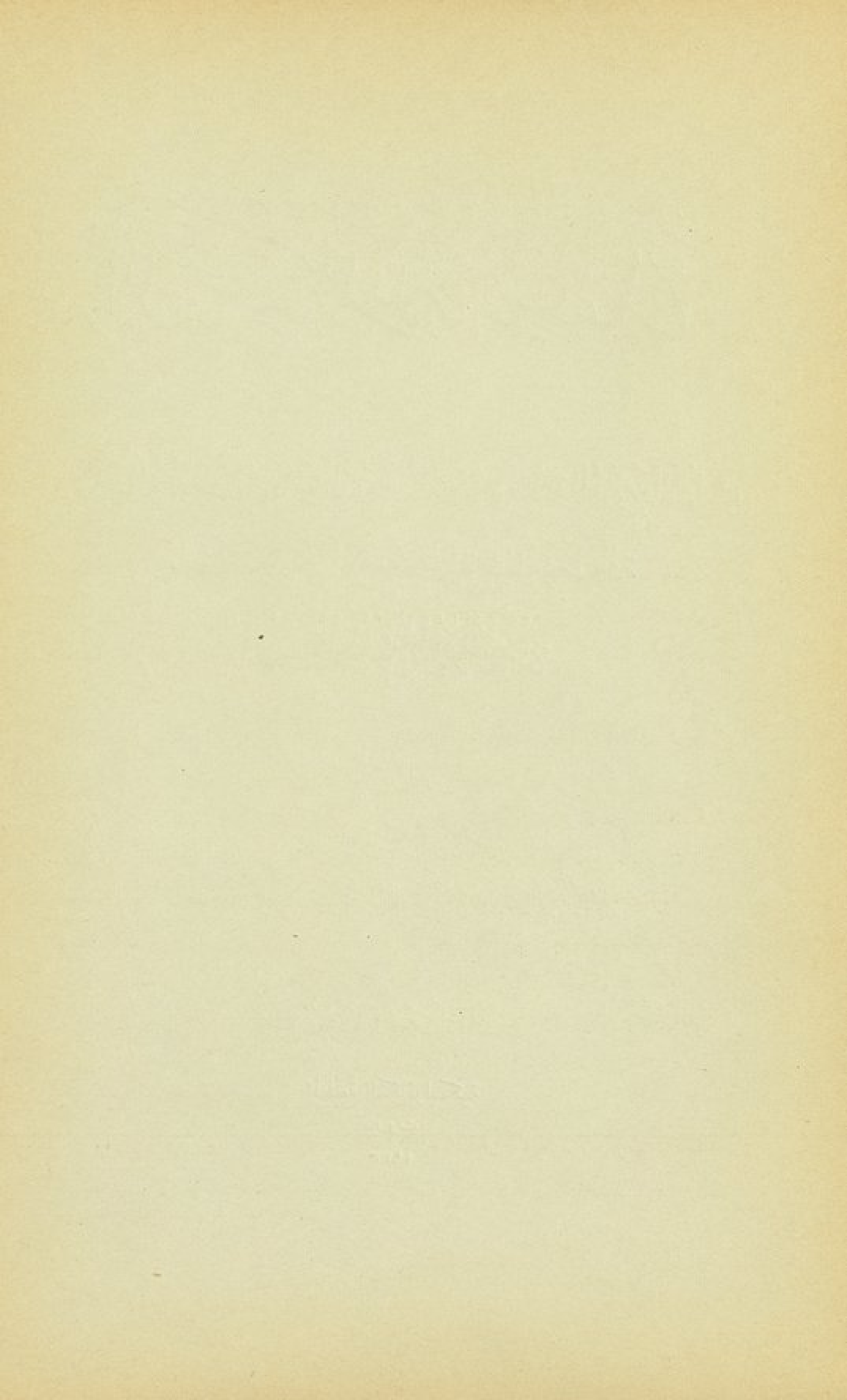
احد مدرسي الأدب العربي في جامعة بيروت الاميركية

نشرت تباعاً في مجلة المشرق

المطبعة الكاثوليكية

بيروت

١٩٣٣



المقدمة

لست ادّعي اني استقصيت البحث في درس ابن عبد ربّه وعقده كما اريد او كما يجب أن يكون ، ولست ازعم ان شيئاً من هذا ممكن لي في مدة سنتين دراسيتين كان عليّ فيهما ان اقوم بدروس اخرى منها ما يتعلق بعملي كمدرّس في الدائرة العربية في هذه الجامعة ، ومنها ما يختص بما فرض عليّ تتميماً للشروط التي تتطلبها الجامعة ممن يتقدمون لمثل هذا الامتحان الذي اتقدم اليه . وكل ما في درسي هذا انه محاولة ، ان لم اكن قد وفقت في كل نتائجها ، فاني ارجو ان اكون قد وفقت في الطريق او المنهج الذي سلكته فيها.

ولقد كان غرضي ان اقوم بدرس تمهيدي لكتاب من الاصول الادبيّة والتاريخيّة فاخترت عقد ابن عبد ربه في الاخبار — هذا الكتاب الشهير الآن بالعقد الفريد — علني استطيع ان اكشف من درسه بعض الامور المغمضة عن قيمته الادبيّة والتاريخيّة ، من حيث معرفة المصادر التي استند اليها صاحبه ومقارنتها معه والاطلاع على الاخبار التي نقلها والطريق التي سلكها في نقلها ، ومن حيث فهم نزعات صاحبه وميوله واغراضه وخلقه وحياته بوجه عامّ والجوّ الذي عاش فيه والاثر الذي كان له في عالمي المنظوم والمنثور ، وما لكل هذه او لبعضها من اثر في شعره وعقده.

ولست اظن ان احداً اليوم ينكر اننا الآن احوج ما يكون في نهضتنا العلمية هذه الى دراسات علميّة لهذه الاصول المتنوّعة التي خلفها لنا السلف ،

تُستهلّ بنشر الاصول نفسها نشرًا علميًا صحيحًا يعقبه درس فيها مستقيم بريءٌ من الهوى والغرض وفقًا لشروط العلم الحديثة وتبعًا لنظمه الثابتة الراهنة .

ولقد قدّر للعقد ان ينشر لاول مرة في مصر منذ نحو ستين سنة ، والنظم العلميَّة الحديثة للنشر لم تتصل الى الشرق بعد ، او ان شئت فقل لم تتصل بالذين نشروه ، فجاء سقيم الطبع كثير الخطأ محرّف الاصل عديم الفهارس فيه اضطراب وتشويش . وجدّد طبعه في مصر غير مرة فلم تكن آخرته احسن من اولاه .

ولم يكن باستطاعتي في مثل هذه الظروف التي انا فيها ان اقوم بنشر جديد لهذا الكتاب ، وقد تعددت نسخه الخطيَّة حتى ذكر منها بروكلمن في كتابه تاريخ الآداب العربية سبعًا وثلاثين واحدة انتثرت في اطراف اوربة بين الاستانة وبطرسبرج ولندن ومدريد وفرقت في رقعتها في كثير من مدنها الشهيرة ، ناهيك بما قد يمكن ان يكون منها في افريقية واسية وسط الخزائن المختلفة في حواضر البلدان الاسلاميَّة . فتركت الامر آملًا ان تقوم به مؤسسة علمية لها كفاءتها ولها مالها اللازم للمشروع وتقدمت لدرس العقد كما نشر معتمدًا بنوع خاص الطبعة الاولى البولاقية التي يعتمدها اكثر الباحثين على ما في الامر من مشقة وعناء لما في الطبعة المذكورة من عبث وتشويش وفوضى وارتباك ودسّ وتحريف .

ولقد نهجت في العمل مبتدئًا بدرس المآخذ التي تعيننا في هذا البحث ممَّا تعرض لحياة ابن عبد ربّه او وصف عقده فذكرتها بترتيب توقيتي ، وأشرت الى بعض نواحي قيمتها فيما يتعلق بموضوعنا . وقصرت على ذلك كلّه قسمًا كاملًا اتبعته بقسم آخر عن حياة ابن عبد ربّه ، والجوّ الذي عاش فيه ، ووصفت بنوع خاص قرطبة ذلك العصر وصفًا موجزًا وذكرت شيئًا من ضروب الحياة فيها . ثم انتقلت بعد ذلك الى درس العقد نفسه فبحثت في هذا القسم عن المصادر التي استطعت ان اعرف ممَّا استند اليها صاحبه في تدوينه اخباره او تنظيمه فرائده ، واشرت الى طريقته في التأليف ومبدأه فيه وبحثت في بعض نزعاته وميوله ، وحاولت اظهار قيمة الكتاب من حيث التاريخ والادب والدين . وأشرت

الى ما عثرت عليه من اخبار قد دسّها فيه الاقدمون فحملها على صاحبه المتأخرون واثبتها الناشرون. ونبّهت الى بعض أخطاء ارتكبها بعض العلماء ممن عرضوا لدرس شيء من هذه الامور. ثم قصرت القسمين الأخيرين الرابع والخامس على نثر ابن عبد ربه وشعره ، وحاولت فيهما تحليل أثره في عالمي المنثور والمنظوم.

ولا يسعني قبل الختام الّا ان ارفع شكري لحضرات الآباء اليسوعيين في كلية القديس يوسف ببيروت الذين سهّلوا لي امر مطالعة كثير من كتب مكتبتهم الشرقيّة مما يتعلق بدرسي هذا وتكرّموا بنشر هذه الرسالة اقساماً متتابعة في مجلتهم «المشرق» الغرّاء في سنتي ١٩٣٢ و ١٩٣٣ واعتنوا بطبعها على حدة بمطبعتهم العامرة ، واخصّ بالذكر منهم المستشرق الكبير الاب هنري لامنس فلقد كان لملاحظاته ولتشجيعه اياي اثرٌ عظيمٌ في هذه الرسالة.

واشكر بنوع خاص الصديق الزميل السيد فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في الكلية المذكورة لاعتنائه الكثير بالوقوف على نشر هذه الرسالة في «المشرق» اولاً ثم على حدة آخراً ، فالحق انه كان لي منه في تعهده اياها نفع عظيم .

ولا ارى بدّاً من تقديم جزيل الشكر والاعتراف بالفضل لرئيس دائرة الدروس العربيــة في جامعتنا الاستاذ انيس الخوري المقدسي ولاستاذي التاريخ الشرقي الدكتور اسد رستم والدكتور قسطنطين زريق لمساعدتهم العلميــة والادبية لي.

جبرائيل جبور

جامعة بيروت الاميركية ، في ١٦ ايار سنة ١٩٣٣

فهرس المحتويات

١

مصادر الدرس

بين ايدينا مصادر ثلاثـة نستقي منها اخبار ابن عبد ربّه اولها عِقده في الاخبار ، الكتاب الشهير الآن « بالعقد الفريد » ، وثانيها شعره المنتثر في بعض الكتب وبالاخصّ في كتاب « يتيمة الدهر » للثعالبي وفي العقد نفسه ، وثالثها ما كتبه المؤرخون والادباء عنه .

ولنبدأ بالاخيرة فنذكرها على انواعها ونجتهد في تصنيفها حسب اصلها وقدميتها وقيمتها ليتضح ما يجوز التعويل عليه من اخبارها وما لا يجوز ، وترتبط بتفضيل مصدر على مصدر مسألة ذات شأن وهي : مَن من هؤلاء المؤرخين او الادباء قد اعتمد على غيره ؟ ومَن مِنهم سبق غيره ؟ ومَن مِنهم نستطيع ان نسقطه من قائمتنا ادرس حياة ابن عبد ربّه حيث انه لم يزد على من سبقه شيئاً ؟ وكم كنا نودّ لو كانت لدينا دراسات علمية في رجال الادب والتاريخ العربي من حيث البحث عن المؤثرات المختلفة التي قد يمكن ان تكون اثّرت على بعضهم ، او من حيث درس نزعاتهم الخاصة من شخصية وغيرهـا ، والظروف التي احاطت بهم عند تدوينهم الاخبـار ، او انتمائهم الى بعض الاحزاب او تعصبهم لبعض الاشخاص الخ . وعسى ان لا يفوتنا تدوين ملاحظاتنـا على بعضهم في حينها . وسنضرب صفحاً عن كل المصادر الحديثة اذ لم نرَ مصدراً منها يستند الى غير

الاصول التي بين ايدينا فلا نعرض لها الا لمناسبات خاصة.

اما اقدمها واقربها عهداً بابن عبد ربه فكتاب «تاريخ علماء الاندلس» لابن الفرضي ابي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي الحافظ المتوفى في ٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ (٢٠ نيسان سنة ١٠١٣ م)[١] وقد ذكر نسبه كاملاً فقال: «احمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر ابن حبيب بن حدير بن سالم مولى الامام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية من اهل قرطبة يكنى[٢] ابا عمر[٣]» واتى على شيء وجيز من تاريخه، ولكنّ فيه فوائد كثيرة.

ويلي ابن الفرضي الثعالبي ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسمعيل النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ[٤] (١٠٣٧ ـ ١٠٣٨ م) فلا يذكر في كتابه «يتيمة الدهر» سوى شعره ويوسع له، من صفحة ٣٦٠ ج ١ الى صفحة ٣٦٤، ومن صفحة ٤١٢ بالجزء نفسه الى صفحة ٤٣٤، مجالاً لتدوينه. وتمتاز هذه المجموعة الشعرية بانها فريدة، اذ ليس بين ايدينا مجموعة لشيء من شعر ابن عبد ربه غيرها؛ وهي تضمّ اشعاراً لم يذكرها ابن عبد ربه في عقده. غير اني اخشى ان الثعالبي نظر اليه نظره الى رجلين فترجم للاول باسم احمد بن عبد ربه وذكر شعره من صفحة ٣٦٠ ج ١ الى صفحة ٣٦٤، وللثاني باسم احمد بن محمد بن عبد ربه وذكر شعره من صفحة ٤١٢ بالجزء نفسه الى صفحة ٤٣٤. كما وان الثعالبي قد ذكر ابياتاً في صفحة ٣٥٧ ج ١ نسبها الى شاعر باسم حبيب بن احمد الاندلسي، وقد اوردها ابن عبد ربه في عقده منسوبةً لنفسه؛ ولعلّ حبيب ابن احمد هذا مقلوبٌ عن احمد بن عبد ربه بن حبيب.

ويلي الثعالبي القيرواني ابو عبيد الله محمد بن شرف المتوفى سنة ٤٦٠ هـ[٥] (١٠٦٧ - ١٠٦٨ م) فيذكر في رسالة له عنوانها «اعلام الكلام» كلمة وجيزة

---

١) راجع بشأن سنة وفاته Moh. Ben Cheneb, [The Encyclopaedia of Islâm, vol. II, p. 375]

٢) في الاصل: يكنا ٣) ابن الفرضي ١: ٣٧

٤) ابن خلكان ١: ٤١٢

٥) راجع اعلام الكلام، طبعة الخانجي، مصر سنة ١٩٢٦

عن ابن عبد ربه فيها تصريح بمدائح ابن عبد ربه للمروانيين ومطاعنه في العباسيين

ثم يعقب القيرواني الوزير الفتح بن خاقان المتوفى حوالي سنة ٥٢٩ هـ[١] (١١٣٤ م) فيسرد في كتابه « مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس » من صفحة ٥١ الى صفحة ٥٣ ترجمة ضافية لابن عبد ربّه راعى فيها السجع ، وذكر بها اخبارًا وقصصاً عن ابن عبد ربه لم يذكرها ابن الفرضي ، ولم يذكر الفتح شيئاً عن نشأة ابن عبد ربه الاولى، ولم يؤرّخ ولادته ولا وفاته ولم يذكر اصابته بالفالج ؛ مما يدل على انه لم يطلع على كتاب ابن الفرضي ، بل استقى من رجل ذكره عُرف بابن حزم ، وربما استقى من مصادر اخرى لم يذكرها .

ويتبع ابن خاقان الضبيّ احمد بن يحيي بن احمد بن عميرة المتوفى حوالي سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م)[٢] فيذكر في كتابه « بغيـة الملتمس في تاريخ رجال اهـل الاندلس » صفحة ١٣٧ الى صفحة ١٤٠ ، بعضَ الاخبار عن ابن عبد ربه وعن عقده ، ينقلها عن رواية الحميدي ، وينقل بعض الاشعار عن ابن حزم . ويظهر ان الضبيّ ايضاً لم يطلع على رواية ابن الفرضي .

ويلي الضبيّ ياقوت الرومي الحموي المتوفى سنة٦٢٦هـ[٣] (١٢٢٨ م) فيذكر في معجمه للادباء « كتاب ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » ج ٢ صفحة ٦٧، ترجمة لحياة ابن عبد ربه يتفق اكثرها بالحرف مع ما ذكره الضبي ؛ مما يدلّ على احد امرين : اما ان يكون ياقوت قد اخذ عن الضبي ، او ان يكون كلاهما قـد استقيا من مصدر واحد ؛ لاسيما وقد ذكر كل منهما روايتـه مسندة الى الحميدي . ويجوز ان يكون ياقوت قد اخذ عن مصدر غير الضبيّ استقى صاحبه من الحميدي ، اذ ان ياقوتاً ارتكب اغلاطاً لم يرتكبها الحميدي

---

١) راجع Moh. Ben Cheneb, [The Encyclopaedia of Islâm, vol. II, p. 82]
والفتح بن خاقـان هذا هو غير الفتح بن خاقـان صديق المتوكل والمقتول معه ، راجع K.V. Zetterstéen, [The Encyclopaedia of Islâm, vol. II, p. 83] وراجع الفهرست، طبع اوربة ، ١١٧

٢) C. F. Seybold, [The Encyclopaedia of Islâm, vol I, p. 884]

٣) ابن خلكان ٢ : ٣١٨

وصحف كلمات اصلحها الناشر الاستاذ مرجليوث ، وحذف ابياتاً وعبارات اثبتها الناشر ايضاً عن الحميدي[1] . ومن الخير الّا نجزم بمثل هذا الامر لاسيما ونحن لم نرَ النسخة التي خطها ياقوت بقلمه ، وليس لدينا نسخة من رواية الحميدي .

ويمتاز ياقوت بذكره بعض اخبار عن ابن عبد ربه وعن عقده لم يذكرها الضبي ، ولكن قد سبقه الى ذكر اكثرها الفتح بن خاقان . ولعلّ ياقوتاً قد نقلها عن الفتح هذا ، اذ انه قد اورد اكثرها كما اوردها الفتح بالحرف الواحد ، واسلوبها السجعي هو اسلوب الفتح نفسه[2] . كذلك ترى المقاطيع الشعرية متتابعاً اكثرها على الترتيب الذي اورده الفتح .

وقد اتى بعد الفتح بن خاقان القاضي ابو العبّاس احمد الشهير بابن خلّكان المتوفى سنة ٦٨١ ﻫ (١٢٨٢ م)[3] . فترجم لابن عبد ربه في كتابه « وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان » ج١ص٤٥ . فلم يزد على من تقدمه شيئاً . غير انه عند ذكره مطلع قصيدة ابن عبد ربه في المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم احد ملوك الاندلس .

بالمنذر بن محمد ... شرفت بلاد الاندلس
فالطير فيها ساكن ... والوحش فيها قد أنس ،

يذكر مصدراً استند اليه في خبرها هو كتاب « ادب الخواصّ » للوزير ابن المغربي[4] . ولعلّ كتاب « ادب الخواصّ » قد ذكر شيئاً عن حياة ابن عبد ربه تنفعنا معرفته . انما لم نعثر على ذكر لهذا الكتاب في مختلف الموسوعات والكتب التي بين ايدينا . ولذلك فلا نستطيع معرفة موضع وجوده ان كان موجوداً الآن ، وبالتالي لا نعلم ما يمكن ان يكون تضمّنه من الاخبار عن ابن عبد ربه .

وعقب ابن خلكان عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ الشهير المتوفى سنة٨٠٨ﻫ

---

١) ياقوت ٢ : ٦٧ و٦٨ و٦٩

٢) ياقوت ٢ : ٧١ ، وقابله بالفتح بن خاقان ص ٥٢ . وقد ترى في بعض المواضع ان ياقوتاً يفكّ السجع غير انه يستعمل المفردات نفسها التي استعملها الفتح .

٣) راجع C. Brockelmann, [The Encyc. of Islâm, vol. II, p. 396]

٤) ابن خلكان ١ : ٤٦

(١٤٠٦ م)[١] فكتب في مقدمة كتابه « كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر » ، ص٥٤٠، بحثاً عن الموشحات والازجال في بلاد الاندلس ذكر فيه ابن عبد ربه، صاحب العقد ، وكناه بكنية جديدة لا نعلم من اين اتى بها هي «ابو عبدالله»؛ وذكر انه اخذ نظم الموشحات عن مخترعها مقدم بن معافر . ولم يذكر شيئاً عن حياته،ولا دوّن شيئاً من موشحاته التي زعم انه نظمها،وانها كسدت بعده .

وتبع ابن خلدون الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي المتوفى سنة ٩١١هـ (١٥٠٥)[٢] .فذكر في كتابه «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة»، ص ١٦١ ، شيئاً نسخه، فيما نرى،عن ابن الفرضي .

وتلا السيوطي المقري ، بتشديد القاف ، احمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٤١هـ (١٦٣١ م)[٣] فكتب في كتابه « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » ، ج ٤ :ص٦٢٨ ، فصلاً عن ابن عبد ربه غير انه كفانا مؤونة البحث عن مصدر اخباره في هذا الفصل فذكر لنا انه نقله بالحرف عن الفتح بن خاقان واورده في كتابه « نفح الطيب » نموذجاً من كتاب « مطمح الانفس » وطريقة ترجمة الفتح حياة الاشخاص . وذكر المقري اخبارًا اخرى عن ابن عبد ربه لم يتصدَّ احدٌ لذكرها قبله .

وتلا هؤلاء جميعاً حاجي خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٧ م)[٤] . فذكر في كتابه « كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون » ، ص ١٢٤ ، عِقد ابن عبد ربه ونقل وصفه عن ابن خلكان . وذكر شيئاً عن ابن عبد ربه نقله عن ابن كثير[٥] لم نرَ احدًا من المتقدمين عرض له،الا وهو التشيّع من ابن عبد ربه لآل البيت .

---

١) راجع Alfred Bel, [The Encyc. of Islâm, vol. II, p. 395]

٢) راجع F. Wüstenfeld, *Die Geschichtschreiber der Araber*, p. 229

٣) F. Wüstenfeld, *op. cit.*, p. 266

٤) J. H. Mordtmann, [The Encyc. of Islâm, vol. II, p. 205]

٥) هو الامام الحافظ عماد الدين ابو الفدا اسمعيل بن عمر الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ . صاحب كتاب « البداية والنهاية » في التاريخ (حاجي خليفة ج ١ :١٨٧)

بقي لدينا طائفة يسيرة من الكتب التي ذكرت عرضاً اخباراً عن ابن عبد ربه صاحب العقد،عند تصديها لغيره ؛ ككتاب « طبقات الامم » للقاضي صاعد ابن احمد بن صاعد الاندلسي المتوفى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ — ١٠٧٠ م)[١] حيث نرى ترجمة لابن اخي صاحب العقد فيها بعض الاخبار عن صاحب العقد نفسه[٢]. وككتاب«التكملة لكتاب الصلة» لابن آبار المتوفى سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م)[٣] وككتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن ابي اصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠م)[٤] حيث نرى الاخبار نفسها منقولة، فيما نظن، عن ابن صاعد.

اما «كتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة» لابن بسام فلم يطبع بعد،ولم نطّلع على نسخة خطية منه . غير اننا اخذنا ما ذكره ابن بسام عن ابن عبد ربه من مصادر اخرى نقلته عنه « كفوات الوفيات » للصلاح الكتبي ، ومقدمة الدكتور ا . ر. نيكل في ترجمة « طوق الحمامة » لابن حزم . واودّ ان اشير هنا الى ان ابن بسّام ، صاحب الذخيرة، هو غير ابن بسّام الشاعر الذي عاش في المشرق في بغداد وغيرها وعاصر المعتضد ، وكتب اخبار ابن ابي ربيعة والاحوص ومناقضات الشعراء[٥]. فقد مات هذا سنة ٣٠٢ او ٣٠٣هـ.[٦] بينما صاحب الذخيرة قد ترجم لرجال عاشوا في القرن الخامس للهجرة[٧]. ولعلّ لجنة نشر فهارس دار الكتب في القاهرة لم تلتفت الى هذا الامر في طبعتها الجديدة المتقنة لفهارس الدار[٨].

وهناك كثير من الكتب المتأخرة والموسوعات سنضرب الآن عن ذكر جميعها صفحاً ، اذ انها كلها لم تستق من غير المصادر التي ذكرنا . وقليل من

١) راجع كتاب « طبقات الامم » لابن صاعد ، طبعة المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، سنة ١٩١٢ ، ص ١

٢) ص ٧٩ و٦٤ حيث ترى قصيدة لابن عبدربه صاحب العقد تفرّد ابن صاعد بذكرها

٣) Moh. Ben Cheneb, [The Encyclopaedia of Islâm, vol. II, p. 353]

٤) [The Encyclopaedia of Islâm, vol. II, p. 357] في المقالة المهملة التوقيع

٥) ابن خلكان ١ : ٥٠٢ ٦) ابن خلكان ١ : ٥٠٢

٧) الكتبي ١ : ٢٥٥ ٨) فهرس الكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية ٣ : ١٥٢، مطبعة دار الكتب سنة ١٩٢٧م

اصحابها مَن اطلع على كل هذه المصادر ، ولعلّنا نعرض لبعضها في حينه .

اما شعره فسنعرض له بمقال خاص . كذلك سنعرض لعقده بمقال آخر ، دون ان يفوتنا الاستشهاد بما ينفعنا في كل منهما من حيث علاقته بدرسنا عن حياته ونشأته ونزعاته وميوله .

وسنذكر الآن اتماماً للفائدة جدولًا باسماء اهم المآخذ (قديمها وحديثها) التي رجعنا اليها في درس ابن عبد ربه ، او في تحقيق شيء عن عقده او شعره ، مرتبةً حسب قدمية اصحابها وظهورها . وسنكتفي بعدئذٍ عند الرجوع اليها بذكر اصحابها على الشكل المختصر المدوّن امام كل مأخذ .

المآخذ

الجاحظ ت : ابو عثمان عمرو بن بحر : التاج في اخلاق الملوك ، الطبعة الاولى ، المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٣٣٢هـ . (١٩١٤م) .

الجاحظ م : المحاسن والاضداد ، ليدن سنة ١٨٩٨ .

ابن قتيبة : ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري : عيون الاخبار ، الطبعة الاولى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، فرغ من طبعها سنة ١٩٣٠ .

المبرّد : ابو العباس محمد بن يزيد الازدي : الكامل ، ليبزك سنة ١٨٧٤ .

ابن عبدربه : احمد بن محمد بن عبد ربه : العقد الفريد ، المطبعة الاميرية ، مصر سنة ١٢٩٣ هـ

ابن النديم : محمد بن اسحق الورّاق : الفهرست ، ليبزك سنة ١٨٧١ .

ابن الفرضي : عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي : تاريخ علماء الاندلس ، مجريط سنة ١٨٩٠م

الثعالبي : ابو منصور عبدالله بن محمد بن اسمعيل الثعالبي النيسابوري : يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ، المطبعة الحنفية بدمشق ، سنة ١٣٠٢هـ .

القيرواني : ابو عبدالله محمد بن شرف القيرواني : اعلام الكلام ، طبعة الخانجي ، مصر سنة ١٩٢٦ م .

ابن صاعد : القاضي صاعد بن احمد بن صاعد الاندلسي : كتاب طبقات الامم ، بيروت سنة ١٩١٢ .

ابن خاقان : الفتح بن خاقان الوزير الكاتب : مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس ، مطبعة الجوائب ، استنبول سنة ١٣٠٢ هـ

الضبيّ : احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس ، مجريط سنة ١٨٨٤م .

ياقوت : الشيخ شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي : ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، مطبعة هندية ، مصر سنة ١٩٢٤ .

ياقوت ب : معجم البلدان ، ليبزك سنة ١٨٦٩ .

ابن ابار : محمد بن عبدالله القضاعي : كتاب التكملة لكتاب الصلة ، مجريط سنة ١٨٠٦م

ابن ابي اصيبعة : احمد بن القاسم السعدي الخزرجي : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، المطبعة الوهبية ، مصر سنة ١٢٩٩هـ.

ابن خلكان : شمس الدين احمد بن محمد : وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، مصر سنة ١٢٧٥ هـ .

الكتبي : صلاح الدين محمد بن شاكر : فوات الوفيات ، مصر سنة ١٢٨٣هـ.

ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة لكتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، بيروت سنة ١٨٧٩ م

الابشيهي : الشيخ شهاب الدين : المستطرف من كل فن مستظرف ، بولاق سنة ١٢٧٢ هـ

السيوطي : الحافظ جلال الدين الشافعي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، مصر سنة ١٣٢٦هـ .

المقري : احمد بن محمد المقري : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، المطبعة الميرية المصرية ، سنة ١٢٧٩ هـ

حاجي خليفة : كاتب چلبي : كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون ، طبعة الاستانة سنة ١٣١٠ هـ .

Wüstenfeld — *Geschichtschreiber der Araber etc.*, 1882

Hartmann — *Das arabische Strophengedicht*, I *Das Muwaššaḥ*, 1897

Brockelmann — *Geschichte der arabischen Litteratur*, Berlin, 1902

زيدان : جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، مصر سنة ١٩١٢ م .

Dozy — *Spanish Islam, translated by* F. Griffin, Lon. 1913

شفيع : محمد شفيع : مقالته عن الحرمين كما وصفها ابن عبد ربه في كتاب «عجب نامه» *A Volume of Oriental Studies presented to* Edward G. Browne *on his* 60th *Birthday, edited by* T. W. Arnold and Reynold A. Nicholson. Cambridge University Press, 1922.

Nicholson — *A Literary History of the Arabs*, Lon. 1923

بستاني : فؤاد افرام البستاني : الروائع عدد ٨ ج ١ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت سنة ١٩٢٧ .

Ribera — *Music in ancient Arabic and Spain, translated and abridged by* E. Hague and M. Leffingwell Stanford, University Press, California, 1929.

Nykl — *The Dove's Neck-ring*, Paris, 1931

وقد يجوز ان نرجع الى غير هذه المآخذ . وعند ذاك فسندوّن اسم المأخذ كاملاً مشيرين الى موضع طبعه وزمنه.

٢

حياة ابن عبد ربه

قليل جداً هذا الذي بين ايدينا عن ابن عبد ربه . فـلا هؤلاء المؤرخون ذكروا لنا شيئاً مفصلاً عن حياته في شبابه من حيث العمل الذي كان يعمله او الوظيفة التي كان يشغلها ، ولا هم شرحوا لنا كيف قضى بقية عمره . وجلّ ما في الامر انهم اكتفوا بتاريخ ولادته ووفاته ، وببعض قصص ونوادر تكاد تطلّ على شيء من نواحي خلقه وطبعه؛ واشاروا الى شيء من حياة اللهو التي كان يحياها دون ان يسهبوا او يفصلوا او يعلّلوا ، واضافوا الى اشاراتهم هذه انه كان للرجل ديانة وصيانة ، وانه آخر حياته اقلع عن لهوه وتاب عن غيّه ، ممّا لا يزيد عمّا نستطيع ان نفهمه من بعض اشعاره . والغريب انهم يسكتون عند هـذا الحدّ بحيث لا نرى اشارة الى سبب نهجه في شبابه منهج اللهو ، او الى كيف انصرف الى الغزل ، وطريق ايّ الشعراء سلك ، وما الذي ردّه عن سابق خطّته من اتباع سبل اللهو والعبث وقرض الغزل بحيث تاب واقلع عن صبوته وعمـد الى شعره في الغزل فمحّصه ونقضه بغيره في المواعظ والزهد.

خذ مثلاً ابن خلكان فانه يقول : « ان ابن عبـد ربه كان من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على اخبار النـاس »[١] . ولكن من اين استقى تلك الاخبار ؟ ومن اي الاشعار كانت تلك المحفوظات ؟ واي الشعراء احبّ ابن عبد ربه ؟ وخطة ايّهم اقتفى ؟ تلك امور لم يتصدَّ لها !

وكذلك كان شأن غير ابن خلكان من الذين كتبوا عن ابن عبد ربه ، لا نستثني منهم سوى ابن الفرضي فقد تفرّد بذكر بعض اساتذة درس عليهم ابن عبد ربه منهم بقي بن مخلَد، وابن وضّاح، والخشني[٢] . ولولا ان ابن عبد ربه

---

١) ابن خلكان ١ : ٤٥ ٢) ابن الفرضي ١ : ٣٧

ذكر لنا في عقده اسماء كثير من المصادر التي رجع اليها ، وبعض الفقهاء الذين اخذ عنهم ؛ ولولا انه صوّر لنا شيئاً من نزعاته وميوله وخلقه في كلا اثريه : شعره وعقده ، لكان تاريخه اقرب الى الخفاء منه الى الظهور ؛ وانا لنرى في عقده وفي شعره ما يساعدنا على فهم كثير من الامور التي مرّ بها بعض المؤرخين او الادباء مكتفين بالاشارة اليها .

نسبه

هو ابو عمر[1] شهاب الدين احمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدير[2] بن سالم القرطبي ، مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية[3] بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الاموي[4] .

ولادته

ولد على الارجح في قرطبة[5] في شهر الصوم ، رمضان ، في العاشر منه سنة ٢٤٦ هـ[6] . وهو ما يوافق التاسع والعشرين من تشرين الثاني سنة ٨٦٠ م[7] .

نشأته

لم يذكر احد شيئاً عن ايام ابن عبد ربه الاولى ، ولا هو المع الى شيء من وصفها في عقده ، ولا نحن نعلم شيئاً عن ابيه او جدّه او المحيط العائلي

---

١) بعض المصادر تذكره بواو « ابو عمرو » وهو خطأ . وقد وردت هذه الكنية في شعر بذيء لمعاصر لابن عبد ربه هجاه به :

يا عرسَ احمدَ اني مزمعٌ سفرا فودعيني سرًّا من ابي عُمَرا

راجع المقري ٢ : ٨٣٢ . وسنتصدى لامر كنية ابن عبد ربه في موضع آخر .

٢) ياقوت ٢ : ٦٧ يكتبها « حدر » . غير ان الناشر يصلحها في الهامش بحدير ، نقلًا عن الحميدي . اما ابن خلكان ١ : ٤٥ فيكتبها « حدير » ثم يقول بضمّ الحاء ، وفي سائر المصادر نراها « حدير » .

٣) ابن الفرضي ١ : ٣٧ ٤) الضبي : ١٣٧

٥) ليس بين المصادر الاولية التي بين ايدينا ما يعين موضع ولادته . فالبعض كابن الفرضي مثلًا يذكر ان ابن عبد ربه من اهل قرطبة (١ : ٣٧) وابن خاقان يذكر حادثة جرت لابن عبد ربه في شبابه ، وهو في قرطبة ، والغريب ان Brockelmann يجزم ان الولادة كانت في قرطبة راجع مقالته في [The Encyc. of Islâm, vol. II, p. 353]

٦) الضبي : ١٣٧

٧) Brockelmann, [The Encyc. of Islâm vol. II, p. 352]

الذي نشأ فيـه . وجل ما نعلم هو ان والد جد جدّه ، « سالم القرطبي » ، كان مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان . وقد كان هشام بن عبد الرحمن اميرًا بعد ابيه عبد الرحمن الداخل . ولكن هل استمرت عائلة سالم القرطبي في ولائها لآل هشام من بعده . ذلك امرٌ لا نعلمه .

نشأ في قرطبة كما يستدلّ من بعض الاخبار المرويّة عنـه[١] . وقد كانت قرطبة في ذلـك العصر من اعظم مدن الاندلس تشبه بغـداد في كثير من الوجوه ، حتى قيل انها كاحد جانبي بغداد[٢] . وكان فيهـا رصافة كرصافـة بغداد[٣] . وكانت عظيمة العمران ، ذكرها المقري في « نفح الطيب » فقال : « يحكى ان العمارة في مباني قرطبة والزاهرة والزهراء اتصلت الى انه كان يمشى فيها بضوء السرج المتصلة عشرة اميال وفيها جبال الورد الذي صـار اصحابه يرون الفضل لمن قطف بيده ما يمنحونه منه ونهرها ان صغر عندهـا عن عظمه عند اشبيلية فان لتقارب برّيه هنالك وتقطع غدره ومروجه معنى آخر وحـلاوة اخرى وزيادة انس وكثرة امان من الغرق وفي جوانبه من البساتين والمروج ما زاده نضارةً وبهجة »[٤] .

وقال ابن حوقل التاجر الموصلي ، وكان قد طرق تلك البلاد في حدود سنة ٣٥٠ : « واعظم مدينة بالاندلس قرطبة وليس لها في المغرب شبيـه في كثرة الاهل وسعة الرفعة »[٥]

وليس غريباً ان تكون قرطبة كما وصفهـا هؤلاء . فقـد كانت عاصمة الامراء الاندلسيّين من بني اميّة ، منذ زمن عبد الرحمن الـداخل في منتصف القرن الثاني الى زمن عبد الرحمن الناصر ، الذي عاصره ابن عبد ربه ، والى ما بعد زمن الناصر .

وكان اهلها متموّلين[٦] . وكان فيهـا من ضروب اللهو والغناء مـا يوافق حاضرة مثلها . تغرّب عنها قاضي الجماعة فيها ، فقال :

---

١) ابن الفرضي ١ : ٢٧
٢) ياقوت ب ٤ : ٥٩
٣) ياقوت ب ٤ : ٥٩
٤) المقري ٢ : ٧٩٣
٥) ياقوت ب ٤ : ٥٩
٦) 〃 〃 〃

يُلمُّ ذكراي من ورقٍ مغرِّدةٍ   على قضيبٍ بذاتِ الجزع ميّاس
رددن شجوًا شجى(١قلبي الخليَّ فقلْ   في شجو ذي غربةٍ ناء عن الناس
ذكّرنه الزمن الماضي بقرطبة   بين الاحبّة في لهوٍ وايناسِ
هجن الصبابة لولا همّةٌ شرفت   فصيرت قلبه كالجندل القاسي. ٢)

وكان الغناء شائعاً عند هؤلاء العرب الاندلسيين، لاسيما في قرطبة حيث كانت تفد الجواري المغنيات من مختلف الاقطارالعربية، من عهد زرياب المغني، موصلي الاندلس وصاحب السهم الاكبر في هذه الحركة الغنائية فيها، الى عهد شاعرنا ابن عبد ربه الذي كان فيما سيظهر لنا من المولعين بسماعه. وكان بلاط الامراء مسرحاً لهؤلاء المغنين والمغنيات[٣]. وكتب تاريخ الاندلس، من قديمة وحديثة، مفعمة بالاخبار عن هؤلاء وحياتهم في اندية الملوك والامراء، وعن الاثر الذي تركوه في نفوس اهل ذلك الجيل وادبهم. وتتفق هذه الكتب في ان الامراء كانوا يتبارون في اقتناء الجواري المغنيات، كما يتبارون في استحضار الشعراء الى بلاطهم. فيحيطون الجميع بعنايتهم ورعايتهم ويشجعونهم ويغدقون عليهم العطايا.

وكان ابن عبد ربه جدّ مولع بسماع هذا الغناء. ذكر الفتح بن خاقان ان الغناء الذي سمعه ابن عبد ربه وهو مارّ تحت قصر احد الرؤساء بقرطبة اذهب لبّه والهب قلبه[٤]. وسرعان ما تناول رقعة كتب عليها الى صاحب القصر يسأله الاذن في سماع المغنية:

يا من يضنُّ بصوت الطائر الغرد   ما كنت احسب هذا البخل في احد
لو أن اسماع اهل الارض قاطبةً   اصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضنّ على سمعي تقلّده   صوتاً يجول مجال الروح في الجسد.
اما النبيذ فاني لست اشربه   ولست آتيك الا كسرتي بيدي ٥)

---

١) كذا في الاصل، والصواب: شجا
٢) ياقوت ب ٤: ٥٩
٣) Ribera، صفحة ١٠٩، يذكر انه كان عند الامير سعيد بن جودي مغنّية اسمها جهان كانت ترغب في ان لا تخفي صوتها، فكانت تنشد من الغرفة العليا في المنزل.
٤) ابن خاقان: ٥١
٥) ابن خاقان: ٥١

وذكر المقري ان هذه المغنية معروفة اسمها مصابيح ، وقد كانت جارية عند الكاتب ابن حفص عمر بن قلهيل ، وقد اخذت الغناء عن زرياب نفسه . وروى انها كانت غاية في الاحسان والنبل وطيب الصوت ، وان سيدها عند قراءته ابيات ابن عبد ربه خرج حافياً وادخله الى مجلسه فتمتع من سماعها[١] .

ولنترك ما يقوله ابن خاقان والمقري الى ما يجاهر به ابن عبد ربه نفسه في عقده فيقول : « الصناعة التي هي مراد السمع ومرتع النفس وربيع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكئيب وانس الوحيد وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب واخذه بجامع النفس . »[٢] وقال ايضاً : « وقد يتوصّل بالالحان الحسان الى خير الدنيا والآخرة . فمن ذلك انها تبعث على مكارم الاخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذبّ عن الاعراض والتجاوز عن الذنوب . وقد يبكي الرجل بها على خطيئته ويرقق القلب من خشونته ويتذكر نعم الملكوت ويتمثله في ضميره »[٣] .

ولا استطيع المرور بهذا الكلام الذي يصف فيه ابن عبد ربه اثر الالحان الحسان في النفوس وفعلها في ترقية الاخلاق دون ان اتخيّل الرقيّ الذي كانت عليه هذه الصناعة ، او هذا الفن في العالم العربي وبالاخص في الاندلس ، يوم كانت اوربة لا تفقه منه شيئاً . وهل بعد هذا التصريح من ابن عبد ربه يظلّ بعض الغربيين على اعتقادهم ان الموسيقى قبل القرن السادس عشر لم تكن تثير في النفوس روعة الجمال كما تثيرها موسيقى اليوم ؟[٤]

ولا بدّ لي بهذه المناسبة ايضاً ان ادون هنا ان هذه الموسيقى الاندلسية من غناء وانغام لم ينقصها في نظر المستشرقين الذين فرغوا للبحث فيها وتخصصوا

---

١) المقري ، طبعة اوربة ، ٢ : ٩٠ . ويذكر Dozy ، ص٢٢٤ ، قصة مثل هذه عن الامير سعيد بن جودي انه كان ماراً بقرطبة قرب قصر الامير عبدالله ، فسمع صوت المغنية جهان من نافذة تطلّ على الشارع ، وكانت تغني للامير وتسقيه خمراً ، فانزوى سعيد في زاوية وتطلع الى النافذة حيث رأى يد جهان تناول الامير خمرته ، فعشقها .

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٩ .

٣) 〃 〃 〃

٤) Ribera, p. 8 ، ومن الخير ان Ribera نفسه لا يرى رأي هؤلاء .

لدرسها كـ Farmer و Ribera ، تلاؤم الاصوات وحسن ايقاع الالحـان ، اي الهارموني (*harmony*) ، التي ينعاها بعض الغربيين على الموسيقى الشرقية اليوم. بل اذهب الى ابعد من هذا فادوّن ما كتبه احدهما Ribera في مقدمـة بحثه الذي رفعه الى الاكادمية الملكية في اسبانية قال: « وهكذا اصبحت اسبانية الفنية القديمة العروة الوسطى التي ربطت الفن القديم بالجديد» ثم يقول ايضاً: « ان اوربة اذاً مدينـة لهؤلاء الاندلسيين الـذين حازوا هذا التراث في فنّ الموسيقى ونقلوه الى اوربة فظـلّ معيناً لا ينضب يرده الموسيقيون من اوربة دون ان يبحثوا عن مصادره .»[1]

وكم اود لو يعنى اليوم احد الموسيقيين الشرقيين ، الـذين حازوا شيئاً من الثقافة العلمية والموا باساليب البحث العلمي الحديثة ، بدرس هـذه الناحية من الموسيقى العربية القديمة وتبيان آثارها في موسيقى الغرب.

ولنعد الى ابن عبد ربه نسمع قوله في العقد ايضاً : « وبعد فهـل خلق الله شيئاً اوقع بالقلوب واشدّ اختلاساً للعقول من الصوت الحسن اذا كان من وجه حسن ؟[2] »

ولعلّ في هذا القول ما يلائم المبالغة التي رأيناها في قول الفتح بن خاقان عن ابن عبد ربه انه سمع صوتاً من القصر اذهب لبّه والهب قلبه[3].

وخصّص ابن عبد ربه كتاباً من عقده للالحان ، هو كتاب الياقوتة الثانية، ذكر فيه كثيراً من الروايات التي احتجّ فيها الناس باجازة الغناء ، وذكر بعض الاحاديث المنسوبة الى النبي العربي التي تجيز الغناء[4] . وردّ على ادعاء من كره الغناء ، وذكر تأويلهم في ذلك آياتٍ من القرآن فخطأهم في التأويل[5] ، ومضى محاولاً اظهار ان من كره الغناء انما كان كرهه له ككره بعضهم الملاذ من مطعم ولباس وغيره ، لا على طريق التحريم ، واستمرّ يفنّد حججهم ويردّ عليها.

---

١) Ribera, p. 9

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٤٠

٣) ابن خاقان : ٥١

٤) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٣

٥) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٣

فاذا ما ذكر قصة الحسن البصري مثلاً ، وقد تقدم اليه رجل يسأله عمّا يقول في الغناء فيجيبه : « نعم العون الغناء على طاعة الله ! » ويعود الرجل فيقول : « اسألك عمّاذا تقول في ان يغني الرجل ؟ » فيقول البصري : « وكيف يغني ؟ » فيأخذ الرجل يلوي شدقيه وينفخ منخريه . فيقول البصري : « مـا ظننتُ ان عاقلاً يفعل هذا ! » ، اذا ما ذكر هذه القصة وهذا الجواب الذي قد يشتمّ منه كره البصري للغناء ، انبرى يقول ان البصري انكر على الرجل تشويه وجهه وتعويج فمه ليس الا[1] . وقد يسلّم ابن عبد ربه مع خصومه في هذا الامر في ان بعض الايمة كانوا يكرهون الغناء ، ولكنه يرد عليهم بانَّ هـذا مذهب العراق او ، كما يقول هو ، « انما هو من طريق اهل العراق »[2] ويقول : « فان كانت الالحان مكروهة فالقرآن والأذان احقّ بالتنزيه عنها ، وان كانت غير مكروهة فالشعر احوج اليها . »[3]

وهكذا ترى ان ابن عبد ربه كان مولعاً بهذا الغناء مغرماً به يستلـذه كثيراً ، لاسيما ان كان من وجه حسن . ويجيزه على مذهب اهـل الحجاز ، وبالاخص اهل المدينة ، يقول : « ديننا في السماع دين مديني »[4] . ولنـا ان نظنّ انه كان يقضي قسماً من وقته لا بأس به في سماعه في المجالس التي كانت تعقد له ، لاسيما في بلاط الامراء الذين كان يتردد عليهم .

ولكن اكان هناك سبيلٌ للهو عند ابن عبد ربه غير الغناء ؟ وجوابنا : نعم ! ولعل بعض هذه السبل كانت من التي نهاه عنها قرآنه ، وقد احسّ في خروجه على شرائع دينه ، آخر حياته ، واخذ يستغفر ربه في شعره :

يا ربّ ، غفرانك عن مذنب أسرفَ ، الا انه نادمُ[5]

ترى أكان يشرب الخمر ؟ المرجح عنـدنا نعم ! ويتفرّد شعره في تصوير شيء من هذه الناحيـة من حياته اذ ليس بين كل المصادر التي بين ايدينا ، عدا شعره ، مـا يذكر شيئاً عن شربه المسكر ، وفي شعره هذا تناقض من

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٣٢

٢) 〃 〃 〃

٣) 〃 〃 ٣ : ٢٣١

٤) الثعالبي ١ : ٣٦٢

٥) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٦ ؛ والثعالبي ١ : ٤١٧ .

حيث هذا الامر سنحاول تعليله . ففي القصة التي ذكرنا عنه فيا يتعلق بالغناء الذي سمعه من جارية تغني بقصر احد الرؤساء ، ابيات منها هذا البيت :

اما النبيذ فاني لست أشربه   ولست آتيك الا كسرتي بيدي (١

وفيه كما يظهر تصريح انه لا يشرب النبيذ على الاطلاق . واذا تركنا هذا التصريح ونظرنا في شعره نرى مواضع كثيرة يذكر فيها حبه للخمر وشربه اياها ، ويصفها ويدعو الى شربها بحيث لا يظل ادنى شك في نفس القارئ ان ابن عبد ربه يشربها:

دع قول واشية وواشي   واجعلها كلبي هراش
واشرب مشعشعة تسل   ـسلُ في العظام وفي المحاشي
حتى ترى العود المسن   م بها ارق من الخشاش (٢

واسمع قوله ايضاً :

أصغى اليك بكأسه   مصغي صلت الجبين ، معقرب الصدغ (٣

...

كأس تولد بالمحبة بيننا   طوراً ، وتنزغ ايما نزغ .
في روضة درجت بزهرتها الصبا   والشمس في درج من الفرغ ،
واشرب بكف اغن عقرب صدغه   للقلب منك مميتة اللدغ .

واسمع ايضاً وصفه للراح ودعوته الى شربها :

وحاملة راحاً على راحة اليد   مورّدة تسقى بلون مورّد ،
متى ما ترَ الابريق للكأس راكعاً   تصلِّ له من غير طُهر وتسجدِ (٤
على ياسمين كاللجين ونرجس   كاقراط درّ في قضيب زبرجد
بتلك وهذي فالهُ ايلك كله   وعنها فسل،لا تسأل الناس عن غد (٥

---

١) ابن خاقان : ٥١ .   ٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٨ ؛ والثعالبي ١ : ٤٣٣ ، ٤٣٤

٣) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٧ ؛ والثعالبي ١ . ٤٣٢ – هذا البيت والابيات التي تليه من البحر الكامل ، وقد اوردها ابن عبد ربه في عقده ، في كتاب العروض ، شاهداً على العروض التامّ الذي له ضرب أحذّ مضمر [الحذذ يلحق مُتَفاعِلُنْ فتنقل الى فَعِلُنْ اي يحذف منها (عِلُنْ) ويظلّ (مُتَفا) ثم تنقل (مُتَفا) الى (فَعِلُن) . والاضار هو تسكين ثاني مُتَفاعِلُن فتصير مُتْفاعِلُن ، واذا لحقها الحذذ المذكور تصير فَعْلُن] ويظهر من البيت الاول ان عروضه وضربه احذّان مضمران بينما العروض في سائر الابيات تامة .

٤) في الاصل : « ترى » و « تصلي » ، اي دون ان يكون للجزم عمل فيها .

٥) ابن عبد ربه ٣ : ١٩٩ .

واسمع قوله في وصف نشوته من خمرتين: خمرة اللحظ ، وخمرة الكاس:

بزمام الهوى امتّ اليه ، وبحكم العقار اقضي عليه ، (١

بابي من زها عليَّ بوجه كاد يدمى لما نظرت اليه !

ناول الكاس واستمال بلحظٍ فسقتني عيناه قبل يديه (٢

وله ايضاً شعر في الزهد يذكّر فيه نفسه بقرب اجله ودنوّه من الهلاك ، ويلوم ذاته على لهوه في ادمان الخمر ، يستهلّه بقوله مخاطباً نفسه :

اتلهو بين باطيةٍ وزيرٍ ، وانت من الهلاك على شفيرِ ! (٣

واسمع اخيرًا تصريحه في شرح مذهبه في كلا الشرب والغناء ، وهو آخر بيت من قطعة يصف فيها الحبيب والغناء والمسكر :

ديننا في السماع دين مدينيّ م وفي شربنا الشراب عراقي (٤

اي انه يسمع الغناء على مذهب المدينيّين وطريقهم ، ويشرب الشراب على مذهب العراقيين . وكان المدينيّون يجيزون الغناء ، بينما كان العراقيون يجيزون الشراب[٥] . وفي كتب الادب والتاريخ العربية ذكر لمشاحنات كثيرة في هذا الموضوع بين الحجازيين والعراقيين ليس هنا موضع تفصيلها .

اما التناقض بين هذه الابيات التي ذكرنا لابن عبد ربه وبين البيت الاول « اما النبيذُ الخ » فظاهر . واما تعليله فليس بالامر العسير ، ونرى ان هناك احد امور ثلاثة : اما ان البيت الاول مدسوس على ابن عبد ربه ، لاسيما وهناك اكثر من صورة له[٦] ، او انه قاله وهو يعني انه لا يشرب النبيذ بل يشرب ما هو اقوى من النبيذ من انواع الخمر ، ويجوز انه يقصد انه لا يشرب نبيذ صاحب القصر ولا يأكل خبزه «ولست آتيك الا كسرتي بيدي »، او انه قاله حقًّا وعناه انما كان ذلك آخر حياته وذلك حينما تاب عن غيّه ولهوه ،

---

١) العُقار بضم العين الخمر لمعاقرتها اي لملازمتها الدنّ ، او لعقرها شاربها عن المشي ، او لانها عاقرت العقل ؛ راجع محيط المحيط : مادة « عقر » .

٢) الثعالبي ١ : ٣٦١

٣) ابن عبد ربه ١ : ٢٨٠ ؛ والثعالبي ١ : ٤١٧

٤) الثعالبي ١ : ٣٦٢

٥) راجع الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ، طبعة بولاق سنة ١٢٨٥ ، ج ٦ : ٩١

٦) ابن خاقان : ٥١

ولا نظن ان توبته كانت تمنع ان يسمع الغناء ، ونميل الى ترجيح الرأي الاخير . ولا يفوتنا ان نذكر هنا انه قد يجوز انه نظم هذا البيت في شبابه ايام لهـوه وصبوته ، ولكنه كان كاذباً على صاحب القصر فيـه . واذا فانا نعتقد ان ابن عبد ربه كان يشرب الخمر ويحبها ويدعو اليها . ولعل شربه اياها كان من بعض الامور التي ارتكبها واستغفر ربه من اجلها طالباً رحمته لا عدله :

يا ويلنا من موقف ما به اخوَف من ان يعدل الحاكمُ !
أبـارز الله بعصيانـه وليس لي من دونه راحمُ .
يا رب، غفرانك عن مذنبٍ أسرف ، الا انه نادمُ ! [1]

واذا نظرنا الى ما كتبه في العقد في باب الطعام والشراب[2] نرى انه من المتساهلين احيـاناً في امر شرب النبيذ يقف منه موقفاً يكاد يشبه موقفه من الغناء[3] ، حتى انه يقول في احد المواضع : « فانا نجد النبيذ قد اجازه قوم صالحون »[4]

ولقد سلك ابن عبد ربه سبلاً للهو ، غير الغناء والمسكر ، نرى الاشارة اليها في ما كتبه المؤرخون عنه[5] . ومن الطبيعي لمن كان اليف الغناء والسكر ان يكون تبع نساء ، وقد كان ابن عبد ربه كذلك . وفي بعض ابياته التي ذكرنا بمناسبة شربه الخمر تصريح بسلوكه سبل اللهو مع النساء في مجالس الشرب .

وحاملة راحاً على راحة اليد موردّة تسقي بلون موردِ . . . [6]

وله اشعار فيها تصريح اكثر من هذا نسكت عن ذكرها[7] . وهو لم يقتصر في غزله ، الذي يُظهر بعض لهوه ، على النساء . . . ولم يفت الذين كتبوا شيئاً من ترجمة حياته ذكر هذه الضروب من اللهو ، فقد دوّنوها عندما دوّنوا اخبار توبته ، واشاروا الى اشعار زهده التي محّص فيها اشعار صبوته[8] . ولم يفت ابن

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٦ ؛ والثعالبي ١ : ٤١٧ وفي الاخير «عفواً منك» بدل «غفرانك» .
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٨٠ ٣) ابن عبد ربه ٣ : ٤٠٠ و ٤٠١
٤) « « ٣ : ٢٨٠
٥) ابن خاقان : ٥١ و ٥٢ ؛ والضبّي : ١٢٨ ؛ وياقوت ٢ : ٦٧ — ٦٩
٦) ابن عبد ربه ٣ : ١٩٩
٧) المقري ، طبعة اوربة ، ٢ : ٢٨٤ ؛ والثعالبي ١ : ٤٢١ و ٤٢٧
٨) ابن خاقان : ٥٢ ؛ والضبّي : ١٢٩ ؛ وياقوت ٢ : ٧١

عبد ربه نفسه ، ايام توبته ، ان ينظر الى حياته هذه التي قضاها في سبل اللهو والغيّ والفساد نظر النادم الحزين قال :

زمانٌ كان فيه الرشد غياً ، وكان الغيُّ فيه من رشادي[١]

وله من قطعة :

الا يا زين قلبي للشبا ب العفر اذ ولّى ،
جعلت الغيّ سربالي ، وكان الرشد بي اولى .[٢]

هذا جلّ ما نعلمه عن شبابه من هذه الناحية . ولعله قد قضى اكثره في قرطبة ، اذ يظهر انه مدح اميرها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم[٣] ؛ وقد مات محمد هذا سنة ٢٧٣ هـ[٤] . اي حينما كان عمر ابن عبد ربه ٢٧ عاماً ، وقد كان ملك هذا الامير ٣٤ سنة[٥] ، اي انه اعتلى العرش قبل ولادة ابن عبد ربه بسبع سنوات . واذا راجعنا تاريخ الحقبة الاخيرة من حكم هذا الامير نرى ان الفتن كانت منتشرة في اكثر بقاع الاندلس وان رجلاً باسم عمر ابن حفصون كان يهدّد سلطة الامويين حتى يكاد يقضي عليها[٦] ، وأن قرطبة كانت المركز الوحيد لاتباع الملك وحشمه وشعرائه[٧] .

وكذلك نظن ان ابن عبد ربه قضى سنتي ٢٧٤ و٢٧٥ هـ في قرطبة ملازماً الامير المنذر بن محمد الذي يذكر الضبي انه كان من ممدوحيه[٨] . ويذكر ابن عبد ربه في عقده شيئاً من تاريخ هذا الامير وحربه مع عمر بن حفصون ، وينعت ابن حفصون بالمارق الفاسق[٩] . ويظهر من كلام ابن عبد ربه انه كان على صلة بالامير المنذر بن محمد ، فيذكر صفته دون ان يستند الى احد ، بينما تراه عند ذكره سيرة الامير محمد ، والد المنذر وسلفه ، يستند

---

١) الثعالبي ١ : ٤١٦
٢) الثعالبي ١ : ٤٣٤ ، العفر : بمعنى الخبيث المُنكر
٣) الضبي : ١٣٧
٤) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٠
٥) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٠
٦) راجع Dozy, p. 308, 336
٧) راجع Dozy, p. 308, 336
٨) الضبي : ١٣٧
٩) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦١

الى الفقيه بقي بن مخلد[1] ، احد اساتذته ، وينقل عنه روايةً وصف الامير وبعض اخباره . ويذكر ابن خلكان ان لابن عبد ربه في المنذر هذا قصيدةً مدحه فيها مطلعها :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الاندلس ،
فالطير فيها ساكنٌ ، والوحش فيها قد انس [2]

وعاصر ابن عبد ربه الامير عبدالله وقد رقي هذا عرش قرطبة سنة ٢٧٥هـ[3] ، وابن عبد ربه في التاسعة والعشرين من عمره . وقد لازمه لوقتٍ ما ومدحه[4] .

ونرى في العقد ارجوزة لابن عبد ربه في العروض يظهر انه قدّمها للامير عبد الله حيث انه يذكر مدحه للامير في آخرها فيقول :

فالحمد لله على نعمائه حمدًا كثيرًا ، وعلى آلائه .
يا ملكًا ذلت له الملوك ، ليس له في ملكه شريك ،
ثبّت لعبدالله حسن نيّته واعطفه بالفضل على رعيته . [5]

ويذكر دوزي (Dozy) في كتابه *Spanish Islam* ان قائدًا عربيًا باسم ابراهيم ابن الحجاج ظهر على مسرح النزاع في الاندلس واقام في اشبيلية امارةً يحكمها بحيث كان يعترف في بعض الاحيان بسلطان الامير عبد الله . وكان ابن الحجاج ، فيما يذكر دوزي ، اميرًا وتاجرًا وقائدًا محبًا للآداب والفنون ، وقد وفد اليه العلماء من الجزيرة العربية ، وكان بينهم ابو محمد العذري النحوي الحجازي . وغنّى في قصره المغنون والمغنيات من بغداد منهنَّ الشاعرة المغنية الجميلة قمر[6] .

وهنا يذكر دوزي — دون ان يعلمنا بالمصدر الذي يستند اليه — ان شعراء قرطبة ، الذين كادوا يموتون جوعاً لبخل الامير عبد الله ، وفدوا على ابن الحجاج وغادروا عبد الله يرأسهم « شاعر البلاط » ابن عبد ربه نفسه[7] .

وكان ذلك ، فيما يظهر من كلام دوزي ، بعد السنة ٩٠٢ مسيحية ، حول

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٠ ، وفيه محمد بدل مَخلَد ، ولعلها خطأ من النسّاخ .
٢) ابن خلكان ١ : ٤٦
٣) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦١
٤) الضبي : ١٢٧
٥) ابن عبد ربه ٣ : ١٩٨
٦) راجع Dozy, p. 378
٧) راجع Dozy, p. 379

السنة ٢٩٠ هـ[١]. اي عندما كان ابن عبد ربه في الرابعة والاربعين من عمره .
والغريب اننا لم نعثر على شيء من وصف حياة ابن عبد ربه عند هذا القائد .
فلا ابن عبد ربه يذكر هذا القائد في عقده، ولا هناك اشارة اليه في شعره او في
المصادر التي بين ايدينا، مما يدلّ على ان شعره فيه — اذا كان ما يذكره دوزي
صحيحاً — لم يصل الينا، ولا نرى الا اشارتين في العقد الى ممدوح كان قائداً[٢]
مكني في كلا الموضعين بابي العبأس، ونحن نعلم من دوزي ان الابن الاكبر
لابرهيم بن الحجاج كان اسمه عبد الرحمن[٣]، كما وانه يذكر اسماء ابناء
ابرهيم بن الحجاج وتوليهم القيادة بعد ابيهم، وليس بينهم من يحمل اسم ابي
العباس . وقد كان احدهم محمد، فيما يقول دوزي معبود الشعراء[٤] ومات
سنة ٩١٥ مسيحية، اي حينما كان عمر شاعرنا نحو خمس وخمسين سنة . ولا
يجوز ان يكون محمد هذا (ابن ابرهيم الحجاج) ممدوح ابن عبد ربه المكني
بابي العبأس حيث ان هناك اشارة في ارجوزة ابن عبد ربه التاريخية تذكر ابا
العباس القائد في غزوة سنة ٣٠٣ هـ .

فسار في جيشٍ شديد الباس، وقائد الجيش ابو العبأس[٥]

وتذكر الارجوزة سنة موته في خبر غزاة سنة ٣٠٥ هـ اي بعد سنة موت
محمد بن ابرهيم بن الحجاج .

وكان في آخر هذا العام نكب ابي العبأس بالاسلام .

ثم تصف الارجوزة موته في المعركة[٦]. ومن يدري لعلّ دوزي قد اخطأ في
تدوينه سنة موت محمد هذا .

ونرى في بعض اشعار ابن عبد ربه مسحة من التذمر والشكوى من زمانه
وممدوحيه، ليس فيها اشارة توضح الزمن الذي كان يتذمّر فيه بالضبط، ولا
فيها ذكر لاسماء الاشخاص الذين يشكوهم[٧]. ولعل هذه الاشعار تشير الى الوقت

---

١) راجع Dozy, p. 375
٢) ابن عبد ربه ١ : ٤١ و ١٠١
٣) Dozy, p. 373, 388
٤) Dozy, p. 388
٥) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٦
٦) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٧
٧) ابن عبد ربه ١ : ١٠٧ و ٢٤٠ و ٢٤٩ و ٣١٩

الذي ذكره دوزي من حياة ابن عبد ربه عند الامير عبد الله .

اما حياة ابن عبد ربه ، اول امارة عبد الله ، فقد كانت مما يظهر من كتاب Ribera ميسورة — رغم بخل هذا الامير — وقد كثر فيها انعام عبد الله عليه[1] . ومات الامير عبد الله سنة ٣٠٠ هـ ، وولي مكانه الملك القمر الازهر — كما ينعته ابن عبد ربه[2] — عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر ، وهو اول ملك بالاندلس دعي بأمير المؤمنين ، وهنا نرى شعرًا لابن عبد ربه فيه :

بـدا الهلال جديـدا ، والملـك غضٌ جـديدُ ،
يا نعمة الله زيـدي ما كان فيه مزيدُ .[3]

ويظهر انه لازمه طويلًا واكثر من مدحه ، وقال عنه في عقده : « وقد قلت وقيل في غزواته كلها اشعار قد جالت في الامصار وشرّدت في البلدان حتى أتهمت وانجدت واعرقت ولولا ان الناس مكتفون بما في ايديهم منها لاعدنا ذكرها او ذكر بعضها . »[4]

وتصدّى ابن عبد ربه الى ذكر مغازي النـاصر فنظمها ارجوزة ذكر فيها خبر كل سنة على حدة ، ولا نعلم بالضبط ما اذا كان ابن عبد ربه نظم هذه الارجوزة مرّة واحدة آخر حياته او انه كان ينظمها سنة بعد سنة ؛ ويلوح لنا انه نظمها مرة واحدة اذ جعلها ارجوزة واحدة وتكلم عنها كقصيدة واحدة[5] . والغريب ! — وربما تعليل ذلك يسير — ان ابن عبد ربه ينتهي في ارجوزته الى سنة ٣٢٢ هـ . ونحن نعلم انه عاش حتى سنة ٣٢٨ هـ . ونعلم ان الناصر ظلّ يحارب الى ما بعد هذا التاريخ . قلنا : وتعليل ذلك يسير . اذ ان الخليفة الناصر خذل في هذه السنوات الخمس الاخيرة من حياة ابن عبد ربه ، اي بين ٣٢٣ و ٣٢٨ هـ ، بعد انتصاراته المذكورة في الارجوزة[6] . فلعلّ ابن عبد ربه سكت عن تدوين ذلك الخذلان في ارجوزته ، او لعله ذكره ولكنّ من جمع عقده او كتبه بعده

---

١) Ribera, p 123 ، والغريب انه لا يذكر المصدر الذي استند اليه في هذا الامر .
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٢ .
٣) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٢ .
٤) « « ٢ : ٢٦٢ .
٥) « « ٢ : ٢٦٢ .
٦) المقري ١ : ١٦٦ و ١٧١

قد اهمله وحذفه ، لاسيما وقد كان الجامع لشعره وبعض اخباره الحكم بن عبد الرحمن الناصر نفسه[1] . وقد قام الخليفة عبد الرحمن الناصر بمشاريع عمرانية كثيرة لا نرى لابن عبد ربه شعرًا فيها، خصوصاً « الزهراء » التي باشر الخليفة بناءها قبل موت ابن عبد ربه باربعة اعوام . ويشير ابن عبد ربه الى مآتي الناصر العمرانية بقوله في العقد : « ومن مناقبه (الضمير يعود على الناصر) ان الملوك لم تزل تبني على اقدارها ويقضى عليها بآثارها وانه بنى في المدة القليلة ما لم تبنِ الخلفاء في المدة الطويلة ، نعم ! لم يبق في القصر الذي فيه مصانع اجداده ومعالم اوليته بنيةٌ الّا وله فيها اثر محدث اما تزييد او تجديد . »[2]

وليس في كل ما قرأنا اشارة صريحة الى اشتراك ابن عبد ربه بتلك الغزوات والحروب التي وقعت في عصره بين ملوكه واعدائهم . فلا هو ذكر عن نفسه خبر واقعة اشترك فيها ، ولا احد اشار الى مرافقة ابن عبد ربه اميرًا ما او ملكاً او قائدًا ما في غزوة او دفاع . وكل ما في الامر انه نظم اشعارًا نراها في عقده في وصف الجيوش والحرب وهولها قد يشتمّ منها انه اختبر بعض محنها[3] .

وقد كان ابن عبد ربه فقيهاً . ولعله طرق باب الفقه ايام الامير عبد الله حيث كان الاخير يحبّ الفقه وعلوم الدين حتى نعته ابن عبد ربه بالعابد الزاهد التقي النقي التالي لكتاب الله القائم بحدود الله[4] ، لاسيما وقد جاز ابن عبد ربه وقتذاك شبابه ، وبلغ آخر ايام عبد الله حدود الخمسين ، وبدأ اتجاهه نحو الزهد يظهر . وليس من شك في انه قد اخذ دروساً في الفقه والدين ، وهو في الثلاثين من عمره او قبل ذاك ، لان ابن الفرضي يذكر لنا ان ابن عبد ربه درس الفقه على شيوخ منهم الخشني وابن وضاح وبقي بن مَخلد[5] . ويذكر Brockelmann ان بقياً هذا قد مات سنة ٢٧٦ هـ.[6] اي حينما كان عمر ابن عبد ربه حول ٣٠ سنة .

---

١) الضبي : ١٢٧ .
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٣ .
٣) ابن عبد ربه ١ : ٤٢ و ٤٣ .
٤) 〃 〃 ٢ : ٢٦١ .
٥) ابن الفرضي ١ : ٢٧ ؛ وابن عبد ربه ٢ : ٢٦٠ .
٦) Brockelmann, I, 164

وكانت بعض مدن الاندلس في هذا العصر ، وبالاخص المدن الخاضعة لنفوذ عربي كقرطبة واشبيلية ، ملأى بالفقهاء وعلماء الدين . وكانت الطلبة فيما يقول Nicholson ، تعد بالالوف ، وكان اكثرهم طلاب فقه من ، شريعة ولاهوت لاسيما وقد كان درس الفقه ممهدًا لاستلام المراكز الرفيعة[١] .

ولعل درسه الفقه وسيرته كفقيه يفسّران لنا رواية المؤرخين في انه كانت له ديانة وصيانة[٢] .

ولقد درس ابن عبد ربه ، فيما يظهر من عقده ومن الاخبار عنه ، العلوم المعروفة في ذلك العصر من نحو وعروض وشريعة وتاريخ وادب . وقد نعته بعض هؤلاء المؤرخين القدماء بالعالم[٣] ، ووصفه بعضهم بانه من اهل العلم[٤] ، وقال البعض الآخر « وكانت لابي عمر بالعلم جلالة »[٥] . وترى اثر هذه النزعة العلميّة ظاهرًا في عقده من حيث مواضيعه وابحاثه وتصنيفه وتبويبه وعدم تطرّف صاحبه في كثير من المباحثات ذات الوجوه المتعدّدة التي اثيرت في العقد، واعتداله في الرأي وحججه عند ابداء وجهة نظره .

وربما من الخير ان نشير هنا الى شعر لابن عبد ربه ورد فيه ما يفيد عدم ايمانه بكرويّة الارض ، وردّه على عالم يدين بهذا الرأي اسمه مسلم ابو عبيدة البلنسي ويعرف بصاحب القبلة، قال عنه ابن صاعد الاندلسي في «طبقات الامم» انه كان عالمًا بحركات الكواكب . ثم قال : وفيه يقول احمد بن محمد بن عبد ربه :

« ابيت الا شذوذًا عن جماعتنا	ولم يصب رأي من أرجى ولا اعتزلا

الى ان يقول :

زعمت بهرام او بيدخت يرزقنا	لا بل عطارد او برجيس او زحلا
وقلت ان جميع الارض في فلك	جسم محيط وفيهم يقسم الاجلا
والارض كورية حفّ السماء بها	فوقًا وتحتًا وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها	قد صار بينهما هذا وذا اولا
فان كانون في صنعا وقرطبة	بردًا[٦] وايلول يذكي فيها الشملا

---

١) Nicholson, p. 420

٢) الضبي : ١٢٧

٣) السيوطي : ١٦١

٤) الضبي : ١٣٧

٥) ياقوت ٢ : ٦٨

٦) كذا في الاصل ، ولعلها بردٌ

هذا الدليل ولا قول غررت به   من القوانين يجلي القول والعملا»[1]

وليلاحظ رأي هذا العالم منذ اكثر من الف سنة في كروية الارض ، وانها نقطة في فلك تحفّ السماء بها من كل جهاتها . وليلاحظ ان علماء زمنه ، ومنهم صاحبنا ابن عبد ربه ، يخالفونه في رأيه هذا ويعدونه شاذًا عنهم خارجاً عن جماعتهم :

« ابيت الا شذوذًا عن جماعتنا » الخ .

وكان ابن عبد ربه قبل كل شيء اديباً وشاعراً ؛ وما كتبه في العقد يكفي لاظهار هذا الامر . وكانت ثقافته الادبيّة ثقافة شرقية ، فقد عُني كما عُني غيره من ادباء الاندلس في اول نهضتهم بدرس اخبار الشرقيين واشعارهم وادبهم حتى ان عقده — لولا فصل صغير عن ملوك الاندلس — اقتصر على اخبار المشرق . وقد احسّ المشارقة بهذه الروح الغالبة في ادب الاندلس . رووا ان الصاحب بن عبّاد لما وصل اليه العقد وقرأه قال : « هذه بضاعتنا ردّت الينا . ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من اخبار بلادهم، وانما هو يشتمل على اخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه »[2] .

وكان التماسّ الادبي على اشدّه بين الاندلسيين وبين اهل اقطار العالم العربي ، وكان كثير من علماء الشرق وادبائهم يرحلون الى الاندلس ، واخذ كثير من علماء الاندلس وادبائها يرحلون الى الشرق في طلب العلم والادب . ونظرة الى ما كتبه المقّري[3] عن هؤلاء جميعهم منذ اول القرن الثالث الى آخره تكفي لتبيان ما نذهب اليه من نهضة هؤلاء الاندلسيين الادبية والعلمية وسعيهم في تتبعهم طريق المشارقة فيها . ولم يكن ارسال المستنصر ، آخر هذا العصر الذي نصفه ، وراء كتاب الاغاني واستحضاره النسخة الاولى منه لقاء الف دينار ، وارساله الرسل يشترون له الكتب من مختلف الاقطار[4] ، ولم تكن عناية الصاحب بن عبّاد في الشرق بحرصه على ان يكون عنده العقد ومراجعته اياه وملاحظته عليه ، الّا مظهراً من مظاهر هذا التماسّ الذي كان فيه اهل الاندلس

---

١) ابن صاعد : ٦٤

٢) ياقوت ٢ : ٦٧

٣) المقّري ١ : ٢٢١ و٢٢٥

٤) Nicholson, p. 419

يقتفون آثار اهل المشرق ويتّبعون سبلهم .

ولم يقتصر تأثير هذه النهضة الادبية العربية على العرب ومواليهم فحسب ، بل تعداهم الى المسيحيين من اهل الاندلس ، فعكف هؤلاء بدورهم على درس اللغة العربية واشعارها وآدابها . حتى ان احد مواطنيهم دوّن اسفه وشكواه وتذمّره من حالتهم برسالة تحس فيها اعجاب هؤلاء المسيحيين الاندلسيين في قرطبة باللغة العربية واقبالهم على رشف مناهلها ودرس آدابها واكبابهم على تعلمها وجمع كتبها بحيث كادوا ينسون لغتهم العلمية اللاتينية[1] .

واذا راجعنا المصادر التي استند اليها ابن عبد ربه في عقده نرى انه استند بالاكثر الى علماء المشرق ، فهو ينقل عن المبرّد ، والاصمعي ، والشيباني ، والمدائني ، والعتبي ، وابي عبيدة ، وابن المقفع ، وابن سلام الجمحي ، وابن الكلبي ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، وكم كان عشق الاندلسيين لهذا الاديب الاخير حتى روي في تاريخ ابن كثير[2] ان اهل المغرب كانوا يتهمون من لم يكن في بيته من تأليف ابن قتيبة شيء . ويظهر ان روايات هؤلاء الرواة واخبارهم وكتب علوم العرب وآدابها كانت متداولة بين ايدي علماء الاندلس وادبائها ؛ ويقول Nicholson ان قرطبة كانت في هذا العصر من اهم الاوساط العلمية والادبية في العالم ؛ وكان في جامعها ، او ان شئت فقل في جامعتها ، العالم ابو بكر القرشي يحاضر في الحديث ، والاديب الكبير ابو علي القالي يبحث مع الطلاب في آداب العرب ، وابن قوطيّة يدرّس النحو[3] . ويذكر المقّري عظمة قرطبة من هذه الناحية في هذا العصر فيقول باسنادٍ عن بعضهم : « ان قرطبة كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء وان اليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء ومن افقها طلعت نجوم الارض واعلام العصر وفرسان النظم والنثر وبها نشأت التأليفات الراقية والسبب في تبريز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم ان افقهم القرطبي لم يشتمل قط الّا على البحث والطلب لانواع العلم والادب»[4] . وروى ايضاً ان قرطبة كانت في ذلك العصر اكثر بلاد الله

---

١) Dozy, p. 268. ٢) الجزء ٣ القسم ٣ من النسخة الفوتغرافية بدار الكتب المصرية ، راجع ابن قتيبة ٤: ١٨ ٣) Nicholson, p. 420 ٤) المقّري ١: ٢١٧

كتباً ، وانه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها[١] . ولعلّ من الجميل ايضاً ان نورد هنـا هذه القصة التي ذكرها المقّري ايضاً ، وهي تظهر اعتناء اهل قرطبة بجمع الكتب حتى صـار امر اقتنائها « موضةً » [٢] يشتهرون بها قال :

« قال الحضرمي اقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها اترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع وهو بخـطّ فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به اشدّ الفرح . فجعلت ازيد في ثمنه فيرجع اليَّ المنـادي بالزيادة عليَّ الى ان بلغ فوق حدّه فقلت له : « يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه الى ما لا يساوي » (قال) فاراني شخصاً عليه لبـاس رياسة فدنوت منه وقلت له : « اعزّ الله سيّدنا الفقيه ، ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه » (قال) ، فقال لي : « لست بفقيه ولا ادري ما فيه ، ولكني اقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمل بها بين اعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخطّ جيّد التجليد استحسنته ولم ابالِ بما ازيد فيه » [٣] .

ويقول Lane Poole عن قرطبة في هـذا العصر في كتابه *The Moors in Spain* : « لم يكن هناك مدينة في اوربة ــ اذا استثنينا بيزنطة ــ تقـابل بقرطبة من حيث جمال دورها وقصورها واناقة الحيـاة فيها والبذخ وثقافة اهاليها وعلمهم » [٤] .

فلا عجب بعد كل هذا ان ينشأ ابن عبد ربه النشأة التي وصفنا . وسنرى اثر هذه النشأة في شعره وعقده اللذين سنتصدّى لدرسها ؛ وهناك نواحٍ أخرى من حياة ابن عبد ربه سنعرض لها عند البحث في عقده وشعره ، فنتكلم اذ

١) المقري ١ : ٧٦ و٧٧ و٢١٨ .

٢) من الخير ان نذكر هنـا ان ابن عبد ربه يستعمل في العقد كلمة « شهرة » بمعنى « موضة » كأن يقول مثلاً : وكانت الشهرة في تطويل الاكمام ، ثم صارت في تقصيرها .

٣) المقّري ١ : ٢١٨ .

٤) Lane Poole, p. 129,139 راجع ذلك في كتاب Farmer, *History of Arabian Music*, Luzac and Co. Lond 1929, p. 145.

ذاك عن ميوله ونزعاته وعسى ان لا يفوتنا عندئذٍ وصف بعض نواحي خلقه .

وروى الرواة ان ابن عبد ربه تاب آخر حياته عن امور ارتكبها في شبابه واعترف بذلك اعتراف متألم[1]، كما قدمنا ، واقلع عن صبوته وعمد الى اشعاره في الغزل ، فمحّصها ونقضها بمثيلها في الزهد والمواعظ وسمّاها «الممحّصات» وجعلها على اعاريض تلك وقوافيها ، منها القطعة الغزلية التي اولها :

« هلّا ابتكرت لبين انت مبتكرُ »

فانه قد محّصها ونقضها بقوله :

يا قادرًا ليس يعفو حين يقتدر	ماذا الذي بعد شيب الراس تنتظرُ ؟
عاين بقلبك ، ان العين غافلة	عن الحقيقة ، واعلم انها سقرُ
سوداء تزفر من غيظٍ اذا سعرت	للظالمين فلا تبقي ولا تذرُ
لو لم يكن لك غير الموت موعظة	لكان فيه عن اللذات مزدجرُ
انت المقول له ما قلت مبتدئًا :	«هلّا ابتكرت لبين انت مبتكرُ» [2]

واصيب ابن عبد ربه بالفالج آخر اعوامه[3] ، كما اصيب الجاحظ من قبله ، وابو الفرج الاصبهاني من بعده . وتوفي يوم الاحد لثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الاولى سنة ٣٢٧ هـ. ، وهو ابن احدى وثمانين سنة وثمانية اشهر وثمانية ايام ، ودفن يوم الاثنين في مقبرة بني العباس[4] .

---

١) ابن خاقان : ٥٢ ؛ وياقوت ٢ : ٧١.

٢) ابن خاقان : ٥٢ والضبي : ١٢٩ ؛ يذكر الايات مع بعض اختلاف في رواية البيت الاول

٣) ابن الفرضي ١ : ٣٧ ؛ وابن خلكان ١ : ٤٦

٤) « « « ١ : ٣٧ « « ١ : ٤٦ ؛ وحاجي خليفة ٢ : ١٢٤

ويذكر Wüstenfeld في p. 35, No. 107 ان كلمة العباس في عبارة مقبرة بني العباس خطأ من ابن خلكان ، ولذلك فقد وضع موضعها كلمة « الامويين » . ولا نرى موجبًا لذلك ، لاسيا وليس لدى Wüstenfeld مصدر يستند اليه في هذا الامر . ولم يتفرد ابن خلكان بذكر ان المقبرة لبني العباس فقد سبقه ابن الفرضي كما رأينا وتابعها على ذاك حاجي خليفة ، كما وان اسم العباس لم يكن غير معروف بالاندلس ، وقد كان من ممدوحي ابن عبد ربه قائد يكنى بابي العباس ، ويترجم ياقوت في معجمه للادباء حياة بقي بن مخلد استاذ ابن عبد ربه ويذكر ان بقيًا هذا قُبر بمقبرةٍ منسوبة لبني العباس ، ياقوت ٢ : ٣٦٩ ، فليتنبه الى هذا !

٣

كتاب «العقد»

اسمه

نسمّيه بالعقد ، خلافاً لما هو معروفٌ عند اكثر ادبائنا في هـذا العصر ، وخلافاً لما ورد في مقدّمة الكتاب نفسه — في الطبعات التي بين ايدينا — حيث نرى « فجعلت (الضمير يعود الى صاحب العقد) هذا الكتاب كافياً جامعاً . . . وسميته كتاب العقد الفريد لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقة المسلك وحسن النظام »[1] . نسمّيه بالعقد لاننا نظن ان نعته بالفريد هو امر متأخر[2] ، ليس من التسمية الاصلية التي وضعها ابن عبد ربه في شيء . ولعلنا ننصف ابن عبد ربه اذا اظهرنا خلوّ التسمية الاصلية من هذا النعت . ودليلنا في هذا الامر هو ان جميع المصادر الاولية التي بين ايدينا ممّا يذكره لا نرى العقد فيها منعوتاً بالفريد : فالضبي يذكر ابن عبد ربـه ويقول : « وله الكتاب الكبير المسمى كتاب العقد في الاخبار »[3] . ويذكره القيرواني في رسالته اعلام الكلام فيقول : « ومن تلك الجواهر نظم عقده وتركه لمن يتجمل به بعده »[4] . ويذكره الفتح فيقول : « وله التأليف المشهور الذي سمّاه بالعقد ، وحماه عن عثرات النقد . »[5] ويذكره ياقوت الرومي فيقول : « وهو صاحب كتاب العقد في الاخبار . »[6] ويذكره في موضع آخر فيقول : « وبلغني ان الصاحب بن عبّاد سمع بكتاب العقـد »[7] ويذكره ابن صاعد الاندلسي في كتابه طبقات الامم عند ذكر ابن اخيه الطبيب سعيد فيقول : « وهو ابن اخي احمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر صاحب العقد »[8] .

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٤

٢) لا بد لنا من ذكر ان اول من اشار الى ذلك هو بروكلمن . راجع مقاله المختصر عن ابن عبد ربه في [The Encyc. of Islâm, vol. II, p. 353]

٣) الضبي ١٢٧

٤) القيرواني ٢٦

٥) ابن خاقان ٥١

٦) ياقوت ٢ : ٦٧

٧) ياقوت ٢ : ٦٧

٨) ابن صاعد ٧٩

ويذكره ابن خلكان فيقول: «وصنف كتابه العقد وهو من الكتب الممتعة».[1] ويذكره الشيخ ابو العباس القلقشندي في كتابه صبح الاعشى ويقول عنه «صاحب العقد»[2] وفي موضع آخر: «هـذا ما ذكره ابن عبد ربه في العقد»[3] ويذكره المقري كثيرًا ويقول عنه «صاحب العقد».[4] وفي رسالة القيرواني التميمي ابي علي الحسن بن محمد الى عبد الوهاب بن حزم عبارة: «كما تلقوا ديوان احمد بن عبد ربه الذي سمّاه بالعقد»[5]. ويذكره ابن ابي اصيبعة في كتابه عيون الانباء في طبقات الاطباء. وينعته بالشاعر ثم يقول عنه «صاحب كتاب العقد»[6]. ويتصدّى لذكره ابن خلدون في مقدمة تاريخه بمناسبة بحثه عن موشحات الاندلس فيقول: «ابو عبد الله احمد بن محمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد.»[7] ولم يفت حاجي خليفة ان يذكر العقد في كتابه كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون ولقد دوّن اسم الكتاب هكذا «عقد" لابي عمر»[8]، ونقل شيئاً من مقدمة الكتاب فيه الاسم خالياً من النعت «الفَريد» كما سنرى. بقي مصدر واحد هو المستطرف في كل فنّ مستظرف ذكر فيه الابشيهي انه نقل عن كتاب ابن عبد ربّه «العقد الفريد» واورد العبارة بحيث لا نرى داعياً لان نظن ان كلمة الفريد زيادة من الناشرين قال: «ونقلت كثيرًا ممّا نقله ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد ورجوت ان يجد مطالعُه فيه كل ما يقصد ويريد»[9].

ولا نستطيع الآن ان نعيّن بالضبط الوقت الذي اضيفت فيه كلمة «الفريد» لنعت «العقد» كما واننا لا نكتم دهشتنا لظهورها بكل الطبعات التي بين

---

١) ابن خلكان ١: ٤٥

٢) طبعة المطبعة الاميرية بالقاهرة، ١٩١٦، ٩: ٣٦٣، وفي ١: ٣٩٢ «في كتاب العقد»

٣) طبعة المطبعة الاميرية بالقاهرة، ١٩١٦، ١٠: ١٩٤

٤) المقري ٢: ٧٨١ و٨٢٣ و٤: ٦٠٧، وطبعة اوربة ٢: ٩٠

٥) المقري ٢: ٧٦٧، وطبعة اوربة ٢: ١٠٩

٦) ابن ابي اصيبعة ٢: ٤٤

٧) ابن خلدون ٥٤٠ — وسنعرض لكلام ابن خلدون والكنية التي ذكرها لابن عبد ربه عند بحثنا عما اذا كان ابن عبد ربه نظم الشعر الموشّح ام لا.

٨) حاجي خليفة ٢: ١٢٤   ٩) الابشيهي ١: ٢

ايدينا وعدم إشارة ناشري هذه الطبعات الى هذا الامر[1]. ولم تشر لجنة فهارس دار الكتب المصرية بشيء الى امر التسمية عند ذكرها وصف قطع النسخ الخطية من الكتاب المذكور[2]، لاسيما واننا نرى ان حاجي خليفة ينقل قول ابن عبد ربه من نسخة خطية للعقد يظهر انه لم يكن فيها العقد منعوتاً «بالفريد»: «الفت هذ الكتاب وتخيرت نوادره من متخيّر جواهر الادب ومحصول جوامع البيان وسميته «بالعقد» لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقة المسلك وحسن النظام»[3].

وكنا نوَدّ لو اتيح لنا الاطلاع على النسخ الخطية في مختلف المكاتب علّنا نستطيع ان نكشف منها وقت زيادة «الفريد». ومهما يكن من امرها فانّا نظنّ ان التسمية «العقد الفريد» لم تعرف قبل تأليف الوزير الشافعي المتوفى سنة ٦٥٢ ﻫ[4] للكتاب المعروف «بالعقد الفريد للملك السعيد» وربما اخذت تعرف زمن الابشيهي المتوفى بعد ٨٥٠ ﻫ[5] وان لم يكن الابشيهي اول من نعت عقد ابن عبد ربه بهذا النعت فهو على الاقل اقدم رجل، فيما نعلم، ذكر هذا النعت للعقد. ومن الخير ان نلاحظ ان حاجي خليفة قد تأخر عن الابشيهي بنحو مئتي سنة وقد اورد اسم الكتاب دون هذا النعت[6]. اما البغدادي، صاحب خزانة الادب، المتوفى آخر القرن الحادي عشر فقد جارى الابشيهي بنعت الكتاب بالفريد.[7]

وصفه

تأليف مقسّم على عدة فنون في خمسة وعشرين كتاباً انفرد كل كتاب باسم

---

١) ابن عبد ربه ١: ٤ وراجع طبعة المطبعة الجمالية بمصر، ١٩١٣، ١: ٤، وطبعة المطبعة الشرفية بمصر ١٣٠٥ ﻫ ١: ٣

٢) فهرس الكتب العربية الموجودة في دار الكتب المصرية ٣: ٢٥٢ و ٢٥٣

٣) حاجي خليفة ٢: ١٢٤

٤) راجع بشأن وفاته حاجي خليفة ٢: ١٢٤

٥) راجع Brockelmann [The Encyc. of Islâm, vol. II, p. 443]

٦) حاجي خليفة ٢: ١٢٤

٧) خزانة الادب ولب لباب لسان العرب، الطبعة الميرية بمصر ١٢٩٩ ﻫ. وراجع بشأن سنة وفاته Mordtmann [The Encycl. of Islâm, II, 205]

جوهرة من جواهر العقد ، بحيث يقع على كلٍّ من جانبي واسطة العقد اثنتا عشرة جوهرة كل منها سمّيت باسم التي تقابلها من الجانب الآخر . وبذلك تكون اولى جواهر العقد واخراه على اسم واحد: ففي العقد لؤلؤتان وزبرجدتان وياقوتتان وجمانتان وهلم جرًّا. ولعل من الخير ان نذكر جدولاً كاملاً بها.

١	اللؤلؤة في السلطان	٢٥	اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح
٢	الفريدة في الحروب	٢٤	الفريدة 〃 في الطعام والشراب
٣	الزبرجدة في الاجواد	٢٣	الزبرجدة 〃 في طبائع الانسان . . .
٤	الجمانة في الوفود	٢٢	الجمانة 〃 في المتنبئين والموسومين . :
٥	المرجانة في مخاطبة الملوك	٢١	المرجانة 〃 في النساء وصفاتهن
٦	الياقوتة في العلم والادب	٢٠	الياقوتة 〃 في الالحان . . .
٧	الجوهرة في الامثال	١٩	الجوهرة 〃 في اعاريض الشعر . . .
٨	الزمردة في المواعظ والزهد	١٨	الزمردة 〃 فى فضائل الشعر . . .
٩	الدرّة في التعازي والمراثي	١٧	الدرّة 〃 في ايام العرب
١٠	اليتيمة في النسب وفضائل العرب	١٦	اليتيمة 〃 في اخبار زياد والحجاج .
١١	العسجدة في كلام الاعراب	١٥	العسجدة 〃 في الخلفاء وتواريخهم
١٢	المجنبة في الاجوبة	١٤	المجنبة 〃 في التوقيعات والفصول . .

١٣ الواسطة في الخطب

تجزئه

قال ابن عبد ربه في مقدمة عقده «وجزأته على خمسة وعشرين كتاباً كل كتاب منها جزآن فتلك خمسون جزءا في خمسة وعشرين كتاباً».[1] غير اننا اذا رجعنا الى النسخ المطبوعة نرى انه قد اهمل فيها ذكر الاجزاء في مواضعها ، او الاشارة الى اوائلها او اواخرها في كل كتب العقد ، لا نستثني الا كتاب الياقوتة في العلم والادب . فانّا نرى فيه ، في آخر باب ردّ المأمون على الملحدين واهل الاهواء ، عبارةً هي: «انتهى النصف من كتاب الياقوتة في العلم والادب ويتلوه باب من اخبار الخوارج».[2] وهناك زيادة الحقت بآخر هذا النصف الاول وجدت في بعض النسخ ونرى في آخر هذه الزيادة عبارة هي: «بقية الياقوتة في العلم والادب»[3] .

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٤

٢) ابن عبد ربه ١ : ٢٥٦

٣) ابن عبد ربه ١ : ٢٦٠

كذلك نستثني ايضاً كتاب الجوهرة الثانية في اعــاريض الشعر حيث نرى : « فا كملت جميع هذه العروض في هذا الكتاب الذي هو جزآن فجزء للفرش وجزء للمثال . . . فاختصرت للفرش ارجوزة . . . واختصرت المثال في الجزء الثاني . . . » (ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨) وكتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب حيث نرى : « وهذا الكتاب جزآن جزء في الطعام وجزء في الشراب فالذي في الطعام منها متقص جميع . . . والذي في الشراب منها مشتمل على صنوف . . . (ابن عبد ربه ٣ : ٣٨٠)

ولقد استغربنا وقوع هذا الاختلاف بين ما دوّن في المقدمة من امر تجزئة كل كتاب الى جزئين وبين خلو اكثر الكتب من هذه التجزئة ، فعدنا الى وصف قطع النسخ الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية فظهر منه ان ترتيب الاجزاء في النسخ الخطية لا يوافق القول المدوّن في مقدمة العقد ، ذلك اننا رأينا في وصف قطعة انها تشتمل على الجزء الخامس عشر والسادس عشر واول ما فيها من اثناء تبرئ علي بن ابي طالب من دم عثمان من فنّ كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم ، وتنتهي الى اثناء اخبار الطالبيين من كتاب اليتيمة الثانية في اخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة[1] . والجوهرتان هاتان العسجدة الثانية واليتيمة الثانية انما هما الكتاب الخامس عشر والكتاب السادس عشر من كتب العقد واذن فاجزاء هذه المخطوطة انما هي فيما يظهر بعدد كتب العقد .

وهناك قطعة خطية اخرى من العقــد تبدأ من فن العسجدة الثانية وقد اشارت لجنة نشر فهارس الكتب العربية الى انها الجزء الثاني من نسخة اخرى من العقد[2] مما يدل ان العقد في هذه النسخة قــد قسم الى اجزاء قليلة بحيث وقعت هذه الاخبار في الكتاب الخامس عشر في الجزء الثاني من هذه النسخة .

وهنــاك اشارة عن قطعة خطيّة اخرى الى انها الجزء السابع من العقد وتبتدئ من فرش كتاب العلم والادب[3] . ونحن نعلم من مقدمة العقد وترتيب كتبه ان كتاب العلم والادب هو الكتاب السادس . وسمّيت قطعــة اخرى بالجزء السابع وذكر انها آخر اجزاء الكتاب وفي اولها باب الطلاق من كتاب المرجانة الثــانية في النساء وصفاتهم[4] (كذا) وهو الكتاب الواحد والعشرون

١) فهرس الكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية ٣ : ٢٥٢ ٢) الفهرس المذكور ٣ : ٢٥٢ ٣) الفهرس المذكور ٣ : ٢٥٢ ٤) الفهرس المذكور ٣ : ٢٥٢

بحسب الترتيب المذكور في العقد. وكم كنا نود لو كانت هذه القطع الخطية، او غيرها من نسخ العقد الخطيّة الموجودة في المكاتب المختلفة، بين ايدينا او في متناولنا علّنا نستطيع منها ان نزيل شيئاً من هذا الاضطراب او نظهر بعض الاسباب التي دعت الى هذا الاختلاف الذي ذكرناه .

واذا عرضنا لحجم كتب العقد الخمسة والعشرين من حيث عدد الصفحات نرى ان كل كتاب منها يقع في ما بين الثلاثين والخمسين صفحة الّا كتابين هما كتاب الياقوتة في العلم والادب وهو يقع في نحو ١٣٠ صفحة، وكتاب الخلفاء وتواريخهم وايامهم ويقع في نحو ١٣٠ صفحة ايضاً .

ولنذكر هنا ان ناشري الطبعات التي بين ايدينا قد جزّأوا العقد الى ٣ اجزاء فقط، الّا الطبعة الازهرية فان العقد فيها قد جزّئ الى ٤ اجزاء.

كل هذا يظهر ان ما بين ايدينا من العقد لم يجزأ على الطريقة التي وصفت في مقدمة العقد. فلنحفظ هذا الى حينه اذ سنعرض للامر نفسه بمناسبة أخرى[1]

ابحاثه

يتبين من عناوين الكتب التي يضمّها العقد شيء من الابحاث التي يدور عليها، فهو يبحث في السلطان وسياسته، والحروب ومدار امرها، والامثال والمواعظ، والتعازي والمراثي، وكلام الاعراب وخطبهم وانسابهم وعلمهم وادبهم، ومخاطبة الملوك واخبار الوفود، وايام العرب، واخبار الخلفاء وتاريخهم، والنساء وصفاتهن، وطبائع الانسان، والطعام والشراب، واعاريض الشعر وعلل القوافي وغير ذلك؛ وفي كتاب السلطان مثلًا يذكر ابن عبد ربه اخباراً عن اختيار السلطان لاهل عمله وحسن السياسة واقامة المملكة وبسط العدالة وردّ المظالم وصلاح الرعية وحزم السلطان وعزمه والتعرض له والردّ عليه وحلمه وغضبه وحجّابه وقضاته الخ . ويذكر مع هذه الامور اخباراً تاريخية فيستشهد مثلًا بقصص عن عمر بن الخطاب ومعاوية ومروان وعمر بن عبد العزيز وابي جعفر المنصور من الخلفاء، وزياد والحجاج وغيرهما من القوّاد والامراء . وكذلك

---

١) عند تصدينا لدرس ما دُسَّ على ابن عبد ربه في العقد .

شأنه في كل الكتب التي يضمها العقد ، فهو ينثر فيها فوائد تاريخية ثمينة نقلها عن المتقدمين . كما وان العقد مجموعة ادبية قيّمة ففيه منتخبات من الخطب والرسائل والامثال ، وفيه اشعار لعدد كبير من الشعراء ، وفيه اخبار عن بعضهم قد لا نجدها في غيره من المصادر .

غاية المؤلف من تأليفه والطريق التي سلكها في جمعه

ولعلنا ننصف ابن عبد ربه اذا دوّنّا هنا الجزء الاكبر من مقدمة عقده ، فهي تظهر غايته من تأليف كتابه وطريقه التي سلك في جمعه هذه الجواهر بسلك عقده . كما واننا سنرجع الى هذه المقدمة اكثر من مرة . قال :

« وبعد فان اهل كل طبقة ، وجهابذة كل امة ، قد تكلموا في الادب ، وتفلسفوا في العلوم على كل لسان ، ومع كل زمان . وان كل متكلم منهم قد استفرغ غايته ، وبذل مجهوده في اختصار بديع معاني المتقدمين ، واختيار جواهر الفاظ السالفين ؛ واكثروا في ذلك ، حتى احتاج المختصر منها الى اختصار ، والمتخيَّر الى اختيار . ثم اني رأيت آخر كل طبقة ، وواضعي كل حكمة ، ومؤلفي كل ادب ، اعذب الفاظاً واسهل بنية ، واحكم مذهباً ، واوضح طريقة من الاول ؛ لانه ناقض متعقب ، والاول بادٍ متقدم . فلينظر الناظر الى الاوضاع المحكمة ، والكتب المترجمة بعين انصاف ، ثم يجعل عقله حكماً عادلاً قاطعاً فعند ذلك يعلم انها شجرة باسقة الفرع ، طيّبة المنبت ، زكية التربة ، يانعة الثمرة ، فمن اخذ بنصيبه منها كان على ارثٍ من النبوة ومنهاج من الحكمة لا يستوحش صاحبه ولا يضلّ من تمسك به . وقد ألفت هذا الكتاب وتخيّرت جواهره من متخيّر جواهر الادب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب وانما لي فيه تاليف الاختيار وحسن الاختصار وفرش لدور كل كتاب . وما سواه فمأخوذ من افواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والادباء . واختيار الكلام اصعب من تأليفه ، وقد قالوا اختيار الرجل وافد عقله ، وقال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك اذ كا   ن دليلاً على اللبيب اختياره

وقال افلاطون : عقول الناس مدوّنة في اطراف اقلامهم وظاهرة في حسن

اختيارهم . فتطلبت نظائر الكلام ، واشكال المعاني ، وجواهر الحكم ، وضروب الادب ، ونوادر الامثال . ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه فجعلته باباً على حدته ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره من كل باب . وقصدت من جملة الاخبار ، وفنون الآثار ، الى اشرفها جوهراً واظهرها رونقاً والطفها معنى واجزلها لفظاً واحسنها ديباجة واكثرها طلاوةً وحلاوةً ، اخذاً بقول الله تبارك وتعالى: « الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه[1] ». وقال يحيي بن خالد : الناس يكتبون احسن ما يسمعون ، ويحفظون احسن ما يكتبون ، ويتحدثون باحسن ما يحفظون . . . . . . وحذفت الاسانيد من اكثر الاخبار طلباً للاستخفاف والايجاز وهرباً من التثقيل والتطويل ، لانها اخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها . . . وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرّقة في فنون الاخبار ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لاكثر المعاني التي تجري على افواه العامة والخاصّة وتدور على السنة الملوك والسوقة . وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الاخبار في معانيها وتوافقه في مذاهبها . وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا انّ لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور . »

المصادر التي استند اليها ابن عبد ربه

ظاهر من هذه المقدمة التي نقلنا ان ابن عبد ربه يعترف بنقله اكثر اخبار العقد من افواه العلماء وكتبهم ، وان ما له فيه قليل لا يتعدّى فرش دور الكتب وبعض النتف والاشعار . وظاهر ايضاً ان ابن عبد ربه يرى ان يهمل ذكر الاشخاص الذين اخذ عنهم ، او الكتب التي نقل عنها ، ويحذف الاسانيد من اكثر الاخبار التي ينقلها ، غير انه كان في بعض الاحيان يذكر اسماء بعض

---

١) القرآن : السورة ٣٩ (الزمر) الاية ١٩ : « والَّذين اجْتَنَبُوا الطَّاغوتَ أن يَعْبُدُوها وأنابُوا إلى اللهِ لَهُمُ البُشْرَى فبَشِّر عبادِ الَّذين يَسْتَمِعُونَ القول فيَتَّبِعون أحْسَنَهُ أُولَئكَ الَّذين هَداهُمُ اللهُ وأُولَئكَ هُمْ أُولُوا الألبابِ . »

الكتب التي نقل عنها . فلنسعَ في ان نبحث عن المصادر التي استند اليها او الاشخاص الذين اخذ عنهم ، ولنبدأ بذكر ابن قتيبة :

ابن قتيبة

هو ابو عبد الله محمد بن مسلم الكوفي المروزي الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ[١] صاحب المؤلفات الكثيرة . وقد اخذ ابن عبد ربّه من مؤلفات ابن قتيبة اكثر مما اخذ من ايّ مصدر آخر . ولعل القارئ يذكر ما نقلناه عن تعظيم اهل المغرب له حتى انهم كانوا يتهمون من لم يكن في بيته من تأليفه شيء . ونخصّ بالذكر من مؤلفاته « كتاب عيون الاخبار » و« كتاب الاشربة » و« كتاب فضل العرب على العجم » . وقد ذكر ابن عبد ربه في بعض المواضع انه استند الى هذه الكتب واخذ عنها ففي الجزء الثاني الصفحة ٨٨ قال: « قال ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب واما اهل التسوية فانّ منهم قوماً» الخ . وبعد ان اورد خلاصة لردّ ابن قتيبة على الشعوبية وردهم عليه تعرض لنقده وقال : «ما رأيت اعجب من ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب انه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية فنقض في آخره كل ما بنى في اوله ، فقال في آخر كلامه: واعدل القول عندي ان الناس كلهم لاب وام خلقوا من تراب واعيدوا الى التراب » الخ .[٢] ورجع الى كتاب الاشربة فنقل عنه بعض أمور ذكرها في كتابه عن الطعام والشراب .[٣]

ورجع الى عيون الاخبار فسطا عليه وسلخ منه قطعاً كثيرة دون ان يشير الى مصدرها ، ونقل عنه ، فيما نرى التبويب والترتيب والتسمية (وقد امتاز ابن قتيبة عن الكثيرين من المؤلفين في زمنه بحسن تبويبه كتبه) . ونظرة الى عيون الاخبار والكتب التي ضمها ثم مقابلتها بالكتب التي ضمّها العقد تكفي لاظهار النقل . ومن الجميل ان نرى بعض هذه الآثار ؛ فقد استهل ابن عبد ربه عقده بكتاب السلطان وجعله اللؤلؤة الاولى ، كما استهلّ ابن قتيبة عيون الاخبار

---

١) Brockelmann, *Ibn Kutaiba* [Encyclop. of Islâm, vol. II, p. 399]

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٨٩   ٣) ابن عبد ربه ٣ : ٢٨٠ و٩٩ ٤ — ٤١١

بكتاب السلطان . ولم يقتصر الامر على هذا فان الكتاب الثاني عند ابن عبد ربه هو كتاب الفريدة في الحروب والكتاب الثاني بعيون الاخبار هو الحرب . وتستطيع ان تنقل اية قطعة من كتاب السلطان في عيون الاخبار وتدسّها في كتاب اللؤلؤة في السلطان من العقد دون ان يحدث تغيير في اسلوب الكتاب يستطيع القارئ ان يتبيّنه ؛ فالاسلوب واحد ، والنمط واحد ، والاخبار ، لولا قليل ، واحدة . ويكفي بهذه المناسبة ان تراجع الجدول الآتي ففيه ذكر لبعض المواضع التي نقل فيها الكلام ابن عبد ربه عن عيون الاخبار :

العقد			عيون الاخبار	
الجزء ١	٥	عن	الجزء ١	١٩
١	٥	«	١	١٩
١	٦	«	١	٢٠
١	٥	«	١	٩٢
١	٩	«	١	١٨
١	١٠	«	١	٩
١	١١	«	١	١١
١	٢٦	«	١	٢٧
١	٢٦	«	١	٣٨
١	٢٦	«	١	٤٠
١	٢٦	«	١	٤٠
١	٢٦	«	١	٤١
١	٣١	«	١	٥٦
١	٣١	«	١	٢٦

وهذا قليل من كثير مما نرى انه نُقل عن عيون الاخبار في كتاب السلطان فقط . فاذا تعدّيت هذا الكتاب الى غيره من الكتب التي ضمها كل من العقد وعيون الاخبار ككتب الحرب والاطعمة والعلم والادب وغيرها ترى نقلاً كثيراً ربما يصعب حصره وذكره في رسالة مثل هذه . ولنذكر لك جدولاً

صغيرا آخر :

العقد		عن	عيون الاخبار	
الجزء ٣	٣٠٣	〃	الجزء ٤	٩٦
٣	٣٠٣	〃	٤	٩٦
٣	٢٣٢	〃	٤	٩٢
٣	٢٤٣	〃	٤	٩
٣	٣٠٤	〃	٤	٩٢
٣	٢٨٥	〃	٤	٥
٣	٢٨٣	〃	٤	٦
٣	٢٨٢	〃	٤	٧
٣	٢٨٤	〃	٤	١٠
٣	٢٨٩	〃	٤	١٣

ونزيدك ان تلاحظ ان هذا الجدول مأخوذ ايضاً عن كتاب واحد في العقد هو كتاب المرجانة في النساء وصفاتهن . وهو ايضاً قليل من كثير في الكتاب نفسه . واذكر ان في العقد ٢٥ كتاباً لم نشر الى النقل الّا في اثنين منهـا . وغريب ان اكثر الابواب التي طرقها ابن قتيبة في عيون اخباره قد طرقها ابن عبد ربه في عقده . فكلاهما قد بحث في السلطـان ، والحروب ،والتاريخ ، والعلم بما يتبعه من الحفظ والقرآن والاثر والكلام والخطب ، والنساء وصفاتهن ، والطبائع والاخلاق ، ووصايا المؤدبين ، والبيان والبلاغة والتلطيف في الجواب الخ . ومن يقرأ عيون الاخبار يرَ ان اكثر الخطب الواردة في كتاب العلم قد اوردها ابن عبد ربه في كتاب الواسطة .

وقد اقتصر ابن عبد ربه في اكثر الاحيان على نقل الخبر دون ذكر مصدره غير انه في بعض الاحيان يقول : وحدّث ابن قتيبة دون ذكر الكتاب [1] . وربما بلغ بابن عبد ربه ان ينقل عن ابن قتيبة ما نقله ابن قتيبـة عن كتب أخرى

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٣٥ ، و٢ : ١٠

كأن يقول مثلاً: «وفي كتاب التاج» وينقل قطعة بكاملها[1] ذكرها ابن قتيبة في عيون اخباره قال: «وقرأت في كتاب التاج» الخ[2]. كذلك ترى عند ابن عبد ربه في العقد: «وفي كتاب للهند: الحازم يحذر عدوه» الخ[3]. وتراها في عيون الاخبار: «وقرأت في كتاب للهند: الحازم يحذر عدوه» الخ[4].

واقرأ العقد وادرسه جيداً ثم اقرأ عيون الاخبار لاول مرة تشعر كأنك تعرف هذا الكتاب وكأنك قد قرأته سابقاً.

الجاحظ

وينقل ابن عبد ربه عن الجاحظ ابي عثمان عمرو بن بحر الكناني المتوفى سنة ٢٥٥ هـ[5] والجاحظ كابن قتيبة له شهرة ادبية وقد سطا كثير من الادباء الذين تأخروا عنه على كتبه فنقلوا منها قال القاضي الملقب بالفاضل: «واما الجاحظ فما منا معاشر الكتاب الا من دخل داره او شن على كلامه الغارة وخرج وعلى كتفه منه الكارة.»[6] ومع ان ابن قتيبة قد استند الى الجاحظ واخذ عنه اموراً نقلها الى عيون اخباره، فانا نرى ان ابن عبد ربه قد رجع الى بعض كتب الجاحظ فنقل عنها مباشرة لاسيما عن كتاب في الادب اخذ منه فصولاً في العتاب والوصاة واستنجاز الوعد والاعتذار، والتعازي وكتابة الرسائل لم ينقلها ابن قتيبة[7] واخذ ابن عبد ربه عن كتاب الجاحظ في الموالي والعرب[8] وعن

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٦

٢) ابن قتيبة ١ : ٢٧

٣) ابن عبد ربه ١ : ٨٠

٤) ابن قتيبة ١ : ١١٢

٥) [The Encyc. of Islâm, vol. I, p. 1000] في المقالة عن الجاحظ المهملة التوقيع.

٦) راجع تصدير كتاب التاج في اخلاق الملوك، لاحمد زكي باشا، ص ٢٩

٧) ابن عبد ربه ٢ : ٢٤٣ و ٢٤٤ و ٢٤٥، و ١ : ٢٤٠

٨) ابن عبد ربه ٢ : ٦٣ و ٣ : ٢٦٩

كتاب الادب[١] كما وانـه ينقل عن الجاحظ كثيراً دون ان يشير الى اسم الكتاب[٢] وقد قابـل في عقده بين الجاحظ وتلميذه المبرّد فمدح الاول وذم الاخير.[٣]

المبرّد

ويأخذ عن المبرَّد محمد بن يزيد الازدي النحوي المتوفى سنة ٢٨٥ هـ[٤]، تلميذ الجاحظ، فينقل من كتابه الشهير «الكامل» الذي رجع اليه نفر كبير من الادباء في القرن الرابع للهجرة كابي الفرج الاصبهاني وغيره. وينقل من غير الكامل اخبـاراً نثرها في العقد[٥]، مشيراً في بعض الاحيـان الى مصدرها، وساكتاً في بعض الاحيـان الاخرى عن ذاك. ونحن اذا رجعنا الى العقد (٣: ٢٤٠–٢٤١) نرى ان كثيراً مما دوّنه في هذا الموضع قد نقله عن الكامل (ص ٣٩١ – ٣٩٦) دون ان يشير بكلمة الى ذاك. كذلك نرى ان بعض اخبار الازارقة[٦] مأخوذة عن الكامل ايضاً (ص ٥٨٦–٥٨٧). واخذ ابن عبد ربه ايضاً عن كتاب آخر للمبرّد هو كتاب الروضة[٧]. ولقد ردّ على اشياء وردت فيه[٨]. والغريب انه مع كل ما اخذه عن المبرَّد قد ذمّه ونعى عليـه كتاب الروضة وهزأ به، قال: «الا ترى ان محمد بن يزيد النحوي على علمه باللغة ومعرفته باللسان وضع كتاباً سماه بالروضة وقصد فيه الى اخبار الشعراء المحدثين فلم يختر لكل شاعر الّا ابرد ما وجد له حتى انتهى الى الحسن بن هانئ، وقلّما يأتي له بيت ضعيف لرقة فطنته وسبوطة نيته وعذوبة الفاظـه،

---

١) ابن عبد ربه ١: ٣١١

٢) ابن عبد ربه ٣: ٩ و٢٦ و٢٢٥، و٢: ٢١٢، و١: ١٨٤ و٢٤٠ و٢٧٠

٣) ابن عبد ربه ٣: ٢٦٨ و٢٦٩

٤) ابن النديم ١: ٥٩

٥) ابن عبد ربه ١: ٢٠٧ و٢٢٧ و٢٢٩ و٢٩٨ و٢٨٣؛ ٣: ١٧٨ و٢١٧ و٢٢٠ و٤٠٤

٦) ابن عبد ربه ١: ٢٦٤ – ٢٦٥

٧) ابن عبد ربه ٣: ١٧١ و٢٦٨

٨) ابن عبد ربه ٣: ١٧١

فاستخرج له من البرد ابياتاً ما سمعناها ولا رويناها ولا ندري من اين وقع عليها وهي :

الا لا يلمني في العقار جليسي — ولا يلحني في شربها بعبوس
تعشقها قلبي فبغض عشقها — اليَّ من الاشياء كل نفيس

«واين هذا الاختيار من اختيار عمرو بن بحر الجاحظ حين اجتلب ذكره في كتاب الموالي فقال : «ومن الموالي الحسن بن هاني وهو من اقدر الناس على الشعر واطبعهم فيه» ... وجل اشعاره الخمريات بديعة لا نظير لها فخطر بها كلها وتخطاها الى التي جانسته في برده. فما احسبه لحقه هذا الاسم المبرّد الا لبرده.»[1] وقد نعى على المبرد ايضاً ما اختاره في الروضة لابي العتاهية من الاشعار التي زعم ابن عبد ربه انها تقتل من برده[2].

ابن المقفع

ويأخذ عن عبدالله بن المقفع المتوفى حول سنة ١٣٩ هـ[3] فينقل عن كتابه الادب الصغير[4] وعن كليلة ودمنة[5]. كما وانه ينقل في بعض الاحيان عنه، دون ذكر رجوعه الى كتاب بعينه كأن يقول مثلاً « قاله او وقال صاحب كليلة ودمنة[6]، او قال ابن المقفع[7]. ولا يتسع الوقت لدرس ما اذا كان رجع الى كتب ابن المقفع او انه اكتفى بما اخذه عنها ابن قتيبة فنقله عنه.

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٨

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٩

٣) Cl. Huart, *Ibn Mukaffa'* [The Encycl. of Islâm, vol 2, p. 404]

٤) ابن عبد ربه ١ : ٦

٥) « « ١ : ٢٨٥

٦) « « ١ : ٥٢ و٢١٣

٧) « « ١ : ٢٧٢ و٣٠١

سيبويه

واخذ ابن عبد ربه عن سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث النحوي الشهير المتوفى سنة ١٧٧ هـ[1]. وهناك اشارة صريحة الى انه اطلع على كتابه، اذ قال في بيت من الشعر اورده للفرزدق: «وهذا آخر كتاب سيبويه.»[2] ويذكر بيتاً من الشعر ويقول: وقد استشهد به سيبويه في كتابه»[3]. كذلك ينتقد سيبويه في استشهاده ببيتين في كتابه اورد قافيتيها منصوبتين، وزعم ان النصب هو على اعراب الشيء على المعنى لا على اللفظ – واللفظ يقتضي الجر – ويخطاه ويظهر له ان القافية مجرورة وان البيتين هما من قصيدتين مجرورتي القافية ثم يقول: «فما كان يضطر سيبويه ان ينصبهما ويحتال على اعرابها بهذه الحيلة الضعيفة»[4]. وقد نستدلّ من هذا الخبر، اذا صحّ ان ابن عبد ربه هو اول من نبه اليه، على سعة اطلاع صاحب العقد ومعرفته بكثير من اشعار العرب القدماء. ولكن يجوز ان يكون قد نقل انتقاده هذا عن مصدر آخر. وكتاب سيبويه هذا انما هو كتاب النحو الذي قال فيه المبرّد «ركبت البحر تعظيماً له واستعظاماً لما فيه»[5]. وقال المازني القديم: «من اراد ان يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحِ»[6].

ابن سلام

ولم يفته الرجوع الى محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١ هـ[7] فقد اخذ عنه واشار الى ذلك في موضعين من العقد دون ان يعيّن كتاباً[8]. وهنا

---

١) ابن النديم ١ : ٥١
٢) ابن النديم ٢ : ٢١
٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٠
٤) ابن عبد ربه ٣ : ١٧١
٥) ابن النديم ١ : ٥١
٦) ابن النديم ١ : ٥٢
٧) J. Hell : مقدمة «طبقات الشعراء» لابن سلام الجمحي، طبعة بريل، ليدن سنة ١٩١٦، ص XII
٨ ابن عبد ربه ١ : ٢٨٦، و٣ : ٢٨٢ – اما كتب ابن سلام فهي، فيما يذكر ابن النديم،

لا نستطيع ان نعلم هل اخذ عنه مباشرةً او انه نقل عن ادباء اخذوا عنه .

ابو عبيدة

واستقى ابن عبد ربه من كتب ابي عبيدة معمر بن المثنى التيمي المتوفى بين سنتي ٢٠٧ و٢١٣ للهجرة [١] . فنقل عن كتابه التاج [٢] ، واخذ عن ابي عبيدة في مواضع كثيرة ، ولم يذكر الكتاب الذي رجع اليه بل اكتفى بذكر المؤلف فقط [٣] . وقد اسند ابن عبد ربه اكثر اخباره عن وقائع العرب في كتابه الدرّة الثانية في ايام العرب ووقائعها الى ابي عبيدة دون ذكر لكتاب ما . واذا رجعنا الى الفهرست لابن النديم [٤] ، نرى ان بين الكتب التي وضعها ابو عبيدة كتاباً اسمه « الايام » كذلك نرى في كتاب المزهر في علوم اللغة للسيوطي ، (طبعة القاهرة سنة ١٢٨٢ ، ج ١ ص ٨٤) : « وقال ابو عبيدة في كتاب ايام العرب » . فلا يبعد ان يكون ابن عبد ربه قد اخذ اخباره هذه عن الكتاب المذكور ، لا سيما وفي كتاب ابن عبد ربه في ايام العرب اسهاب وتطويل . وقد ذكر فيه خبر اكثر من ثمانين واقعة اسند اكثرها الى ابي عبيدة . وروى القلقشندي في كتابه صبح الاعشى قال : «ولابي عبيدة مصنف مفرد في ايام العرب ، وقد اورد منها ابن عبد ربه في كتاب « العقد » جملة مستكثرة » [٥] .

ابن وحشيّة

ويجوز انه استقى من بعض كتب ابن وحشيّة ابي بكر احمد [او محمد]

(١ : ١١٣) كتاب الفاصل في ملح الاخبار والاشعار ، كتاب بيوتات العرب ، كتاب طبقات الشعراء الجاهليين ، كتاب طبقات الشعراء الاسلاميين ، كتاب الحلاب واجر الخيل .

١) ابن النديم ١ : ٥٣

٢) ابن عبد ربه ١ : ٢٦ ؛ و٢ : ٥٣ و٥٥ و٦٩ و٢٨٧

٣) ابن عبد ربه ١ : ٥٣ و١٩٢ و٢٢٢ ؛ و٢ : ٥٥ و٩١ ؛ و٣ : ٦٠

٤) ابن النديم ١ : ٥٤

٥) القلقشندي ١ : ٢٩٣

ابن علي الكلداني النبطي، الذي عاش في منتصف القرن الثاني للهجرة[1] ، اذ نقل عن كتابه الفلاحة بعض الاخبار الى كتاب الزبرجدة الثانية في طبائع الانسان وسائر الحيوان غير اننا نظن ان ابن عبد ربه قد نقل اخباره هذه عن ابن قتيبة الذي سبقه في النقل عن الفلاحة[2].

واخذ عن المفضل بن محمد الضبي ، وعن الاصمعي ، وعن الشيباني ، والعتبي ، وابي جعفر البغدادي ، وابن الكلبي ، والزبير بن بكار ، وحماد ، والغزالي ، والهيثم بن عدي ، وابي غسان تلميذ ابي عبيدة ، والرياشي ، وابن شهاب الزهري ، والعجلي ، والكلبي ، ووهب بن منبه ، ومكحول ، والاوزاعي ، والتميمي ، والمدائني ، والشعبي ، والعتابي ، وغيرهم . ولبعض هؤلاء كتب في النوادر والاخبار ذكرها ابن النديم[3] . ولا يتسع المقام لدرس ما اذا كان نقل عن كتب مدوّنة لهؤلاء او انه اخذ رواياتهم عن كتب لغيرهم من الذين تأخروا عنهم . واذا علمنا ان ابن قتيبة قد اخذ عن اكثر هؤلاء ادركنا صعوبة معرفة الحقيقة الخالصة.

ابن هشام

ويرجع في بعض الاحيان الى ابن اسحق ، صاحب السيرة والمغازي ؛ ويظهر انه لم يأخذ عنه رأساً ، بل اخذ عن ابن هشام حيث يقول :« قال ابن اسحق صاحب المغازي لما نزل رسول الله » الخ . . . ثم يكمل الخبر مسندًا الى ابن هشام[4] . ويقول في موضع آخر :« ومن ذلك ما رواه ابن اسحق صاحب المغازي وابن هشام . قال ابن اسحق كذا الخ » . . . ثم يقول :« وقال ابن

---

١) *Ibn Waḥshiyyah* [The Encyc. of Islâm, vol. 2, p. 427] في المقالة المهملة التوقيع .

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٣٥٥ و٣٥٨ ؛ وراجع ابن قتيبة ٢ : ٨٤ و٩٤ ؛ وترى ان قسماً كبيرًا من اخبار ابن عبد ربه عن طبائع الانسان والحيوان منقول عن ابن قتيبة

٣) ابن النديم ١ : ٨٨ و٩٥ و٩٩ و١٠٠ و١٠٤

٤) ابن عبد ربه ٢ : ٢١

هشام»[١] ويأخذ احياناً عن ابن هشام دون ذكر ابن اسحق ، كأن يقول مثلاً : « قال ابن هشام»[٢] الخ . . .

التوراة والانجيل وغيرها

وهناك بعض المصادر الغريبة كالتوراة مثلاً ، والانجيل ، وكتب الفرس ، وكتب ارسطوطاليس ، وكتب الهند ، وغيرها . فقد ذكر اخباراً منقولة عنها في عقده . ولكن ترى هل اخذ هذه الاخبار عن هذه المصادر مباشرة ام بواسطة ابن قتيبة وغيره من الذين رجعوا اليها في كتبهم ؟ يقول الاستاذ جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية : «ان ابن عبد ربه لم يقتصر فيما جمعه على ما عرفه العرب بل نقل عن الكتب التي ترجمت الى العربية في ذلك الزمن عن اليونانية والهندية والفارسية وهو يشير الى ذلك في كلامه . »[٣] ويظهر ان الاستاذ زيدان يذهب في هذه العبارة الى ان ابن عبد ربه نقل عن ترجمات هذه الكتب ، لا عن الاصول اليونانية والهندية والفارسية . ولكن هذه الترجمات عرفت عند العرب قبل زمن ابن عبد ربه ، وقد سبق المشارقة الى النقل عنها قبله ، ونخص بالذكر الجاحظ وابن قتيبة فقد نقلا عن بعض كتب ابن المقفع وعن بعض الكتب المنقولة عن اليونانية والهندية . واذا فقد اقتصر ابن عبد ربه فيما جمعه على ما عرفه العرب في الشرق . ولا نظن ان الاستاذ زيدان يرى ان ابن عبد ربه نقل عن الاصول مباشرة ، كما يظهر من قول ابن عبد ربه الذي اشار اليه الاستاذ زيدان[٤] : « وفي كتاب للهند او « وفي كتب ارسطوطاليس » . لان هذه الاخبار منقولة عن ابن قتيبة او عن الجاحظ . واذا رأينا كثرة ما نقله ابن عبد ربه عن ابن قتيبة ادركنا سهولة اخذه مثل هذه الاخبار مع اسانيدها كأن يقول مثلاً : « وفي كتاب الهند ان كذا الخ »[٥] فيوردها بالحرف كما اوردها ابن

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٢١

٢) 〃 〃 ٢ : ٢٢ ، و٣ : ١٢٢ ٣) زيدان ٢ : ١٧٤

٤) لاحظ قول زيدان : « وهو يشير الى ذلك في كلامه » في القطعة التي نقلناها عنه .

٥) ابن عبد ربه ١ : ٨٠ [وليلاحظ ان هذه المواضع التي يذكر فيها اخباره عن كتب الهند قد ادخلها في كتابيه السلطان والحروب اللذين اكثر فيهما النقل عن ابن قتيبة] .

قتيبة نفسه : « وقرأتُ في كتاب للهند ان كذا الخ »[1] . وربما من الخير ألّا نجزم في ان ابن عبد ربه لم يطلع على الترجمات الاصلية من كتب ابن المقفع وغيره لاسيما كتب الروم ، فقد قال في عقده : « وقرأت في كتاب للروم »[2]

اما اخباره المنقولة عن التوراة والانجيل، وبالاخص الاخير منها ، فانا نرجح ايضاً انه نقلها عن ابن قتيبة الذي ذكرها في عيون اخباره في باب الزهد . ولقد وضعها ابن عبد ربه في عقده في كتاب الزمردة في المواعظ والزهد[3] . غير انه اكتفى بالقليل ممّا نقله ابن قتيبة عن التوراة والانجيل . ويظهر ان الاخيرين — رغم ما يقال عن احتكاك نصارى الاندلس بمسلميها وشغفهم في قرطبة بدرس اللغة العربية وآدابها وعلومها — لم يترجما الى العربية في تلك البلاد ، او انها ترجما ولم يصلا الى ايدي العلماء المسلمين بحيث يستطيع اديب مثل ابن عبد ربه ان ينقل عنها مباشرة ويكون في غنى عن الاستناد الى ابن قتيبة . ومهما يكن من الامر فان ابن قتيبة هو صاحب الفضل الاول في ذكر هذه الاقسام الصغيرة من التوراة والانجيل باللغة العربية ، ويظهر من كلامه انه قرأ بعضها في نسخ عربية[4]

القرآن والحديث

بقي القرآن والحديث ففي العقد منها شيء كثير ، وبالاخص الحديث ففيه منه طائفة ليست بيسيرة منتثرة في كل اجزائه . وقد ذكر ابن عبد ربه هذه الاحاديث دون ذكر الكتب التي قد يمكن ان يكون اخذها عنها . غير انه

---

١) ابن قتيبة ١ : ١١٢

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٣٥٤ ، وراجع ٣ : ٤٢٠ س ٢ : « وفي بعض الكتب المترجمة » .

٣) قابل بين ابن عبد ربه ١ : ٣٥٦ و٣٥٧ سطر ٢٩ ، و٣٥٧ سطر ٢ ، و٣٥٨ وبين ابن قتيبة ٢ : ٢٦٨ و٢٦٦ ، و٢٧٥ — ٢٧٦ و٢٧٦ ويرى القارئ انه حيث يذكر ابن قتيبة التوراة يذكرها ابن عبد ربه ، وحيث يسند ابن قتيبة اخباره هذه الى مثل وهب بن منبه او غيره يسندها ابن عبد ربه اليهم .

٤) ابن قتيبة ٢ : ٢٧٠ وقرأت في الانجيل : « لا تجعلوا كنوزكم في الارض حيث يفسدها السوس » الخ .

رجع في عقده الى موطأ مالك بن انس[1] الـذي كان معروفاً في الاندلس يوم ذاك . واذا ذكرنا ان ابن عبد ربه من الفقهاء ادركنا سهولة حفظه لكثير من الاحاديث بحيث يستشهد فيها بعقده دون الرجوع الى الكتب التي دونتها .

الدواوين الشعرية

اما الدواوين الشعرية التي يمكنه ان يكون قد رجع اليها فـلا نستطيع معرفتها او ضبطها او حصرها لاسيا وهو يدوّن في العقد اشعاراً لاكثر من مئتي شاعر لا نعلم من اين اخذها . انما لا نشك في انه كان على اطلاع على شعر اهمّ الشعراء المتقدمين في المشرق كجرير ، والفرزدق ، والاخطـل ، وابن ابي ربيعة ، وابي نوّاس ، وابي تمام ، ومسلم ، وابي العتاهية وغيرهم .

الخشني وابن وضاح وابن مخلد

ولم يفت صاحب العقد ان يدوّن بعض الامور عن اساتـذته في الاندلس الذين ذكرهم ابن الفرضي : الخشني ، وابن وضّاح ، وبقي بن مخلد[2] . وقد اخذ عن هؤلاء نتفاً من الاخبار عن العلماء والادباء في المشرق ، وشيئاً من آراء بعض الائمة بخصوص النبيذ وشربه ، وقليلاً من اخبار امراء الاندلس الـذين تقدموه ولم يدركوا عصره . وقد اشار الى انه اخذ عن هؤلاء في عدة مواضع[3] وقد كان احد هؤلاء الخشني محمد بن عبد السلام من قرطبة ، وكانت له رحلة الى المشرق ودخل البصرة وسمع من علمائها ولقي بها ابا حاتم السجستاني ، والعباس ابن الفرج ، والرياشي ، وابا اسحق الزيادي ، واخذ عنهم كثيراً من كتب اللغة روايةً عن الاصمعي وغيره ، ودخل بغداد ، وحجّ مكة ، وادخل الانـدلس

---

1) ابن عبد ربه ٣ : ٢٤٨ و٤١٥

2) ابن الفرضي ١ : ٢٧

3) ابن عبـد ربه ١ : ٢٠٤ و٢٤١ و٢٥٢ ؛ ٢ : ٥٦ و٢٦٠ ؛ ٣ : ١١٩ و٤١٦ وغـيرها وفي ابن عبد ربه ١ : ٢٠٤ . أملى ابو عبدالله محمد بن عبد السلام الحسنى (كذا) وفي ٢ : ٢٦٠ : حدّث بقي بن محمد (كذا) وكلاهما تحريف عن الخشني ومخلد .

كثيراً من حديث الايمة وكثيراً من كتب اللغة والشعر الجاهلي ومـات سنة ٢٨٦ هـ »[١].

واما بقيّ بن مخلد بن يزيد القرطبي فقد ذكر عنه ، نقلاً عن ابن حزم ، انه صاحب التآليف التي لم يؤلف مثلها في الاسلام ، وانه لقي ٢٨٤[٢] شيخاً[٣]. وذكر في موضع آخر ان ابن حزم قال: « اقطع انه لم يؤلف في الاسلام مثل تفسيره لا تفسير محمد بن جرير ولا غيره »[٤]. وقد انكر عليه بعض علماء الاندلس بعض التصانيف التي نقلها من المشرق ، لاسيا مصنف ابن ابي شيبـة . غير ان الامير محمد بن عبد الرحمن الاموي امتحن الكتاب ثم قال لخازن كتبه: « هذا الكتاب لا تستغني خزائننا عنه فانظر في نسخه لنا . » وقال لبقي : « انشر علمك وارو ما عندك » . ونهاهم ان يتعرضوا له[٥] . وذكر المقرّي عن ابن حزم ايضاً ان تصانيف بقي صارت قواعد الاسلام لا نظير لها ، وانه كان متخيراً لا يقلد احداً[٦] . وذكر في موضع آخر ان بقياً هذا طاف المشرق عراقـه وشامه وحجازه[٧] . وتوفي بقي سنة ٢٧٦ هـ[٨].

اما ابن وضاح فقد ذكر ابن ابار صاحب التكملة اسماء كثيرين ممن لزموه ورووا او اخذوا عنه[٩]. ويظهر انه كان في قرطبة ايضاً اذ ان المقري يذكر عن قاسم بن اصبغ البياني احد علماء الاندلس انه سمع بقرطبة من بقي ابن مخلد ومحمد بن وضاح[١٠]

---

١) السيوطي ٦٧

٢) المقّري ١ : ٥٨٩ ، يذكر ان عدد شيوخه ٢٣٤

٣) المقّري ١ : ٢٥٠ ، و ٢ : ٧٧١ ٤) المقّري ١ : ٥٩٠ و ٢ : ٧٧١

٥) المقّري ١ : ٥٩٠ ، ويظهر ان بقياً لم ينسَ صنيع محمد معه فقد حدّث ابن عبـد ربه مادحاً اياه وقال له: « ما كلمت احداً من الملوك اكمل عقلاً ولا ابلغ لفظاً من الامير محمد » الخ (ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٠)

٦) المقّري ١ : ٥٩٠ و ٢ : ٧٧١

٧) المقّري ، طبع اوربة سنة ١٨٥٥ — ١٨٦٠ ، I : ٨١٢

٨) المقّري ١ : ٥٨٩

٩) التكملة لكتاب الصلة لابن ابار ، طبعة المطبعة الشرفية بالجزائر ١٣٣٧ هـ ١٩١٩ م ص ١٢ و ١٤ و ١٦١ و ١٦٥ و ١٨٥

١٠) المقّري ١ : ٣٥٠

واذا عرفنا ان كثيرًا من الاخبار التي دونها ابن عبد ربه في عقده عن ادباء المشرق ورواياتهم وعلومهم لم يذكر اسنادها ، وان الخشني وبقيًا استاذيه قد نقلا كثيرًا من هذه الاخبار الى الاندلس ، ادركنا كثرة ما يمكن ان يكون قد اخذه عنهما ودوّنه بعقده .

قيمة العقد التاريخية

يعدّ العقد مصدرًا من المصادر الاولية المهمّة التي يرجع اليها الباحثون في تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والادبي . وقد امتاز عن كثير من الكتب القديمة بتبويبه وحسن ترتيبه واختياره ، كما وانه يذكر لنا بعض روايات الاقدمين كالاصمعي ، وابي عبيدة ، والعتبي ، والشيباني ، وغيرهم ، ممّن لم يترك لنا الزمن من آثارهم التاريخية والادبية شيئًا كثيرًا مجموعًا في كتب مستقلة . ولذلك فذكر العقد لرواياتهم يفيد من يودّ الرجوع اليها ، او من يرغب في مقابلة بعضها في المصادر المختلفة بما هي عليه في العقد .

ويذكر العقد اخبارًا كثيرة عن رجال الاسلام الأُول من خلفاء وامراء وقوّاد في عصر الراشدين والامويّين ، وعن ايام العرب الاولى واختلاف امرهم في العصر الامويّ ، لا بدّ للباحث في تاريخهم من الوقوف عليها . كما وانه يذكر في بعض كتب العقد كثيرًا من الفوائد التاريخية ممّا يتعلق بالسياسة والاقتصاد والاجتماع والادب وغيرها . واذا قرأت خبر وفود عبدالله بن جعفر مثلًا على عبد الملك بن مروان[1] رأيت في هذا الخبر فوائد عن حالة القوم الاقتصادية والاجتماعية ، وفهمت شيئًا من تلك العلاقات بين بني امية في الشام من ناحية وبين بعض هذا النفر الارستقراطي في الحجاز من ناحية اخرى . كذلك نرى في كتاب السلطان مثلًا اخبارًا ذات شأن عن سياسة عمر ، كما فهمها اهل ذلك العصر ، ومحاسبته للعمّال ، وعن حياة الامراء ، وبلاط الخلفاء ، وعن نزعة اهل

١) ابن عبد ربه ١ : ١٤٦

ذلك الجيل الجديد ، الذي تلا عصر الصحابة الاول ، الى البذخ والترف وميلهم الى اقتناء المال ، وامتلاك المزارع ، وبناء الدور الجديدة ، واتباعهم سبل المرح واللهو . فنقرأ مثلاً « كتب عمر الى احد عماله : وقد بلغ امير المؤمنين انه فشت الك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها . »[١] او مثلاً : « قال ابو هريرة لمروان: اتظلّ عند ابنة فلان تروّحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد وابناء المهاجرين والانصار يصهرون من الحرّ »[٢] . وكذلك قل عن كتاب الحروب ففيه بعض الفوائد عن تاريخ العرب السياسي ، وفيه نتف من اخبار الخوارج[٣] . وقد ذكر في كتاب النسب اخباراً دقيقة لها علاقة في بعض الامور التاريخية كأن يورد مثلاً في كلامه عن قريش تسمية من انتهى اليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالاسلام، ويشرح المكارم التي كانت لهم في الجاهلية من سقاية ، ورفادة ، وسدانة ، وحجابة ، الخ[٤] .. وذكر في كتاب آخر من العقد اسماء من كتب للنبيّ ، ولبعض الخلفاء والامراء من بعده[٥] . ويروي في بعض الاحيان اخباراً لها اهميتها لمن يريد التخصص في درس بعض الشخصيات الاسلامية . فقد ذكر مثلاً عن عثمان بن عفان انه كان يعتني في ثيابه ويتنظف ؛ وانه كان ، وهم يبنون المسجد بالمدينة زمن النبي ، يحمل اللبنة ويجافيها عنه بحيث لا تمسّ ثيابه فاذا وضعها نفض كفّيه ونظر الى ثوبه فاذا اصابه شيء من التراب نفضه عنه . فنظر اليه علي وانشد :

لا يستوي من يعمر المساجدا   يدأب فيها راكعاً وساجدا
وقائماً طوراً ، وطوراً قاعدا ،   ومن يُرى عن التراب حائدا .[٦]

وكتب عن الحجاج فصلاً في نحو ٢٠ صفحة في اليتيمة الثانية[٧] عدا عمّا نثره

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٣٤
٢) ابن عبد ربه ١ : ٢٣
٣) ابن عبد ربه ١ : ٨٠
٤) ابن عبد ربه ٢ : ٤٥–٤٦
٥) 〃 〃 ٢ : ٢٠٧
٦) 〃 〃 ٢ : ٢٨٨
٧) 〃 〃 ٣ : ٦–٢٦

عنه في اكثر كتب العقد.

كذلك نرى في العقد كثيرًا من الفوائد عن حالة العرب الاجتماعية من سماعهم للغناء ومجالسهم حوله، وطرق معيشتهم، ولباسهم وطعامهم وشرابهم، ورأيهم في الخمر والنبيذ، وذكر الشاربين ومن حُدّ منهم، ونظر الائمة لبعض ضروب هذا اللهو الذي فشا بعد احتكاكهم بالامم الاخرى، وتساهل البعض في امره وشدة البعض الآخر، واختلاف الاقطار بالنسبة الى آراء اهلها وائمتها في الغناء والشراب مثلًا، وما الى هذه الامور.

وللعقد قيمة تاريخية من حيث الرجوع اليه عند نشر بعض الكتب التي اخذ عنها صاحبه، او التي اخذت عن رواة استند اليهم ابن عبد ربه ايضاً. وقد الحقت لجنة دار الكتب في القاهرة عند نشرها كتاب «عيون الاخبار» زيادات كثيرة في متنه نقلتها عن العقد وصححت كثيرًا من الاغلاط التي عثرت عليها في النسخ الخطية من «عيون الاخبار» عند مقابلتها بالعقد.

ويجب ان لا ننسى ان العقد من المصادر القديمة، فصاحبه قريب عهد بكثير من الامور التي وقعت وذكرها في كتابه. كما وان في العقد كتاباً كبيرًا قصره لتاريخ الخلفاء يمتاز عن كثير من كتب التاريخ القديمة من حيث الاختيار والاختصار اللذان قصد اليهما مؤلفه. فقد حشد في نحو ١٣٣ صفحة فوائد كثيرة عن الخلفاء في الشرق والاندلس حتى زمنه، كتبت باسلوب سهل واضح جذاب، وروعي فيها الترتيب والتبويب. وقد لاحظنا اتفاق بعض النصوص في هذا الكتاب مع النصوص التي اوردها الطبري بتاريخه بالحرف تقريباً. ورغم ان الذين عُنوا من المستشرقين بنشر تاريخ الطبري قد رجعوا الى العقد، فانا قد وقعنا على اغلاط في مواضع بتاريخ الطبري كان من اليسير تجنبها لو التفت الى رواية العقد. ففي الجملة الثانية (ص ١٨٧٥): «لم يتم لابرهيم امره وكان يسلم عليه جمعةً بالخلافة وجمعةً بالامرة وجمعةً لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالامرة.» وفي العقد (٢: ٣٤٧) «فلم يتم له (اي لابرهيم بن الوليد) الامر وكان يدخل عليه قوم فيسلمون بالخلافة وقوم يسلمون بالامرة وقوم لا يسلمون بخلافة ولا بامرة وجماعةٌ تبايع وجماعة يأبون ان يبايعوا.» وظاهرٌ ان الناشرين قد

قرأوا « جماعةٌ » « جمعةً » . فليتنبَّه الى هذا !

وربما من الخير ان نذكر هنا رأي الاستاذ جرجي زيدان من حيث قيمة العقد التاريخية . قال في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » :

« ان في بعض ابوابه فصولاً لا تجد مثلها في كتب التاريخ فاخبار زياد والحجاج والطالبين فيها حقائق يعزّ العثور عليها في كتاب آخر . وناهيك بايام العرب واعاريض الشعر وما هناك من اخبار الخوارج والازارقة فضلاً عن كثير من الاقوال المأثورة عن عظماء الملوك نقلاً عن كتب ضاعت اصولها »[1]

ولا يفوتنا هنا ذكر اهمية العقد التاريخية من حيث انه يحتوي على بعض الاخبار التاريخية عن الاندلس ، لاسيما في ارجوزة صاحبه الكبيرة . ومن حيث انه صادر عن عربي اندلسي يبحث في تاريخ العرب في عصورهم الاولى من جاهليتهم الى عصرهم العباسيّ الذهبي . وقد كان صاحبه بعيداً الى حدٍ ما عن تأثير اصحاب الامر والسلطة على المؤلفين والادباء في المشرق . وقد ساعده بعده عن مواطن العرب الرئيسية واحزابهم المختلفة ، وجوده الاندلسي على شيء من الحرية الفكرية التي حرمها كثيرون غيره . غير انه رغم هذه الامور لم يستطع ان يتجرّد من بعض النزعات والميول ، ولم يتجنب كثيراً من الاغلاط التي ارتكبها غيره . ونرى من الخير ان نبحث هنا في بعض نزعات ابن عبد ربه الخاصة من شخصية وغيرها ، وميوله ، والمؤثرات المختلفة التي يمكن ان تكون قد اثرت عليه والظروف التي احاطت به ، بحيث نعلم شيئاً من قيمة هذه الاخبار التي نراها في العقد ونكون قد انصفنا الرجل وكتابه .

ضعفه كمؤرخ

والظاهرة الاولى التي تبدو في العقد هي ضعف صاحبه كمؤرخ . ونلمس هذا الضعف من نواحٍ متعددة : منها ان ابن عبد ربه يرى ان لا اهمية للاسناد في الاخبار ، ويدوّن مبدأه هذا بصراحة في مقدمة كتابه حيث يقول : « وحذفت الاسانيد من اكثر الاخبار طلباً للاستخفاف والايجاز وهرباً من التثقيل والتطويل

---

١) زيدان ٢ : ١٧٤

لانها اخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرّها ما حذف منها.»[١] ويقول: «سئل حفص بن غياث الاعمش عن اسناد حديث فاخذ بحلقه واسنده الى الحائط وقال: « هذا اسناده» . وحدّث ابن السمّاك بحديث فقيل له ما اسناده؟ قال: « هو من المرسلات عرفا!» وحدّث الحسن البصري بحديث فقيل له: « يا ابا سعيد عمن؟» قال: « وما تصنع بعمّن يا ابن اخي؟ »[٢] وترى انه يتساهل في اسناد الاخبار حتى في الحديث، وهو يخالف ابا الفرج الاصبهاني من هذه الناحية، فان الاغاني من الكتب المسندة (المعنعنة). وقد اخذ ابن عبد ربه كثيراً من الاخبار — كما رأينا في الفصول السابقة — عن مصادر اهمل ذكرها . وتقع في بعض الاحيان على باب في اخبار عليّ ومعاوية مثلًا ترى فيه فوائد كثيرة، ولكن لا تعلم من اين استقى ابن عبد ربه هذه الفوائد .

وترى من ناحية ثانية ان له رأياً في الاختصار والاختيار ذكره في مقدمة كتابه . ومن الخير ان يلتفت اليه قال: «وقد الفت هذا الكتاب وتخيّرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجوهر ولبّ اللباب وانما لي فيه تأليف الاختيار وحسن الاختصار... واختيار الكلام اصعب من تاليفه وقد قالوا اختيار الرجل وافد عقله.»[٣] فهو يقول بصراحة انه عمد الى بعض الاخبار فاختصرها او اختار منها ما يلائم كتابه او ذوقه زاعماً انه يختار الاحسن، فله اذن الفضل الاكبر.

ويظهر من ناحية اخرى انه لا يمحص الاخبار بل تراه ينقل الكثير منها على علاته، دون ان يسبرها بمعيار العقل والمنطق . وهو يشترك بهذا مع كثير من مؤرخي العرب المتقدمين، فيذكر مثلًا اخباراً عن المعمّرين منها ان احدهم عاش ٣٠٠ سنة ووفد آخرَ عمره على معاوية[٤] . ومنها ان احدهم عاش ١٩٠ سنة فاسودّ شعره ونبتت اضراسه وعاد شاباً ويقول: «ولا يعرف في العرب اعجوبة مثله»[٥]. ومنها: «ومن بطون غطفان نصر بن دهمان كان من المعمرين وعاش مئتي

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢
٢) ابن عبد ربه ١ : ٢
٣) ابن عبد ربه ١ : ٢
٤) « « ١ : ٢٢٢
٥) « « ١ : ٢٢٢

سنة .»[١] والغريب انه يعود فيـذكر انه مكتوب في الزبور من بلغ السبعين اشتكى من غير علة[٢] .

ويذكر اقوالًا من هذا القبيل منها مثلًا « من قال على طعامه :« بسم الله خير الاسماء ، في الارض وفي السماء ، ولا يضرّ مع اسمه داء ، اللهم اجعل فيه الدواء والشفاء » ، لم يضره ذلك الطعام كائناً ما كان .»[٣] او يذكر قصة عن ابي جعفر المنصور وتوعده جعفر بن محمد بالقتل وكيف ان الاخير نجا لانه قبل دخوله على ابي جعفر تلا دعاء هو :« اللهم احرسني بعينـك التي لا تنـام ، واكنفني بكنفك الذي لا يرام ، ولا اهلـك وانت رجائي فكم من نعمة انعمتها عليّ قلّ عندها شكري فلم تحرمني وكم من بلية ابتليتني بها قل عندها صبري فلم تخـذلني . اللهم بك ادرأ في نحره واعوذ بخيرك من شرّه . »[٤] او يقول مثلًا :« ومن همدان شريك بن حياشة الذي دخل الجنة في الدنيا ايام عمر بن الخطاب . »[٥] او :« انتهب عسكر الحسين فوجد فيـه طيب لم تتطيب به امرأة الا برصت »[٦] . ويذكر مثـلًا في باب طبائع الانسان امورًا نقلها عن غيره هي ابعد الاشياء عن طبائع الانسان لو يعقلون . منها ان امرأة حملت فاقامت خمس سنين ثم ولدت . وحملت مرة اخرى فاقامت ثلاث سنين ثم ولدت . ويردفها بروايات اخرى عن رجال يسميهم ولـد بعضهم لسنتين من حمله[٧] .

ويذكر في باب الحيوان اخبارًا كلها اوهام منها « ان هشاماً بن محمد حدّث ان ابن الكلبي حدّث ان اسماء نساء بني نوح (صلعم) اذا كتبن في زوايا بيت البرج (برج الحمام) سلمت الفراخ ونمت وسلمت من الآفات . قال هشام : فجرّبته انا وغيري فوجدناه كما قال »[٨]

ويتكلم في نسب لخم فيقول :« ومنهم مالك بن ذعر . . . بن لخم يقال

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٦٢
٢) ابن عبد ربه ١ : ٢٣٤
٣) ابن عبد ربه ١ : ٢٩٧
٤) ابن عبد ربه ١ : ٢٩٧
٥) 〃 〃 ٢ : ٦٢
٦) 〃 〃 ٢ : ٣٠٩
٧) 〃 〃 ٣ : ٢٥٢
٨) 〃 〃 ٣ : ٢٥٥

انه الذي استخرج يوسف بن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه من الجب.»[١]

ويذكر اموراً غريبة مثل « بعث ملك الهند الى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه من ملك الاملاك الذي هو ابن الف ملك والذي تحته ابنة الف ملك والذي في مربطه الف فيل والذي له نهران ينبتان العود والالوة والجوز والكافور الذي يوجد ريحه على مسيرة اثني عشر ميلاً الى ملك العرب الذي لا يشرك بالله شيئاً اما بعد فاني قد بعثت اليك بهدية وما هي بهدية ولكنها تحية قد احببت ان تبعث اليَّ رجلاً يعلمني ويفهمني الاسلام والسلام.»[٢] ومثل « قال ايوب بن سليمان : حدثنا ابان بن عيسى عن ابيه عن ابن القاسم قال: بينا سليمان بن داود ، عليهما السلام ، تحمله الريح اذ مرَّ بنسر واقع على قصر فقال له : كم الك مذ وقعت ههنا ؟ قال: ٧٠٠ سنة . قال : فمن بنى هذا القصر؟ قال : لا ادري هكذا وجدته . ثم نظر فاذا فيه كتاب منقور بابيات من شعر وهي :

خرجنا من قرى اصطخر الى القصر فقلناه
فمن يسألُ عن القصر فمبنياً وجدناه
فلا تصحب اخا السوء واياك واياه
فكم من جاهل اردى حكيماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء اذا ما المرء ماشاه
وفي الناس من الناس مقاييسٌ واشباه
وفي العين غنى للعين ان تنطق افواه »[٣]

والغريب — ولا بدَّ لنا انصافاً لابن عبد ربه من ذكره — انه في بعض الاحيان يقع على خبر غير معقول فينفي وقوعه ، قال:«ومات حنظلة بمدينة الرها فقالت فيه امرأة ، وحكي انه من قول الجن ، وهذا محال

يا عجب الدهر على محبوبة تبكي على ذي شيبةٍ شاحب »[٤]

ونرى ابن عبد ربه ايضاً لا يختلف كثيراً عن بعض مؤرخي العرب القدماء ، عند نقلهم الاخبار التاريخية ، في عدم تقديرهم للاسباب الحقيقية في كثير من

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٨٤
٢) ابن عبد ربه ١ : ١٩٧
٣) « « ١ : ٢٢٥
٤) « « ٢ : ٢٠٥

الحوادث المختلفة . من ذلك انه نقل ان سبب العداء بين قبيلتي بكر وتميم هو اجتماع تميم بن مرة وبكر بن وائل عند ملك من ملوك العرب ، ووقوع منازعة بينهما ومفاخرة انتهت بطلبهما من الملك سيفين يتجالدان بهما . فامر الملك فنُحت لهما سيفان من عود فجعلا يضطربان ملياً من النهار . فقال بكر بن وائل :

لو كان سيفانا حديدًا قطعا

فقال تميم بن مرة :

او نحتا من جندل تصدعا

وحال الملك بينهما فقال تميم لبكر :

اساجلك العداوة ما بقينا

فقال له بكر :

وان متنا نورثها البنين

ويقول ابن عبد ربّه : « فيقال ان عداوة بكر وتميم من اجل ذلك الى اليوم . »[١]

وهو قليل التدقيق في كثير من الامور التي يذكرها بحيث يورد في بعض الاحيان اخبارًا في موضع ، ثم يوردها بموضع آخر بصورة تناقضها تماماً دون اشارة الى انه قد لاحظ هذا التناقض . وقد ذكر في موضع ان معاوية مات وولده يزيد عنده[٢] . وعاد فذكر في موضع آخر ان يزيد كان غائباً حين مات والده[٣] . ويذكر ان عروة بن اذينة وفد على عبد الملك بن مروان وجرت له معه قصة مشهورة[٤] . والمعروف في هذه القصة انها جرت عند وفود عروة المذكور على هشام بن عبد الملك ، لا على عبد الملك ، كما ذكر ابن عبد ربه نفسه في موضع آخر[٥] . كذلك يذكر عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك انه سمي بالناقص

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٢٠ ٢) ابن عبد ربه ٢ : ٤
٣) 〃 〃 ٢ : ٤٢ ، وراجع ايضاً ٢ : ١٧٢
٤) 〃 〃 ١ : ٢٨٧
٥) 〃 〃 ٣ : ١٢٦ ؛ وانظر الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ج٢١ : ١٦٤ ، طبعة ليدن سنة ١٣٠٥ هـ .

لفرط كماله[1]. ويهمل ما هو مشهور من انه سمّي بالناقص لانقاصه الاعطيات. وذكر ان مدة ولايته شهر[2]، وفاته الالتفات الى ما نقله عن بعض الرواة في الكتاب نفسه ان ولايتـــه كانت خمسة اشهر واثني عشر يوماً[3]. وذكر في موضع[4] ابياتاً من الشعر وقال ان تمامها وقعت في الكتاب الذي افرده للمراثي؛ غير انه في كتاب المراثي لا يذكر الّا الابيات نفسها دون زيادة[5].

غايته الادبية

وظاهرة اخرى تبدو في العقد وهي ان غاية صاحبه ادبية قبل كل شيء. ولعلّ غايته هذه قد دفعت به الى اهمال الاسناد، وحببت له الاختصار والاختيار عند ذكره بعض الاخبـــار. وهذه الغاية مسؤولة فيما نرى عن كثير من نقط الضعف التاريخي في ذكر الاخبار التي نراها في العقد. قال: « وحذفت الاسانيد من اكثر الاخبار طلباً للاستخفاف والايجاز وهرباً من التثقيل والتطويل لانهـــا اخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها»[6] وقال ايضاً: « وتطلبت نظائر الكلام واشكال المعـــاني وجواهر الحكم وضروب الادب ونوادر الامثال ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه فجعلته باباً على حدته . . . وقصدت من جملة الاخبـــار وفنون الآثار الى اشرفهـــا جوهراً واظهرها رونقاً والطفها معنى واجزلها لفظاً واحسنها ديباجة واكثرها طـــلاوة وحلاوة. »[7]

ويرى القارئ ان ابن عبد ربه يقول بصراحة تامة ان غايته ادبية، وانه يلتفت الى اشرف الاخبار، واظهرها رونقاً، والطفها معنى، واجزلهـــا لفظاً بنظره. واذاً فكل الاخبار التاريخية التي لا تقع تحت هذا الجدول من العبارات مهملة في نظره لا يُعنى بها. زد الى ذلك مبدأه في حذف الاسناد والاختصار

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٠
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٣٣٧
٣) 〃 〃 ٢ : ٣٤٧
٤) 〃 〃 ١ : ٣٢٥
٥) 〃 〃 ٢ : ٨
٦) ابن عبد ربه ١ : ٢
٧) ابن عبد ربه ١ : ٢

وقد ذكر مرة في عقده توسّطه لدى بعض موالي السلطان بتخليص سجين ، فاهمل ذكر اسم المولى ، واسم السجين ، وسبب سجنه ، والبلدة التي سُجن فيها ، ولم يدوّن الّا الشعر الذي نظمه بعد ان اخفق في مسعاه[1] .

اعتداله

وهناك ناحية خاصة من نواحي عقلية ابن عبد ربه هي اعتداله في اكثر الابحاث التي طرق ابوابها في العقد ، واتباعه سبلاً خاصة شقّها لنفسه بين مذهبين متطرّفين بحيث لا يتقيد بمذهب طرف واحد . ولعلّ شيئاً من هذا قد اخذه عن استاذه بقي بن مخلد الذي ذكرنا انه قيل عنه « كان متخيراً لا يقلد احداً . »[2] فتراه اذا بحث في الدين مثلاً — وهو الفقيه — انكر عليك المروق منه وانكر الغلوّ فيه ، واتاك بحديث نبويّ : « ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق فان المنبت لا ارضاً قطع ولا ظهراً ابقى »[3] ، او نقل اليك كلام علي : « خير هذه الامة النمط الاوسط يرجع اليهم الغالي ويلحق بهم التالي »[4] . فهو يرى الدين بين الافراط والتقصير — خير الامور اوسطها — واذا قرأت ما دوّنه في باب الغلوّ في الدين[5] ترى هذه الطريق التي يسلكها جدّ واضحة . واذا بحث في امر السماع والشراب ابدى لك تساهلاً ندر ان يبديه فقيه ، واتاك باخبار عن القدماء واحاديث يذهب فيها الى تأييد وجهة نظره . وقد ذكرنا بعضها فيما سبق من هذا البحث[6] .

كذلك نرى اعتداله وتساهله عند بحثه في انشاد الشعر الغزلي في المسجد ، وكيف يأتينا بكثير من الشواهد على عدم انكار النبي والصحابة الاول له[7] .

ويذكر شعر عروة بن اذينة ، وهو من فقهاء المدينة وعبّادها ، وتشبيبه ، وقد وقفت عليه امرأة ، فقالت له : انت الذي يقال فيه الرجل الصالح وانت القائل :

---

١) ابن عبد ربه ١ : ١٠٧
٢) المقرّي ١ : ٥٩٠
٣) ابن عبد ربه ١ : ٢٥٠
٤) ابن عبد ربه ١ : ٢٥٠
٥) ابن عبد ربه ١ : ٢٤٩–٢٥٢
٦) راجع ايضاً ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٠–٢٢٢
٧) ابن عبد ربه ٣ : ١٢٥ و١٢٦

اذا وجدت اوار الحب في كبدي غدوت نحو سقاء الماء ابترد
هبني ابتردت ببرد الماء ظاهره ، فمن لنار على الاحشاء تتقدُ ؟

والله ما قال هذا رجل صالح .»[١] يذكر هذا الشعر وقول المرأة فينكر عليها تطرّفها في الامر واستنتاجها انه مراء ، ويرد عليها قائلا :« كذبت عدوة الله ، عليها لعنة الله . بل لم يكن مرائياً ولكنه كان مصدوراً فنفث . »[٢] ولعلّ ابن عبد ربه هنا كان يجهل ان المرأة هذه ، فيما تنصّ بعض المصادر ، هي سكينة بنت الحسين[٣].

ونلمس هذه الناحية من عقليته في كثير من المواضيع التي نثرت في العقد والتي ابدى فيها آراءه ملازماً خطة وسطى بين سبيلين متطرفين . وقد اشار الى حبه هذا التوسط في باب جامع الآداب من كتاب الياقوتة في العلم والادب قال :« وقد ادب الله نبيّه باحسن الآداب كلها فقال له : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً[٤] ، فنهاه عن التقتير كما نهاه عن التبذير وامره بتوسط الحالتين كما قال عزّ وجلّ : وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولم يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً »[٥].

ومع اننا نشتم من عقده شيئاً من النزعة الشيعية عنده ، فاننا لنراها شيعية معتدلة بين الشيعية المتطرفة وبين اخصام علي . وهو على كل حال لا يطعن الا بالمتطرّفين حتى انه في انكاره على بعض الشيعة تطرفها يلعن السبأية والمنصوّرية من الرافضة قال :« فاما الرافضة فلها غلوّ شديد في علي ذهب بعضهم مذهب النصارى في المسيح وهي السبأية اصحاب عبدالله بن سبا عليهم لعنة الله . . . وقد احرقهم علي رضي الله عنه بالنار .»[٦]

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٢٦ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٢٦

٣) الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ج ٢١ : ١٦٧ ، طبعة ليدن سنة ١٣٠٥ ﻫ — ومواسم الادب وآثار العجم والعرب للعلوي ج ٢ : ٨٣ مصر سنة ١٣٢٦ﻫ — ومصارع العشاق لابن احمد السراج ، طبعة القسطنطينية ، سنة ١٣٠١ ج ١٨ : ٢١٣

٤) سورة الاسرى (١٧) الآية ٣١

٥) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٠ ؛ وانظر سورة الفرقان (٢٥) الآية ٦٧

٦) ابن عبد ربه ١ : ٢٦٧

تشيّعه

وظاهرة أخرى نراها في العقد هي تشيّع صاحبه . ومن الخير ان نقيّد هذا التشيّع بنعتٍ فنقول : تشيّعه المعتدل . وغريبٌ ظهور مثل هذه النزعة في رجل من موالي بني اميّة الذين كانوا اكثر الناس بغضاً وكيداً لآل علي . وربما تزول دهشة الاستغراب من نفوسنا ، او يقـلّ اثرهـا ، اذا عرفنـا ان ابا الفرج الاصفهاني كان يتصل بنسبه الى بني اميّة ، الى مروان الأخير ، ومـع ذاك كان اكثر تشيّعاً لآل علي من ابن عبد ربه .

ولم تـكن هذه النزعة عند ابن عبد ربّـه من القوة او الشدة بحيث تظهر لاول وهلة في عقده . اذ قد تقرأ الفصول الطوال من العقد دون ان تشعر بها . ولعلّ غموضها هذا يفسر سكوت اكثر الذين ترجموا حياته عن ذكرها ، ويظهر ان هؤلاء لم يلاحظوها . غير اننا اذا قرأنا العقد وانعمنا النظر في هذه المواقف التي يذكر فيها علياً واولاده وآله نرى اثر هذه النزعة عنـده ، وندر ان يذكر علياً دون ان يلحق الاسم « برضي الله عنه » . ويـذكر خبر النزاع بين عليّ ومعاوية فيورد قصصاً واقوالاً كثيرة احتجّ بهـا علي واهله على انهم اصحاب الحق ولا يذكر وجهة نظر معاوية وجماعته في امر هذا الخلاف بينهم وبين علي وجماعته[1] . ويذكر روايات متعددة عن الحديث المنسوب الى النبيّ في ان عمّار ابن ياسر تقتله الفئة الباغية ــ وقد كان عمّار هذا من القوّاد في جيش علي في واقعة صفين وقد قتل فيها ــ ويضيف الى ذاك ان معاوية لمـا بلغه قتل عمار والحديث النبوي « لا يقتلك اصحابي ولـكن تقتلك الفئة الباغية » قال : « هم قتلوه لانهم أخرجوه . » غير ان ابن عبد ربه لا يسكت هنا بل يقول : « فلما بلغ ذلك علياً قال : « ونحن قتلنا ايضاً حمزة لاننـا اخرجناه . »[2] ويسهب عند ذكره احتجاج علي واهل بيته في الحكمين[3] ، واحتجاج علي على اهل النهروان[4] .

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٩٢ و ٢٩٣ ٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٨٩
٣) « « ٢ : ٢٩٢ ٤) « « ٢ : ٢٩٢

كذلك يورد حديثاً نبوياً عند ذكر قتل علي ان قاتل علي من اشد الناس عذاباً يوم القيامة[١] . ويذكر خبر الاختلاف بين علي وبين عبدالله بن العباس فيورد رواية تحمل على ابن العباس[٢]، ويذكر خبر حبّ ابي سفيان لعليّ ونشره الدعوة له[٣] . ويروي عن استاذه الخشني اخباراً في فضل الخلفاء الأُول فيخص علياً بالقسط الاوفر[٤] . ويخصص له في موضع آخر عند ترجمة حياة الخلفاء الراشدين باباً لذكر فضائله وذكر الاحاديث النبوية التي تستند اليها الشيعة في حقه[٥] . ويذكر ان الامام الحسن البصري كان ينكر على عليّ الحكومة ويقول لم يزل علي امير المؤمنين، صلوات الله عليه، مظفراً مؤيداً بالنعم حتى حكّم. ثم يقول: «ولم تحكِّم والحق معك الا تمضي قدماً لا اباك.» ويعلق ابن عبد ربه على هذا الخبر بقوله وهذه الكلمة (اي لا ابا لك) وان كان فيها جفاء فان بعض العرب ياتي بها على طبق المدح، ويورد امثلة على هذا[٦] . ثم يذكر مدح الامام هذا لعلي عندما اتهمه احدُهم ببغضه لعليّ فيقول : « فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال للرجل : « كان ابن ابي طالب سهماً صائباً من مرامي الله على عدوّه ورباني هذه الامة وذا سابقتها وذا فضلها وذا قرابة قريبة من رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، لم يكن بالنُّوَمة عن امر الله ولا بالملولة في حق الله ولا بالسروقة لمال الله اعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مرنقة واعلام بيّنة . ذلك علي ابن ابي طالب، يا لُكَع.»[٧] وعاد فاورد القصة نفسها بموضع آخر[٨] . كذلك ترى اثر هذه النزعة عند ابن عبد ربه في ذكره رثاء عائشة لعلي ومدحها اياه[٩] على ما عرف منها لعلي يوم الجمل . وروى في عقده ان معاوية قال يوماً لجلسائه « من اكرم الناس اباً واماً وجداً وجدّة وعماً وعمّة وخالاً وخالةً ؟ » فقالوا : امير المؤمنين اعلم . فاخذ بيد الحسن بن علي وقال :

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٩٨
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٩٧
٣) 〃 〃 ٢ : ٣٤٩
٤) 〃 〃 ١ : ٢٠٤–٢٠٥
٥) 〃 〃 ٢ : ٢٧٤–٢٧٥
٦) 〃 〃 ١ : ٢٠٧
٧) 〃 〃 ١ : ٢٠٥
٨) 〃 〃 ٢ : ٢٧٥
٩) ابن عبد ربه ١ : ٢٨٣ ؛ و ٢ : ٢٧٥

« هذا ابوه علي بن ابي طالب وامه فاطمة ابنة محمد وجده رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وجدته خديجة وعمه جعفر وعمته هالة بنت ابي طالب وخاله القاسم بن محمد وخالته زينب بنت محمد ، صلى الله عليه وسلم.»[١] وافرد بابًا خاصاً ذكر فيه تبرؤ علي من دم عثمان[٢] . وذكر قصصاً كثيرة في فضل فاطمة واورد احاديث منسوبة الى النبي في هذا الموضوع[٣] . واورد روايات في مدح الحسن والحسين منها : « لما حضرت الوفاة الحسن بن علي اوصى بان يدفن مع جدّه في ذلك الموضع .فلماً اراد بنو هاشم ان يحفروا له منعهم مروان ، وهو والي المدينة في ايام معاوية ، فقال ابو هريرة: علامَ تمنعه ان يدفن مع جدّه فاشهد لقد سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول: الحسن والحسين سيّدا شباب اهل الجنة . قال له مروان: لقد ضيّع الله حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، اذ لم يروه غيرك قال : انا والله لقد قلت ذلك لقد صحبته حتى عرفت من احبّ ومن ابغض ومن نفى ومن اقرّ ومن دعاله ومن دعا عليه .»[٤]

ويذكر في كتاب النسب شيئاً تحت عنوان فضل بني هاشم وبني امية يقول في اوله : «قيل لعلي بن ابي طالب اخبرنا عنكم وعن بني اميّة فقال: «بنو اميّة انكر وامكر وافجر» ونحن اصح وانصح واسمح .»[٥]

ويذكر في باب اخبار معاوية روايات عن تواعه مع علي منها :« قال معاوية يوماً لعمرو بن العاص ما اعجب الاشياء. قال: غلبة من لا حقّ له ذا الحق على حقّه . قال معاوية : اعجب من ذلك ان يعطى من لا حقّ له ما ليس له بحق من غير غلبة»[٦] .

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٤٠

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٧٠

٣) ابن عبد ربه ٢ : ٣

٤) ابن عبد ربه ٢ : ٢٥٢

٥) ابن عبد ربه ٢ : ٤٦

٦) ابن عبد ربه ٢ : ٢٠١وانظر ايضا ٢ : ١٤١

ويذكر في موضع آخر انه « لما مات الحسن بن علي حج معاوية فدخل المدينة واراد ان يلعن علياً على منبر رسول الله (صلعم) فقيل له ان ههنا سعد ابن وقاص ولا نراه يرضى بهذا . فابعث اليه وخذ رأيه . فارسل اليه وذكر له ذلك فقال: ان فعلت لأخرجن من المسجد ثم لا اعود اليه . فامسك معاوية عن لعنه حتى مات سعد فلما مات لعنه على المنبر وكتب الى عماله ان يلعنوه على المنابر ففعلوا . فكتبت ام سلمة زوج النبي (صلعم) الى معاوية: انكم تلعنون الله ورسوله على منابركم وذلك انكم تلعنون علي بن ابي طالب ومن احبه وانا اشهد ان الله احبه ورسوله . فلم يلتفت الى كلامها[١] .

واورد روايات في ذمّ الذين قتلوا آل علي[٢] . وفي الحوادث التي زعموا انها جرت ليلة قتله وقتل ابنه الحسين قال : « ان اناساً حدثوا بمجلس عبد الملك بن مروان انه فى الليلة التي قتل في صبيحتها علي ، وفي تلك التي قتل في صبيحتها الحسين ، لم يرفع حجر فى بيت المقدس الّا وجد تحته دمٌ عبيط »[٣] . وانه عندما انتهب عسكر الحسين وجد فيه طيب ما تطيبت به امرأة الا برصت[٤] . ويحمل على يزيد بن معاوية فيقول عند ذكر موته : « حتى مات يزيد لا رحمه الله[٥] » ، وينقل روايات كثيرة عن ابي الحسن والشعبي والرياشي في مدح علي وآله مثل : « اسلم علي وهو ابن خمس عشرة سنة ، وهو اول من شهد ان لا اله الا الله الخ . وان النبي قد قال فيه : « من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه » وانه قد قال له : « اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هرون من موسى غير انه لا نبيّ بعدي »[٦] . ومثل « كان علي بن ابي طالب رضي الله عنه يقسم بيت المال في كل جمعة حتى لا يبقي منه

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٣٠٠

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٣١٠

٣) ابن عبد ربه ٢ : ٣١٠

٤) ابن عبد ربه ٢ : ٣٠٩

٥) 〃 〃 ٢ : ٣١٢

٦) ابن عبد ربه ٢ : ٢٧٤-٢٧٥

شيئاً ثم يرشّ له ويقيل فيه » ومثل « قال النبي : الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة وابوهما خير منهما »[١] ومثل « انتقص ابن حمزة بن عبد الله بن الزبير علياً فقال له ابوه : يا بُني انه والله ما بنت الدنيا شيئاً الا هدمه الدين ومـا بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا . اما ترى علياً وما يظهر بعض الناس من بغضه ولعنه على المنابر فكانما والله يأخذون بنـاصيته رفعاً الى السماء. وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المـدح بين الناس فكانما يكشفون عن الجيف »[٢]

وعلى كل حال لم تكن هذه النزعة شديدة في نفس ابن عبد ربه فقد كان معتدلًا – كما ذكرنا – في تشيّعه ، وربما الافضل ان نقول في حبه آل علي ، ينعى على المتطرفين من اعداء علي واتباعه تطرّفهم قال :« وكان علي بن ابي طالب في هذه الامة مثل المسيح بن مريم في بني اسرائيل احبه قوم فكفروا في حبه وابغضه قوم فكفروا في بغضه .»[٣] لقد احبّ علياً واهـل بيته ولكنه لعن اصحاب عبد الله بن سبأ الذين غلوا في عليّ ، وذكر ان علياً احرقهم بالنار[٤]. ولا يأنف من ذكر مدح الناس لمعاوية واهله عندما يرى داعياً لذلك كأن يقول مثلاً واصفاً حلمه :« قيل للاحنف بن قيس من احلم انت ام معاوية قال : تالله ما رأيت اجهل منكم ان معاوية يقدر فيحلم وانا احلم ولا اقدر فكيف اقاس عليه او ادانيه »[٥] او واصفاً سؤدده :« نظر رجل الى معاوية وهو غلام صغير فقال اني اظن ان هذا الغلام يسود قومه فسمعته امه هند فقالت :« ثكلتـه اذًا ان لم يسد غير قومه.»[٦] ويصف حكمته[٧] ، ويذكر باباً في فضائله[٨] ، ويستنزل رضا الله عليه ورحمته في كثير من المواضع[٩].

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٧٥
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٤١ ؛ و٢ : ٢٠١
٣) 〃 〃 ٢ : ٢٧٥
٤) 〃 〃 ١ : ٢٦٧
٥) 〃 〃 ١ : ٢١٧ وانظر ١ : ٢٤
٦) 〃 〃 ١ : ٢١٩
٧) 〃 〃 ١ : ٢٧ و٣ : ١٤١
٨) 〃 〃 ٢ : ٢٩٩
٩) 〃 〃 ١ : ٣٩ و١٤٤ و١٤٥

والغريب بعد هذا كله ان نرى في نفح الطيب للمقّري ما يوهم ان ابن عبد ربه صاحب العقد قد وقف موقفاً عدائياً تجاه علي ، فقد ورد فيه ما نصه بالحرف : « قال ابو عبيد نزل القاضي منذر بن سعيد على ابي بطرطوشة وهو يومئذٍ يتولّى القضاء في الثغور الشرقية قبل ان يلي قضاء الجماعة بقرطبة فانزله في بيته الذي كان يسكنه . فكان اذا تفرغ نظر في كتب ابي فمرّ على يديه كتاب فيه ارجوزة ابن عبد ربه يذكر فيها الخلفاء ، ويجعل معاوية رابعهم ولم يذكر علياً فيهم . ثم وصل كذلك بذكر الخلفاء من بني مروان الى عبد الرحمن بن محمد . فلما رأى ذلك منذر غضب وسبّ ابن عبد ربه وكتب في حاشية الكتاب .

أوَ ما علي ، لا برحت ملعناً يا ابن الخبيثة ، عندكم بامام !
رب الكساء وخير آل محمد داني الولاء مقدم الاسلام .

قال ابو عبيد والابيات بخطه في حاشية كتاب ابي الى الساعة . »[1] وقد استند الى هذه الرواية السيد محمد شفيع في مقالته عن ابن عبد ربه وعن وصفه الحرمين في عقده المنشورة في كتاب عجب نامه[2] . فزعم ان قصائد ابن عبد ربّه صاحب العقد تمثل موقف الامويين العدائي تجاه علي . ولعل السيد شفيع قد تسرع في حكمه هذا حيث لم يُعرف عن صاحب العقد نزعة عداء لعلي . واظن ان السيد شفيع يسلّم معنا ان القصيدة او الارجوزة المذكورة شيء معروف بالاسم لا اثر منه لدينا سوى هذا الخبر . ولا ادري كيف يسوغ لنا الاستناد الى مثل هذا الخبر عن شعر غير معروف نصّه ونهمل الآثار الكثيرة التي بين ايدينا في عقد ابن عبد ربه نفسه في كل هذه المواضع التي ذكرنا وفي غيرها . بل اننا نرى في العقد نفسه ايضاً كتاباً خاصا في اخبار الخلفاء وتواريخهم يبدأ به بالنبي ثم يذكر الخلفاء واحدًا واحدًا حتى يأتي الى علي فلا يهمله ، بل يطيل فيه ، ويشيد بذكر فضائله ، ويسترزل رضى الله عليه حتى انه يرحم من كان من شيعته قال : وقال السيد الحميري رحمه الله .

اني ادين بما دان الوصيُّ به وشاركت كفه كفي بصفين[3]

---

١) المقّري ج ١ : ٥٨٦ ٢) شفيع : ٤١٧
٣) ابن عبد ربه ٢ : ٢٧٤–٢٧٥

ويصدّر ابن عبدربه الباب عن علي بعبارة « خلافة علي بن ابي طالب رضي الله عنه » ثم يقول : « لما قتل عثمان بن عفان اقبل النـاس يهرعون الى علي بن ابي طالب فتراكمت عليه الجماعة في البيعة فقال : ليس ذلك اليكم انما ذلـك لاهل بدر ليبايعوا ، فقال اين طلحة والزبير وسعد فاقبلوا فبـايعوا . ثم بايعه المهاجرون والانصار ثم بايعه الناس . »[1] ويرى القارئ ان لا لبس في هـذا الكلام فابن عبد ربه يحسب علياً خليفةً بعد عثمان ، ويذكر خبر البيعة له من اهل بدر والمهاجرين والانصار وعامة الناس . ومن الخير ان نلاحظ ان ابن عبد ربه قد اتبع علياً ، في بحثه عن اخبار الخلفاء وتواريخهم ، بابنه الحسن لا بمعاوية حيث نرى في الكتاب نفسه،بعد فراغ ابن عبد ربه من اخبار خلافة علي ، باباً جديداً في خلافة الحسن بن علي[2] يذكر فيه خبر مبايعة الناس له بعد ابيه وخبر صلحه مع معاوية مدة ولايته[3] . ويورد اخباراً في فضائل الحسن[4] نذكر منها ما يتعلق بمعاوية قال : « ولما بلغ معاوية موت الحسن بن علي خرّ ساجداً لله ثم ارسل الى ابن عباس ، وكان معه في الشام ، فعزّاه وهو مستبشر وقال له : ابن كم سنة مات ابو محمد ؟ فقال له : سنه كان يسمع في قريش فالعجب من ان يجهله مثلك . قال : بلغني انه ترك اطفالاً صغاراً . قال : كل ما كان صغيراً يكبر . ان طفلنا لكهل وان صغيرنا لكبير . ثم قال ما لي اراك يا معاوية مستبشراً بموت الحسن بن علي فوالله لا ينسأ في اجلك ولا يسد حفرتك وما اقل بقاءك وبقاءنا بعده »[5]

ولابن عبد ربه في عقده فصل في آخر كتاب المجنبة الثانية في التوقيعات يذكر فيه توقيعات الخلفاء ، فيه باب في توقيعات علي بن ابي طالب[6] ، ويتبع اسم علي بعبارة « كرّم الله وجهه »

وكم كنا نودّ لو كانت هذه الارجوزة المفقودة المنسوبة لابن عبد ربه والتي تفرّد فيما نعلم بذكرها المقري موجودة الآن علّنا نستطيع ان نكشف منهـا

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٧٤

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٩٨

٣) 〃 〃 ٢ : ٢٩٨

٤) 〃 〃 ٢ : ٢٩٨–٢٩٩

٥) 〃 〃 ٢ : ٢٩٨

٦) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٦

خبر صاحبها . اما وهي غير معروفة لدينا فانّا لا نستطيع تعيين ناظمها بالضبط انما لا ارى مانعاً يمنعنا من الظنّ – بعد ما قدّمنا من حب ابن عبد ربه لعلي – انها لرجل من آل عبد ربه غير صاحب العقد ، ولعلّها لابن اخيه ، او لاحد احفاده ، اللذين سيرد ذكرهما عند بحثنا عمّاً ينسب لصاحب العقد في الشعر الموشح . لاسيما وان المقري سواء أكان يتكلم بلسانه ام يروى عن غيره ، لم يكن يكتفي في اكثر المواضع بذكر « ابن عبد ربه » فقط بل كان يتبعه بـ «صاحب العقد » او يسبقه بـ «أحمد»[1] وكلتا اللفظتين غير موجودة في النصّ الذي يدور على الارجوزة .

وهناك مسألة ثانية هي ان طبعة اوربة لكتاب المقري ، وهي التي يرجع اليها السيد شفيع ، يختلف النصّ فيها عمّاً هو عليه في طبعة مصر حيث ترى « فمر على يديه كتابٌ فيه ارجوزة ابن عبد ربه يذكر فيه الخلفاء ويجعل معاوية[2] » الخ . وظاهر ان الضمير في « فيه » الثانية يعود الى الكتاب . عندئذٍ ليس من الضروري ان يكون هذا الكتاب لابن عبد ربه .

وشيء آخر عدا ما نقلنا عن المقري (وقد استند اليه ايضاً السيد محمد شفيع في زعمه ان قصائد صاحب العقد تمثل موقف الامويين العدائي تجاه علي) هو رواية في وفيات الاعيان لابن خلكان يشتم منها (اقول يشتم اذ لا صراحة ايضاً في الرواية تفسّر ما زعمه السيد شفيع) تعرّض صاحب العقد لعليّ او لآله . واظنّ من الخير ان اورد النصّ بحرفه قال :« وله (الضمير يعود الى ابن عبد ربه صاحبنا) من جملة قصيدة طويلة في المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الخ احد ملوك الاندلس من بني امية .

بالمنذر بن محمد   شرفت بلاد الاندلس
فالطير فيها ساكن   والوحش فيها قد انس

قال الوزير ابن المغربي في كتاب ادب الخواص وقد روي ان هذه القصيدة شقت عند انتشارها على ابي تميم معد المعزّ لدين الله وساءه ما تضمنته من

---

١) المقري ٢ : ٧٨١ و٨٢٣ ؛ و٤ : ٦٠٧ ؛ وطبعة اوربة I : ٢٢٧
٢) « طبعة اوربة I : ٨٠٨

الكذب والتمويه الى ان عارضها شاعره الايادي التونسي بقصيدته التي اولها:

ربع لزينب قد درس　　واعتاض من نطق خرس »[1]

وليلاحظ القارئ ما ذهبنا اليه من ان لا صراحة في النص تظهر كره ابن عبد ربه لآل البيت ويجوز ان يكون الكره (ان كان واقعاً حيث ان هذه القصيدة مفقودة ايضاً ولا نعلم مضمونها) موجهاً لاحد الفاطميين لسبب خاص لا نعلمه. ومن الخير ان نلاحظ هنا اختلاف الزمن بين المنذر بن محمد الذي قيلت فيه هذه القصيدة وبين المعزّ لدين الله الفاطمي؛ اما المنذر فقد تولى الامارة في الاندلس من سنة ٢٧٣ الى سنة ٢٧٥[2] ويجب ان تكون القصيدة قد نظمت سنة ٢٧٣ عند تولّي المنذر امارته. اما المعزّ لدين الله فقد تولى الخلافة الفاطمية سنة ٣٤١[3] اي بعد موت المنذر بنحو٧٠ سنة وبعد موت ابن عبد ربه بثلاث عشرة سنة واستمر حتى سنة ٣٦٥ ويستبعد ان لا تنتشر قصيدة فيها تعرّض لاشخاص معروفين او لمذاهب دينية عند من يهمهم امرها الا بعد انشادها او وضعها بلا اقل من سبعين سنة. على ما عرف من الاتصال بين افريقية والاندلس[4]

وعلى من ردّ الشاعر الايادي التونسي؟ اعلى ابن عبد ربه ثاوياً في قبره وقد انسلخ بعد نظمه هذه القصيدة لا اقلّ من سبعين حولًا؟

ونعجب كيف لم يلتفت الى هذا الامر ابن خلكان، بل نعجب كيف جازت هذه الرواية على السيد محمد شفيع.

واذاً فالرواية مشوشة لا نطمئن اليها. ونعود الى رأينا في انه يجوز ان

---

١) ابن خلكان ١: ٤٦　　٢) ابن عبد ربه ٢: ٣٦١

٣) E. Graefe : *Fatimids* [The Encyc. of Islam vol. 2, p. 89.]

٤) بعث القيرواني ينعي على ابن حزم تقصير اهل الاندلس في تخليد اخبار علمائهم ومآثرهم وفضائلهم يقول: «فان قلت انه كان مثل ذلك من علمائنا وألفوا كتباً لكنها لم تصل الينا فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق لانه ليس بيننا وبينكم غير روحة راكب او رحلة قارب لو نفث في بلدكم مصدور لاسمع من في بلدنا في القبور فضلًا عمن في الدور والقصور وتلقوا قوله بقبول كما تلقوا ديوان احمد بن عبد ربه الذي سماه بالعقد».

(المقرّي طبعة اوربة II : ١٠٩، وطبعة مصر ٢: ٧٦٧)

يكون هذا الرجل من آل عبد ربه، غير صاحب العقد، وانه نظم قصيدة سينية تعرّض فيها لهؤلاء الفاطميين عارضها شاعر المعز المذكور، ثم اختلط الامر على ابن خلكان فاخذه مغلوطاً فيه السيد شفيع.

ومن الخير ان نذكر هنا ان هناك روايات تشير الى مطاعنه في العباسيين ومدحه المروانيين لعلّ اصلها رواية القيرواني ابي عبيد الله في رسائل البلغاء.[1] يقول فيها «واما ابن عبد ربه الاندلسي . . . فقد صافتنا اشعاره ووقفنا على اشعار صبوته الانيقة وتكفيرات توبته الصدوقة ومدائحه المروانية ومطاعنه في العباسية فوجدناه في كل ذلك فارساً ممارساً وطاعناً مداعساً.»[2] وغني عن الذكر ان مدحه للمروانيين وطعنه في العباسيين لا يمنعان ان يكون ذا ميل شيعي معتدل. لاسيما اذا لاحظنا ذكره لبعض الروايات التي يظهر منها ان بني مروان لم يقصدوا الى التعرّض لآل البيت والكيد لهم، وان بعض زعماء الدعوة الشيعية من آل علي قد بايع عبد الملك بعد اخماد ثورة ابن الزبير وبعث اليه انهم عصابة لا تفارق الجماعة، وان عبد الملك بعث اليه والى جماعته ميثاقاً وعهداً ما وفوا ببيعتهم وكتب الى الحجاج ان لا يعرض لاحد منهم وكان في كتابه للحجاج: «جنّبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء من الحرب واني رأيت بني حرب سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن علي.»[3]

ولا بدّ لنا في ختام هذا الفصل من الاشارة الى ان هذه النزعة على اعتدالها وخفائها على اكثر المؤرخين لم تفت انتباه المؤرخ الامام الحافظ ابن كثير صاحب كتاب البداية والنهاية في التاريخ[4] فقد نقل حاجي خليفة عنه في كتابه كشف الظنون . . . ما نصه: «يقول ابن كثير انه يستدلّ من كلامه (الضمير يعود على ابن عبد ربه صاحب العقد) على تشيّع منه»[5]

هذا ولعلّ تشيّع ابن عبد ربه الذي درسنا من النوع المعروف «بالتشيّع الحسن.»

---

١) صفحة ٢٥١ طبعة دار الكتب الكبرى بمصر سنة ١٩١٣، بعناية محمد كرد علي.

٢) اقرأ ايضاً اعلام الكلام للقيرواني، طبعة الخانجي مصر ١٩٢٦؛ صفحة ٢٦ وحاجي خليفة، طبعة اوربة، ٦: ٢٣٢

٣) ابن عبد ربه ٢: ٢١٧

٤) حاجي خليفة ج ١: ١٨٧

٥) حاجي خليفة ج ٢: ١٢٤

نظره الى تاريخ الاندلس واقتصاره على قدر ضئيل منه

ذكرنا غير مرة ان اخبار ابن عبد ربه عن الاندلس قليلة الاهمية . ولعل الصاحب بن عباد قد انصف العقد ، عندما طلبه وقرأه وقال : « هذه بضاعتنا ردت الينا . ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من اخبار بلادهم ، وانما هو مشتمل على اخبار بلادنا . لا حاجة لنا فيه . »[1]

وغريب جداً ان يسكت ابن عبد ربه عن تصوير بعض النواحي من الحياة الاجتماعية والادبية في قرطبة زمنئذ ، وبالاخص في بلاط الامراء ، فلا يذكر الا اسماء امراء الاندلس من عبد الرحمن الداخل الى عبد الرحمن الناصر مع شيء قليل من ترجمات حياتهم . غير انه قد ترك لنا في عقده ارجوزة تاريخية في الانتصارات التي احرزها الخليفة عبدالرحمن الناصر على اعدائه في الاندلس ضمت ٤٤٥ بيتاً تكاد تكون من اقدم الاشعار العربية في الملاحم . ولقد وضعها على الطريقة التوقيتية بحيث ذكر فيها اخبار الغزوات سنةً فسنة ، مبتدئاً من سنة ٣٠٠ وانتهى بها الى سنة ٣٢٢ ، اي قبل موته بست سنوات . وقد حاولنا تعليل سكوته عن هذه الست سنوات عند بحثنا عن حياته . فليراجع هذا الامر هناك . غير انه فاتنا ان نشير الى اننا عثرنا في العقد على ما يفيد ان ابن عبد ربه نفسه اوقف الارجوزة عند سنة ٣٢٢[2] ، فليتنبه الى هذا .

وللارجوزة ابن عبد ربه قيمة تاريخية ثمينة من حيث ذكر الوقائع وزمن حدوثها واماكنها ، واسماء كثير من القواد الذين اشتركوا فيها من جانب العرب ، واسماء كثير من المدن والحصون التي سقطت بايديهم في السنوات المذكورة ، مع ذكر زمن موت بعض القواد . وربما اتى في الارجوزة على بعض الاخبار التي تهم المؤرخين للزمن الذي سبق وقائع الناصر ، كأن يقول مثلاً في خبر سقوط طليطلة سنة ٣٢٠

---

١) ياقوت ٢ : ٦٧ — وراجع القرآن ١٢ [يوسف] ٦٥ « ... قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ... »

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٢

فاذعنت وقبلهـا لم تذعن ولم تقـد من نفسها وتمكن
ولم تدن لربّهـا بدين ، سبعاً وسبعين من السنين (١

وتظهر الارجوزة وجهة نظر ابن عبد ربّه كمسلم يؤرخ وقائع النـاصر ، وموقفه ازاء اعداء الخليفة الاندلسيين لاسيا النصارى منهم . وسنعرض لهـذا الامر بمناسبة اخرى.

نزعته المغربية

ولئن كان هؤلاء العرب ومواليهم في المغرب يقلّدون المشارقـة في نهضتهم ويحذون حذوهم في علومهم وآدابهم ، فقد كانوا بالوقت نفسه يتعصبون لاقليمهم واهليه ، ويحاولون في بعض الاحيان اظهار ان ما عندهم من علم وادب لا يقل عما عند المشارقة ، وترى هـذه الظاهرة قوية في كتاب المقّري « نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب . . . » حيث خصّصت الفصول الطوال لتبيان مفاخر رجال الاندلس ، اذا قوبلوا باهـل المشرق ، وذكر انهم لا يقلّون عنهم من مختلف الوجوه.

اما ابن عبـد ربه فيختلف عن هؤلاء المؤلفين المغاربة في امر اظهار هذه النزعة . ولعلها لم تـكن قوية في نفوس رجال العلم ، زمن ابن عبـد ربه ، بينما نراها على اشدها في العصور التي تلته. زد على ذلك ان ابن عبد ربه لم يـكتب كثيراً عن الاندلس وتاريخها ورجالهـا من علماء وادباء وشعراء . فمن الطبيعي اذًا ان يصعب علينا معرفة قوّة هذه النزعة في نفسه ، وبالتـالي درس اثرها في عقده . ومهما يـكن من ذاك فانّا نرى ان ابن عبد ربه قد اظهر شيئاً من هذه النزعة في مقدمة عقده حيث قال :

« وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الاخبار في معانيها وتوافقه في مذاهبها وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا ان لمغربنا على قاصيته وبلـدنا على

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٧٦

انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور.»[1]

وتراه في كثير من المواضع في عقده، اذا ذكر شعراً لاحد المشارقة، اتبعه بشعر له كأن يقول مثلاً: «قال ابو زبيد في وصف الاسد» الخ. ثم يقول: «ومن قولنا في وصف الاسد ما هو اشبه به من هذا» الخ.[2] كذلك يذكر معارضته لصريع الغواني في قصيدته:

«اديرا عليّ الراح لا تشربا قبلي»

ويروي ابياته التي قالها على رويّها:

«أتقتلني ظلماً وتجحدني قتلي»

ثم يعقبها بقوله:

«فمن نظر الى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه لم يفضل شعر صريع عنده الا بفضل التقدم ولاسيما اذا قرن قوله في هذا الشعر:

كتمت الذي القى من الحب عاذلي   فلم يدر ما بي فاسترحت من العذل

بقولي في هذا الشعر:

واحببت فيها العذل حباً لذكرها   فلا شيء اشهى في فؤادي من العذل.»[3]

ويذكر اشعاراً للعباس بن الاحنف، ولجميل بن معمر، ولعمر بن ابي ربيعة، «في رقة التشبيب»، ثم يعقبها بشعر له يقدم له بقوله: «ومن قولنا في رقة التشبيب والشعر المطبوع الذي ليس بدون ما تقدم ذكره.»[4] ويقول في موضع آخر: «اعلم بانك متى نظرت بعين الانصاف وقطعت بحجة العقل علمت ان لكل ذي فضل فضله ولا ينفع المتقدم تقدمه ولا يضر المتأخر تأخره.»[5] وله شعر يفخر به على شعراء المشرق:

«هنا تفنى قوافي الشعر في هذا الرويّ
قوافٍ البست حلياً من الحسن البديّ
تعالت عن جرير، بل زهير، بل عديّ.»[6]

---

١) ابن عبد ربه ١: ٢
٢) ابن عبد ربه ٣: ١٦٢
٣) « « ٣: ١٧٥
٤) ابن عبد ربه ٣: ١٧٤
٥) ابن عبد ربه ٣: ١٧١
٦) ابن عبد ربه ٣: ٢٢٨

وله ايضاً في آخر قصيدة :

« هذه جملة امثال   فمن شاء فيحكي
ابطلت كل يمانيّ م وشاميّ ومكيّ » (١

ونرى ان اكثر هذه الامثلة تُفسّر ايضاً على اساس النزعة الشخصية . انما يجوز ايضاً ان يشتمّ منها شيء من النزعة الاقليمية .

ونرى ان ابن عبد ربه ، عند ذكره ترجمة الامراء الاندلسيين الذين تولوا الحكم حتى زمانه ، يجزل لهم المدح ويورد عنهم اخباراً في تبيان مفاخرهم . وقد ذكر خبر مدح ابي جعفر المنصور عبد الرحمن الداخل ، وتسميته اياه بصقر قريش ، وتفضيله اياه على معاوية وعبد الملك(٢) . ويذكر احدى غزوات الناصر المعروفة بغزاة المتناون التي افتتح فيها حصون كثيرة فيقول : « ولم يكن مثل هذه الغزاة لملك من الملوك في الجاهلية والاسلام . »(٣) كذلك يذكر جوده ويقول : « لم يعرف لاحد من الجاهلية والاسلام الا له وقد ذكرت ذلك في شعري الذي اقول فيه :

يا ابن الخلائف والعلى للمعتلي	والجود يعرف فضله للمفضل
نوّهت بالخلفاء بل اهملتهم	حتى كأن نبيلهم لم ينبل
اذكرت ، بل انسيت ما ذكر الاولى	من فعلهم ، فكأنه لم يفعل
واتيت آخرهم ، وشأوك فائت	للآخرين ، ومدرك للاول .
الآن سمّيت الخلافة باسمها	كالبدر يقرن بالسماك الاعزل
تأبى فعالك ان تقرّ لآخر	منهم، وجودك ان يكون لاول (٤

ولا بد لي من الاشارة الى ان هذه النزعة ـــ ان ثبت ان في نفس ابن عبد ربه شيئاً منها ـــ ليست من الاهمية بمكان كما أسلفنا ، حيث ان ابن عبد ربه لم يُعنَ كثيراً في تدوين اخبار بلاده ، بل ان هناك مَن حسبه مقصراً من هذه الناحية . كتب ابو علي الحسن التميمي القيرواني الى ابن حزم يذكر تقصير اهل الاندلس في تخليد اخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسير ملوكهم . ثم أتى

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٠٧   ٢) ابن عبد ربه ٢ : ٣٥٧
٣) « « ٢ : ٣٦٣   ٤) « « ٢ : ٣٦٣

على ذكر ابن عبد ربه وعقده فقال : « على انه يلحقه فيه بعض اللوم لاسيما اذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده ومناقب ملوكه يتيمة سلكه . اكثر الحزّ واخطأ المفصل واطال الهز لسيفٍ غير مقصل ، وقعد به ما قعد باصحابه من ترك ما يعنيهم واغفال ما يهمهم .»[1]

نظره كمسلم الى النصارى في الاندلس

ونتبين هذا من الاخبار القليلة التي دوّنها في عقده عن الانــدلس وتاريخ الامراء والخليفة عبد الرحمن الناصر الذي عاصره فيها ، ومن ارجوزته التاريخية في ذكر وقائع الخليفة المذكور . ويظهر من هذين المصدرين ان ابن عبد ربه كان شديد الحملة على النصارى ، اعداء المسلمين في الاندلس ، ينعتهم تارة باهل الشرك والكفرة والاعلاج ، وطورًا بالشياطين والكلاب والخنازير . ومن الخير ان ندلّ على ذاك بامثلة معينة . قال في ترجمــة الامير محمد : « وكان الامير محمد غزّاء لاهل الشرك والخلاف .»[2] وقال في ترجمة الامير المنذر بن محمد : « ثم غزا الى المارق الموتر عمرو[3] بن حفصون . . . فلم يجد الفاسق منفذًا ولا متنفساً .» وقال في موضع آخر : «فلما رأى الفاسق الفرصة انتهزها .»[4] وترى هذه النعوت كثــيرة في ارجوزته وشعره اللذين يمــدح الناصر فيهما ويذكر انتصاراته :

ماتَ النفــاقُ واعطى الكفرُ ذمته ، وذلّت الخيلُ الجامًا وأسراجا .
ادخلتَ في قبّة الاسلام مارقــة اخرجتها من ديار الشرك اخراجا .

---

١) المقري ٢ : ٧٦٢ ، وطبعة اوربة II : ١٠٩

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٠

٣) كذا في طبعة بولاق ، ولعلّ «الموتر» تصحيف «المرتد» راجع الطبعة الازهرية ٣ : ٢٠٦ ؛ اما عمرو فصوابها : عمر

٤) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦١

غـادرت في عقرتي جيّان ملحمـة ابكيت منها بارض الشرك اعلاجا .(١

وقال ايضاً :

ومن ابـاد الكفر والنفاقـا ، وشرّد الفتنة والشقاقـا .(٢

وقال في خبر اول غزاة :

ولم يزل حتى انتحى جيّانا ، فلم يـدع بارضهـا شيطانا .
ولم يـدع مريـة والجزيره ، حتى كوى اكلبها الهريره
فـايقن الخنزير، عنـد ذاك ، ان لا بقاء يرتجى هنـاك .(٣

وقال في خبر غزاة سنة ٣٠٦ :

ثم اقـاد الله من اعـدائه واحكم النصر لاوليائه .

الى ان يقول عن الناصر ويسميه بالامام :

ان احتمى للواحد القهـار وفاض من غيظٍ على الكفّار(٤

ويقول في خبر الغزاة نفسها عن اعداء الخليفة :

فـاقبل العلج لهم مفيشـا ، يوم الخميس ، مسرعاً حثيثا ،
بين يديه الرجل والفوارس وحوله الصلبان والنواقسُ .

ثم يقول :

ففاز حزب الله بالملجـان ، وانهزمت بطانة الشيطان .

ثم يذكر خبر قائدين من جيش النصارى ، ويرتكب خطأ فاحشاً في زعمه انهما اقسما بآلهة وثنية :

فاقسما بالجبت والطـاغوت لا يجزما دون لقاء الموت .(٥

ولعله كان يعلم ان النصارى لا تقسم بها ، انما قصد ذكر هـذا تحقيراً لها ولدينها .

ويقول في خبر غزاة بلده :

فاذعنت ولم تكن بمذعنه ، واستسلمت كافرة لمؤمنه .
فقدمت كفارها للسيف ، وقتلوا بالحق لا بالحيف .(٦

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٣
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٤
٣) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٦
٤) 〃 〃 ٢ : ٣٦٧
٥) 〃 〃 ٢ : ٣٦٨
٦) 〃 〃 ٢ : ٣٦٩

ويستمرّ على هـذا النحو من الكلام في كثير من المواضع في ارجوزته ، حتى يقول في غزوة سنة ٣١٢ وفتح ينباونه :

فكم بها وحولها من اغلفِ ... يجمي عليه دمع عين الاسقفِ !
وكم بها معزاء من كنائس ... بـدِّلت الأذان بالنواقس !
يبكي لها الناقوس والصليبُ ... كلاهما فرض له النحيبُ . (١

ويقول في موضع آخر :

عصابة من شيعة الشيطانِ ، ... عـدوّة لله والسلطانِ ،
فخرمت اجسادها تخرما ... واصليت ارواحها جهنما . (٢

ويقول في غزوة سنة ٣٢٠ :

صبرا الى المدينة اللعينـه ... اتعسها الرحمن من مدينـه !
مدينة الشقاق والنفـاق ، ... ومربد الفسّاق والمرّاق . (٣

وينتهي من ارجوزته بقوله :

ثم ثنى الامام من عنـانه ، ... وقد شفى الشجيَّ من اشجانه .
وامن القفار من انجاسهـا ، ... وطهّر البلاد من ارجاسها . (٤

نظره كمولى للعرب

في العقد كتاب هو « اليتيمة في النسب وفضائل العرب » ذكر فيـه ابن عبد ربه نسب قبائل العرب ، واورد باباً في فضلها أتى فيه على اقوال كثير من الناس من عرب وموال ، وقد كادوا يجمعون على الشهادة بفضل العرب . وبعد ان يفرغ ابن عبد ربه من ذكر انساب العرب من شماليين وجنوبيين ، يدوّن رأي الشعوبية — اهـل التسوية — وحجتهم في انهم متساوون مع العرب ، واستنادهم الى احاديث نبوية يقرنونها الى آيات من القرآن في معناها . قال :

« ومن حجّة الشعوبية على العرب ان قالت انا ذهبنـا الى العدل والتسوية وان الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد واحتججنا بقول النبي عليـه الصلاة والسلام : «المؤمنون اخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يدٌ على من سواهم .» وقوله في حجة

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٧٢
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٧٥
٣) 〃 〃 ٢ : ٢٧٦
٤) 〃 〃 ٢ : ٢٧٨

الوداع ، وهي خطبته التي ودّع فيها امته وختم نبوّته : « ايها الناس ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربي على عجمي فضلٌ الا بالتقوى . » وهذا القول من النبي عليه الصلاة والسلام موافق لقول الله تعالى « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (١ فاينم الا فخرًا وقلتم لا تساوينا . » (٢

ثم يعقب ابن عبد ربه هذه الاحاديث وما يوافقها من القرآن باقوال الشعوبية في تبيان مآثرهم ومفاخرهم وعلومهم وذمهم للعرب . ثم يعود فيورد ردّ ابن قتيبة عليهم ، ويعقبه بردّ الشعوبية على ابن قتيبة[٣] . ولا يفوته ان يرمي دلوه بين الدلاء فيقول :

« وما رأيت اعجب من ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب انه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية فنقض في آخره كل ما بنى في اوله ، فقال في آخر كلامه واعدل القول عندي ان الناس كلهم لاب وام خلقوا من تراب واعيدوا الى التراب . . . فهذا نسبهم الاعلى الذي يردع به اهل العقول عن التعظيم والكبرياء والفخر بالآباء . ثم الى الله مرجعهم فتقطع الانساب وتبطل الاحساب ، الا من كان حسبه التقوى او كانت مانته طاعة الله . » (٤

ولم نرَ في كل ما اورد ابن عبد ربه في باب الشعوبية (اهل التسوية) واقوالهم ، وردّ ابن قتيبة عليهم وتعليقه عليه ، ما يبين شيئاً صريحاً من وجهة نظر ابن عبد ربه في الامر . وجلّ ما نستطيع الجزم فيه هو انه ينقد مناقضة ابن قتيبة نفسه في مسألة تفضيل العرب على سواهم ليس الّا .

ويذكر ابن عبد ربه فصلاً في الكتاب نفسه في المتعصّبين للعرب اتى في اخره على قصة لا بأس في ان نوردها هنا ، لعلّ فيها ما يشير الى شيء من هذه الناحية في نفس ابن عبد ربه ، قال :

«قال ابن ابي ليلى : قال لي عيسى بن موسى، وكان ديّاناً شديد العصبية : من كان فقيه البصرة؟ قلت : الحسن بن ابي الحسن، قال : ثم من؟ قلت : محمد بن سيرين ، قال : فما هما؟ قلت : موليان .

---

١) القرآن : ٤٩ [الحجرات] ١٣ «يا أيّها النّاس انّا خلقناكُم مِن ذَكَرٍ وأنثى وجعلناكُم شُعُوباً وقبائلَ لِتَعارفُوا ان أكرمكُم عِندَ اللهِ أتقاكُم إنّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ . »

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٨٥

٣) ابن عبد ربه ٢ : ٨٥–٨٨

٤) ابن عبد ربه ٢ : ٨٩–٩٠

قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن ابي رباح ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وسليمان بن يسار . قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موال ! قال : فمن فقهاء المدينة ؟ قلت : زيد بن أسلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن ابي نجيح ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موال ! فتغيّر لونه ، ثم قال : فمن افقه اهل قباء ؟ قلت ربيعة الرأي ، وابن ابي الزناد ! قال : فما كانا ؟ قلت : من الموالي ! فاربدّ وجهه ، ثم قال : فمن كان فقيه اليمن ؟ قلت : طاوس ، وابنه ، وابن منبه ! قال : فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالي ! فانتفخت اوداجه فانتصب قاعدًا ! قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت : عطاء بن عبدالله الخراساني ! قال : فما كان عطاء هذا ؟ قلت : مولى ! فازداد وجهه تربّدًا واسودّ اسودادًا حتى خفته . ثم قال : فمن كان فقيه اهل الشام ؟ قلت : مكحول ! قال : فما كان مكحول هذا ؟ قلت : مولى ! قال فتنفس الصعداء . ثم قال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ (قال) فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتيبة وعمّار بن ابي سليمان ، ولكن رايت فيه الشرّ فقلت ابرهيم ، والشعبي ! قال : فما كانا ؟ قلت عربيّان ! قال : الله اكبر ! وسكن جأشه . » (١

ويختم ابن عبد ربه كتابه هذا في النسب بخبر عن اعرابي دخل على سوار القاضي فقال :

« ان ابي مات وتركني وأخًا لي ، وخطّ خطّين ؛ ثم قال : وهجينا ، ثم خطّ خطًا ناحية ، فكيف يقسم المال ؟ فقال له سوار : هنا وارث غيركم ؟ قال : لا ! قال : فالمال بينكم اثلاثا ! فقال : ما احسبك فهمت عني ؛ انه تركني واخي وهجينا فكيف يأخذ الهجين كما آخذ انا وكما يأخذ اخي ! قال : أجل ! فغضب الاعرابي » (٢

وروى في كتاب الياقوتة في العلم والادب قال :

«قال الحسن : حدثني ابي قال أمر الحجاج ان لا يؤمّ بالكوفة الا عربي . وكان يحيى بن وثاب يؤمّ قومه بني اسد ، وهو مولى لهم ، فقالوا : اعتزل . فقال ليس عن مثلي نهى ، انا لاحقٌ بالعرب . فابوا . فاتى الحجاج ، فقرأ . فقال : من هذا ؟ فقالوا : يحيى بن وثاب . قال : ما له ؟ قال : امرت ان لا يؤمّ الا عربيّ فنحاه قومه . فقال : ليس عن مثل هذا نهيت ، يصلي بهم . (قال) فصلى بهم الفجر ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، ثم قال : اطلبوا اماماً غيري انما اردت ان لا تستذلوني . فاما اذا صار الامر اليّ فانا لا اؤمكم ، لا ولا كرامة . »(٣

ومع انه قد يشتم شيء من ميل ابن عبد ربه الى تسوية المولى بالعربي فانا لا نستطيع ان نجزم بالامر ، لاسيما وان ابن عبد ربه في اكثر هذه المواضع ناقل راوٍ ليس الا . ولعلّ نظر العرب في الاندلس كان يختلف عن نظر العرب في المشرق الى الموالي ، من حيث المنزلة في الهيئة الاجتماعية .

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٩١   ٢) ابن عبد ربه ٢ : ٩٢

٣) 〃 〃 ١ : ٢٠٧

بعض نواحي خلقه وأثرها في العقد

عدم استنكافه عن ذكر بذيء اللفظ وسافل المعنى

وربما من الخير ان نشير هنا الى ما ألمحنا اليه ، عند بحثنا عن حياة ابن عبد ربه ، من امر وصف خلقه من بعض النواحي . اورد المقري قصة عن ابن عبد ربه وابي محمد يحيي القلفاط الشاعر ، اتى بها شاهداً على سرعة جواب اهل الاندلس نسكت عن ذكرها لما فيها من بذيء اللفظ يبديه كل من ابن عبد ربه وصاحبه هذا الذي كان يناظره . ويظهر من هذه القصة ان ابن عبد ربه لم يكن جميل الوجه والقامة ، بل كان آدر يدرم في مشيه ، فاتحاً بين ساقيه ، وكان اطلس اللحية ، وان القلفاط هزأ به ، ووصفه بصفة نسكت عن ذكرها . فاجابه ابن عبد ربه بما هو اقذع وامرّ . وفسد ما كان بينهما من روابط الصداقة والمحبة ، فصنع القلفاط قصيدةً في هجائه اولها :

يا عرس احمد اني مزمعٌ سفرا   فودّعيني سراً من ابي عمرا

ثم تهاجيا بعد ذلك . واتفق اجتماعهما عند بعض الوزراء . فسأل عن حاليهما فبدأ القلفاط مرتجلاً في هجو صاحبه ، وما ان اكمل البيت الاول حتى بدره ابن عبد ربه ببيت قاله مرتجلاً ايضاً على البحر والقافية ذاتها ، وهو غاية القصة صبَّ فيه جام هجوه مرّاً واقذعَ اشدَّ الاقذاع ، وابدى اسفل معنى . فانقطع القلفاط خجلاً[1] .

وترى اثر هذه الناحية من خلق ابن عبد ربه في عدم استنكافه عن ايراد الاخبار في عقده مما يغلب فيها بذيء اللفظ وسافل المعنى . وليس بلائق ان تذكر هنا هذه القصص ، فليراجع بعضها في مواضعها التالية[2]

ميله للتعرّض للغير

ولعلّ القارئ قد لمس شيئاً من ميل ابن عبد ربه للتعرّض لكثير من

---

١) المقري ٢ : ٨٢٢—٨٢٣

٢) ابن عبد ربه ٢ : ١١٩و١٢٠و١٢١و١٥٦ ؛ و٣ : ٢٠٢و٢٠٤و٢٠٥ و٤٢٥ و٤٣٠ و٤٣٤ و٤٣٥

الذين اخذ عنهم بشيء من الانتقاد . فلقد اخذ عن ابن قتيبة كثيراً مما كتبه في مؤلفاته ونقله الى عقده . غير انه لم يفته ان ينتقده وينعى عليه بعض مواقفه كأن يقول مثلاً : « ولم أرَ اعجب من ابن قتيبة في كتابه تفضيل العرب انه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب . ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبيــة فنقض في آخره كلَّ ما بنى في اوله . »[١] كذلك انتقد رأي ابن قتيبة في الاشربة وعنون انتقاده هذا بقوله : « مناقضة ابن قتيبة في الاشربة . » ثم ذكر مـــا يراه ابن قتيبة في الامر ، وردّ عليه بقوله : « وهذا الشاهد الذي استشهد به (يعني ابن قتيبة) . . . شاهد عليه لا شاهد له لان الناس . . . الخ »[٢] وردّ عليه في موضع آخر في الباب نفسه[٣] . وعارضه في موضع آخر ، قال : « قال ابن قتيبة لم يقل في التواضع بيت ابدع من قول الشاعر في بعض خلفاء بني امية[٤]

يغضي حياء ويغضى من مهابته   فلا يكلَّم الا حين يبتسم

واحسن منه عندي . . . »[٥]

وتعرّض للمبرّد عند ذكره بعض ما اخذه عنه ، وذمّه ، وندّد بما جمعه في الروضة وهزأ به ، وقال :

« ان المبرّد لم يختر لكل شاعر الا ابرد ما وجد له حتى انتهى الى الحسن بن هاني ، وقلما يأتي له بيت ضعيف لرقة فطنته وسبوطة بنيته وعذوبة الفاظه ، فاستخرج له من البرد ابياتاً ما سمعناها ولا رويناها ولا ندري من اين وقع عليها . . . وجلّ اشعاره الخمريات بديعة لا نظير لها فخطر بها كلها وتخطأها الى التي جانسته في برده فما احسبه لحقه هذا الاسم المبرّد الا لبرده . وقد تخير لابي العتاهية اشعاراً تقتل من بردها وشنفها وقرظها بكلامه فقـــال ومن شعر ابي العتاهية المستظرف عند الظرفاء المخيَّر عند الخلفاء قوله :

يا قرة العين كيف امسيت   اعزز علينـــا بما تشكيت

وقوله :

آه من وجدي وكربي   آه من لوعـــة حبي

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٨٩   ٢) ابن عبد ربه ٣ : ٤٠٩

٣) 〃 〃 ٣ : ٤٠٩

٤) المشهور ان هذا البيت من قصيدة للفرزدق في الامام زين العابدين . والغريب ان ابن عبد ربه لم يلتفت الى هذا الامر ولم ينتقد ابن قتيبة فيه . راجع زهر الآداب للحصري مصر ١٩٢٩ ج ١ ص ١٠٢

٥) ابن عبد ربه ١ : ١٥

مـا اشدّ الحبَّ يا سـبحانك اللهم ربّي .(١

وانتقد سيبويه في استشهاده ببيتين في كتابه اورد قافيتَيهما منصوبتين وخطّأه . ثم قال في آخر كلامه :« فما كان يضطر سيبويه ان ينصبهما ويحتال على اعرابهما بهذه الحيلة الضعيفة .»(٢) وخطأ المبرّد ايضاً في شرحه امرًا بالموضع نفسه .

ولقد تعرّض ايضاً لكثير من الاشخاص الذين اورد بعض الاخبار عنهم . وقد قال في الامرأة التي شكت في صلاح عروة بن اذينة :« كذبت عدوّة الله . عليها لعنة الله . بل لم يكن مرائياً ولكنه كان مصدورًا فنفث .»(٣)

كذلك نراه عند ذكره خبر مسير مسلم بن عقبة المرّي الى المدينة ، ودخوله اليها ، وتغلّبه على اهلها ، يقول في آخر هذا الخبر « ومات مسلم بن عقبة ، لا رحمه الله . ومضى حصين بن نمير بجيشه ذلك فلم يزل محاصرًا لاهل مكة حتى مات يزيد لا رحمه الله .»(٤)

وتعرّض للمختار فقال عنه :« ولم يكن صادق النيّة ولا صحيح المذهب . وانما اراد ان يستأصل الناس فلما ادرك بغيته ، اظهر للناس قبح نيّته .»(٥)

ولولعه بالتعرّض والنقد اكثر من الروايات التي فيها ذكرٌ لما أُخذ على الشعراء من الاخطاء ، وافرد لها باباً خاصاً(٦) . ووضع باباً آخر لما غلط فيه على الشعراء(٧) . وانتقد فيه هؤلاء الذين لم ينصفوا الشعراء بقوله « واكثر ما ادرك على الشعراء له مجاز وتوجيه حسن . ولكنّ اصحاب اللغة لا ينصفونهم وربما غلطوا عليهم وتأولوا غير معانيهم التي ذهبوا اليها .»(٨)

وافرد باباً للرقائق من الشعر لم يفته ان يستهلّه بالتعرّض لاكثر الناس قال : « وقد جبل اكثر الناس على سوء الاختيار وقلة التحصيل ، مع لؤم الغرائز وضعف الهمم . وقلّ من يختار من الصنائع ارفعها ويطلب من العلوم انفعها .»(٩)

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٨
٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٧١
٣) 〃 〃 ٣ : ١٢٦
٤) 〃 〃 ٢ : ٣١٣
٥) 〃 〃 ٢ : ٣١٩
٦) 〃 〃 ٣ : ١٥٥—١٦٢
٧) 〃 〃 ٣ : ١٧١
٨) 〃 〃 ٣ : ١٧١
٩) 〃 〃 ٣ : ٢٦٨

وذكر في الباب نفسه ـ ومن الخير ان نشير الى انه سمّى الباب باباً من الرقائق ، وهو بالواقع انتقاد الذين ما فرقوا بنظره بين الرقائق من الشعر وضعيفه ، اورد في الباب نفسه – نكرّر القول ـ ما يشفّ عن طبعه هذا الذي نصف ، قال :

« ونظير هذا من سوء الاختيار ما تخيّره اهل الحذق بالغناء والصانعون للالحان من الشعر القديم والحديث ، فانهم تركوا منه الذي هو ارقّ من الماء واصفى من رقة الهواء وكل مدنيّ رقيق قد غذي بماء العقيق وغنّوا بقول الشاعر :

فلا انسى حياتي ، ما عبدت الله لي ربّاً ،
وقلت لها : اتيليني ، فقالت: تعرف الذنبا ،
ولو تعلم ما بي لم ترَ الذنب ولا العتبا .

واقل ما كان يجب في هذا الشعر ان يضرب قائله خمسمائة ، وصانعه اربعمائة ، والمغني به ثلثمائة ، والمصغي اليه مائتين . » [1]

ويرى القارئ ايضاً باباً آخر في العقد عنونه المؤلف بـ « ما يعاب من الشعر وليس بعيب » [2] وذكر فيه اخباراً كثيرة من هذا النوع انتقد فيها الذين عابوا هذه الاشعار ، منها ما يشفّ ايضاً عن طبعه هذا وولعه بالانتقاد قال :

« ومما عيب من الشعراء [3] وليس بعيب ما يروى عن مروان بن الحكم انه قال لخالد ابن يزيد بن معاوية وقد استنشده من شعره فانشده :

فلو بقيت خلائف آل حرب ولم يلبسهم الدهر المنونا
لاصبح ماء اهل الارض عذباً واصبح لحم دنياهم سمينا

فقال له مروان : منونا وسمينا والله انها القافية ما اضطرك اليها الاّ العجز . وهذا مما لا عجز فيه ولا عابه احد في قوافي الشعر . وما ارى العيب فيه الا على من رآه عيباً . » [4]

وان القارئ يشعر بروح ابن عبد ربه هذه في كل تعليق يعلّقه على اخبار هذا الباب . وتعرض ايضاً لابي النجم الراجز وخطأه في موضع في وصف الخيل [5] وخطأ رؤبة ايضاً في الموضع نفسه (١ : ٦٤) وتعرّض لكثير من هؤلاء الذين أوّلوا بعض آيات القرآن على ما لا يروق له فخطأهم في التأويل . [6] وكذلك تراه

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٩
٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٤٤
٣) كذا ، ولعلّها « من الشعر »
٤) « « ٣ : ١٤٥
٥) ابن عبد ربه ١ : ٦٤
٦) « « ٣ : ٣٢٣

في تعليقه على كثير من الاخبار التي اوردها في كتاب الياقوتة الثانية في الالحان مما يتعلق بامر اختلاف الناس في الغناء[1].

ويظهر ان ابن عبد ربه كان مولعاً بوجه عام في المعارضة سواء أكان فيها انتقاد ام لم يكن . وقد كان في كثير من شعره الذي ذكره في العقد معارضاً لشعراء تقدّموه فترى مثلاً « ومما عارضت به صريع الغواني في قوله . . . »[2] او « ومن قولنا في رقة التشبيب والشعر المطبوع الذي ليس بدون ما تقدم ذكره »[3] ، او يذكر ابياتاً لاحد الشعراء في وصف البين ثم يعقبها بقوله « ومن قولنا في البين »[4] او يذكر ابياتاً في قول العرب في الحمام يتبعها بشعره في الموضوع نفسه .[5] ولقد ذكر في هذا الباب — باب مقاطع الشعر ومخارجه — كثيراً من شعر القدماء في مواضيع متعددة ، دون ان يهمل القاء دلوه وذكر شعره في كل من هذه المواضيع دون استثناء[6] . ولعلّ القارئ لا يزال يذكر ان كتاب ابن عبد ربه العقد نفسه لولا قليل لكان معارضة لكتاب ابن قتيبة « عيون الاخبار » . ولم يفت ابن عبد ربه ان ينتقد بعض كتب المؤلفين التي رجع اليها في مقدمة عقده حيث قال :

« وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الاخبار ولا جامعة لجمل الآثار فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لاكثر المعاني التي تجري على افواه العامة والخاصة وتدور على السنة الملوك والسوقة . » (٧

ميله للدعابة والفكاهة والنوادر والقصص

وكان في طبعه، فيما يظهر لنا ، ميل للدعابة والمزح والفكاهة .وقد أثر هذا الميل فيما نقله في عقده عن اخبار المتقدّمين من ناحية نوعها وطريق سردها ، فترى فيه كتاباً خاصاً في الفكاهات والملح فرش لداره بما يأتي :« هي

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٠و٢٢١و٢٢٢ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٥

٣) 〃 〃 ٣ : ١٧٤ — وراجع بهذه المناسبة ابن عبد ربه ١ : ٢٥، ٣٠، ٣٦، ٤٢، ٤٢، ٦٠، ٦٦، ٦٧، ٦٨ الخ .

٤) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٢ ٥) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٣

٦) 〃 〃 ٣ : ١٧١—١٨٧ ٧) 〃 〃 ١ : ٢

نزهة النفس وربيع القلب ومرتع السمع ومجلب الراحة ومعدن السرور »
واستشهد بعد هذا الفرش بالنبي العربي وعلي ورجال الاسلام الاول وغيرهم على صحة ما ذهب اليه ، كأن يورد مثلاً « قال النبي : روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة » ، او « قال النبي : يدخل عثمان الجنة ضاحكاً لانه كان يضحكني » ، او « قال ابن اسحق : وقد طرب الصالحون وضحكوا ومزحوا » ، او « وفي بعض الكتب المترجمة ان يوحنا وشمعون كانا من الحواريّين وكان يوحنا لا يجلس مجلساً الا ضحك واضحك من حوله ، وكان شمعون لا يجلس مجلساً الا بكى وابكى من حوله . فقال شمعون ليوحنا ما اكثر ضحكك كانك قد فرغت من عملك . فقال له يوحنا ما اكثر بكاءك كأنك قد يئست من ربك . فاوحى الله الى المسيح ان احبّ السيرتين اليّ سيرة يوحنا . »

ويرى القارئ في هذا الكتاب كثيراً من القصص الشائقة التي يظهر ان ابن عبد ربه قصد الى الفكاهة في تدوينها ، لا الى التاريخ . من هذه القصص قصة عن العباس بن الاحنف ، واخرى عن المجرّد (وهب الشاعر) ، واخرى عن يوم دارة جلجل ، واخرى عن دعبل وصريع الغواني . وهناك قصص متعددة قصيرة عن الرشيد وجواريه وشعرائه كابي نوّاس وغيره ، وفيه قصة عن عمر بن ابي ربيعة مع ابي مسهر العذري ، واخرى طويلة عن اسحق الموصلي والمأمون وكيف تمّ زواج الاخير ببوران . وهناك قصة الناسك الذي كان له سمن في جرّة معلقة واخذ يبني بخياله قصوراً فاثرى وتزوّج وصار اباً ، واخذ يؤدّب ابنه وقال كذا بعصاه ، فكسر الجرّة وتحطمت الآمال والمنى .

وان في هذا الكتاب لمجموعة من القصص تشبه من كثير من النواحي القصص المعروفة في كتاب الف ليلة وليلة . بل ان قصة اسحق الموصلي والمأمون قد وردت في كلا المصدرين : العقد ، والف ليلة وليلة . وتتفق اكثر هذه القصص مع قصص الف ليلة وليلة من ناحية بذاءة اللفظ وسفالة المعنى . ولعلّ ابن عبد ربه ، من هذه الناحية ، واحد من قدماء المؤلفين في العربية الذين جمعوا قصصاً من عصور مختلفة ودوّنوها في كتاب واحد .

وقد ذكر ابن عبد ربه في هذا الكتاب شيئاً من النوادر لاسيما نوادر

اشعب ، وهي قصص صغيرة . وجعل في الكتاب ايضاً باباً خاصاً عنونه بالمضحكات اكثرها قد دار على لفظ بذيء او معنى سافل . ومنها ما نستطيع ان نرويه بشيء من التردد . وغايتنا في روايتها اطلاع القارئ على نوع النكتة في بعض هذه المضحكات :

« (الزبير) قال حدثنا بكار بن رباح قال : كان بمكة رجل يجمع بين الرجال والنساء ويحمل لهم الشراب . فشكي الى عامل مكة فنفاه الى عرفات . فبنى بها منزلاً وارسل الى اخوانه فقال : ما منعكم ان تعاودوا ما كنتم فيه ؟ قالوا : واين بك وانت في عرفات ؟ قال : حمار بدرهم ، وقد صرتم على الامن والنزهة . ففعلوا فكانوا يركبون اليه حتى فسدت احداث مكة . فاعادوا شكايته الى والي مكة فارسل اليه فاتي به فقال : يا عدوّ الله ، طردتك فصرت تفسد في المشعر الحرام . قال : يكذبون عليّ ، اصلح الله الامير ! فقالوا : اصلحك الله ! الدليل على صحة ما نقول ان تأمر بجميع حمير مكة ، فترسل بها امناء الى عرفات فيرسلوها فان يهتدوا الى منزله دون المنازل كعادتها فنحن غير مبطلين . فقال الوالي : ان في هذا لدليلاً وشاهداً عدلاً . فامر بحمير من حمر مكة التي للكراء فأرسلت فصارت الى منزله كانها بها عليه دليلُ . فاعلمه بذلك امناؤه . فقال : ما بعد هذا شيء ، جرّدوه . فلما نظر الى السياط قال : لا بدّ اصلحك الله من ضربي ؟ قال : نعم ، يا عدوّ الله . قال : والله ما في ذلك شيء هو اشدّ عليّ من ان يشمت بنا اهل العراق ويضحكون منا ويقولون اهل مكة يجيزون شهادة الحمير . (قال) فضحك الوالي وخلّى سبيله . » (١

ولم يقتصر امر الفكاهات والملح على هذا الكتاب الخاصّ ، بل قد تعدّاه الى كتاب آخر هو الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين . وظاهرٌ من موضوع هذا الكتاب ان المسحة التي ستغلب فيه انما هي مسحة المزاح والفكاهة . ولقد فرش ابن عبد ربه لدار هذا الكتاب بقوله :

« فان اخبارهم حدائق مونقة ورياض زاهرة لما فيها من طرفة ونادرة فكانها انوار مزخرفة او حلل منشرة دانية القطوف من جاني ثمرها قريبة المسافة لمن طلبها . فاذا تأملها الناظر واصغى اليها السامع وجدها ملهى للسمع ومرتعاً للنظر وسكناً للروح ولقاحاً للعقل وسميراً في الوحدة وانيساً في الوحشة وصاحباً في السفر وانيساً في الحضر . » (٢

واورد في هذا الكتاب نوادر كثيرة من الخير ان نذكر بعضها ليرى القارئ نوع الفكاهة التي كان يرغب في تدوينها قال :

« ادّعى رجلٌ النبوّة بالبصرة فاتي به سليمان بن عليّ مقيّداً . فقال له : انت نبيّ مرسل ؟ قال : اما الساعة فاني مقيّد . قال : ويحك من بعثك ؟ قال اجذا يخاطب الانبياء ، يا ضعيف ،

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٤٤٨

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٤٠٢

والله لولا اني مقيّد لامرت جبريل يدمدمها عليكم. قال : فالمقيّد لا تجاب له دعوة ؟ قال : نعم ! الانبياء خاصة اذا قيّدت لم يرتفع دعاؤها . فضحك سليمان فقال له : انا اطلقك وامر جبريل فان اطاعك امنّا بك وصدقناك. قال : صدق الله فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم. فضحك سليمان ، وسأل عنه فشهد عنده انه ممرور فخلّى سبيله . » (١

وقال :

« اخذ رجل ادّعى النبوّة ايام المهدي فادخل عليه فقال له : انت نبي ؟ قال : نعم ! قال : والى من بُعثت ؟ قــال أوَ تركتموني اذهب الى احدٍ ؟ ساعة بعثت وضعتموني في الحبس . فضحك منه المهدي وخلّى سبيله . » (٢

وهناك قصة لا بأس بذكرها ايضاً على سبيل التمثيل على نوع الفكاهة في هذا الكتاب ، ونريدك ان تلاحظ ايضاً ما قد يشتم فيها من الـدعوة لحبّ آل عليّ :

« (العتبي) قال : سمعت ابا عبد الرحمن بشرًا يقول : كان في زمن المهدي رجل صوفي ، وكان عاقلًا عالمًا فيجدّ ليجـد السبيل الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان يركب قصبة في كل جمعة يومين الاثنين والخميس فاذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكم ولا طاعة. فيخرج ويخرج معه الرجـال والنساء والصبيان . فيصعد تلًا وينـادي باعلى صوته : ما فعل النبيّون والمرسلون أليسوا في اعلى عليّين ؟ فيقولون : نعم. قال : هاتوا ابا بكر الصديق . فأخذ غلام فأجلس بين يديه. فيقول : جزاك الله خيرًا ، ابا بكر ، عن الرعية. فقد عدلت وقمت بالقسط وخلفت محمدًا عليه الصلاة والسلام في حسن الخلافة، ووصلت حبل الدين بعد حلّ وتنازع وفرغت منه الى اوثق عروة واحسن ثقة . اذهبوا به الى اعلى عليّين . ثم ينادي : هاتوا عمر . فأجلس بين يديه غلام . فقـال : جزاك الله خيرًا ، ابا حفص ، عن الاسلام قد فتحت الفتوح ووسّعت الفيء وسلكت سبيل الصالحين وعدلت في الرعية. اذهبوا به الى اعلى عليّين بحذاء ابي بكر . ثم يقول : هاتوا عثمان . فاتي بغلام فاجلس بين يديه . فيقول له : خلطت في تلك السنين ، ولكن الله تعالى يقول خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا عسى الله ان يتوب عليهم . ثم يقول اذهبوا به الى صاحبيه في اعلى عليّين . ثم يقول : هاتوا علي ابن ابي طالب . فاجلس غلام بين يديه فيقول : جزاك الله عن الامـة خيرًا ، ابا الحسن ، فانت الوصي ووليّ النبي بسطت العدل وزهدت في الدنيا واعتزلت الفيء فلم تخمش فيه بناب ولا ظفر. وانت ابو الذرّية المباركة وزوج الزكيّة الطاهرة . اذهبوا بـه الى اعلى عليّين الفردوس . ثم يقول : هاتوا معاوية . فأجلس بين يديه صبيّ. فقال له : انت القاتل عمار ابن ياسر وخزيـمة بن ثابت ذا الشهادتين وحجر بن الادبر الكندي الذي اخلقت وجهـه العبادة . وانت الذي جعل الخلافة ملكًا واستأثر بالفيء وحكم بالهوى واستبطر بالنعمة .

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٠٥ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٠٥

وانت اول من غيّر سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقض احكامه وقام بالبغي. اذهبوا به فاوقفوه مع الظلمة . ثم قال: هاتوا يزيد . فاجلس بين يديه غلام . فقال لــه : يا قوّاد إنت الذي قتلت اهل الحرّة وابحت المدينة ثلاثة ايام وانتهكت حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآويت الملحدين وبؤت باللعنة على لسان رسول الله . . . وتمثّلت بشعر الجاهلية

ليت اشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الاسل

وقتلت حسيناً وحملت بنات رسول الله . . . سبايا على حقائب الابل . اذهبوا بــه الى الدرك الاسفل من النار . ولا يزال يذكر والياً بعد والٍ حتى بلغ الى عمر بن عبــد العزيز فقال : هاتوا عمر . فاتي بغلام فاجلس بين يديه . فقال : جزاك الله خيراً عن الاسلام فقد احييت العدل بعد موته وألنت القلوب القاسية وقــام بك عمود الدين على ساق بعــد شقاق ونفاق . اذهبوا به فالحقوه بالصدّيقين . ثم ذكر مَن كان بعده من الخلفاء الى ان بلغ دولة بني العباس فسكت . فقيل له : هذا ابو العباس امير المؤمنين . قال : فبلغ امرنــا الى بني هاشم . ارفعوا احساب هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعاً .» (١

ويرى القارئ في كلا الكتابين قصصاً كثيرة في الفكاهة والمزاح كثر فيها قبيح اللفظ وسافل المعنى . وليس هنا موضع البحث في ما تمثله هــذه القصص من روح مجتمعات القوم في تلك العصور حتى زمن ابن عبد ربه ، وميلهم الى الفكاهات التي كانت تصطبغ بمثل هذه المعاني والالفاظ البذيئة ، ولم تخلُ كتب العقد الاخرى من ملح ونوادر وفكاهات نثرها ابن عبد ربه هنا وهناك ، او تعليقات ظهر فيها ميله للفكاهات والنكتة كتعليقه الذي ذكرنا فيما سبق على شعر ضعيف: واقل ما يقال في هذا الشعر ان يضرب صاحبه كذا وراويه كذا الخ . ولعلنا سنعرض لشيء من ميل ابن عبد ربه هذا ، عنــد بحثنا عن شعره وفنّ الهجو فيه .

مسحته الادبية

لا جدال في ان اقوى ظاهرة تبدو في العقد هي مسحته الادبيــة . وان القارئ يشعر بهذه المسحة في كل كتب العقد . ولعلّ ابن عبد ربه قد قصد الى هذا الامر اذ يظهر من قوله في مقدّمة عقده انه اعتنى في ان يكون كتابه مجموعة من متخيّر جواهر الاداب ومحصول جوامع البيان وقــد رأيناه لا يعنى

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٠٩

كثيرًا بالاسناد لان اخباره فيما يقول « اخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها. » ورأينا كذلك انه عمد الى اختصار أخباره « طلباً للاستخفاف والايجاز ، وهرباً من التثقيل والتطويل » ، وانه يفتخر في انه احسن الاختصار واجاد الاختيار: « وقصدت من جملة الاخبار وفنون الآثار الى اشرفها جوهرًا واظهرها رونقاً والطفها معنى واجزلها لفظاً واحسنها ديباجة واكثرها طلاوة وحلاوة آخذًا بقول الله تبارك وتعالى : الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » . وقد اشرنا في بحثنا عن قيمة العقد التاريخية ان غاية صاحبه قبل كل شيء ادبية . ولعله لم يجمع هذه الفنون المختلفة في عقده — حتى كاد يكون دائرة معارف مختصرة لعلوم عصره — الا لانه كان يرى ذلك من شروط الادب ، اورد في عقده ما يأتي :

« فان كان لا بد لك من طلب ادوات الكتابة فتصفح من رسائل المتقدمين ما يعتمد عليه ومن رسائل المتأخرين ما يرجع اليه ومن نوادر الكلام ما تستعين به ومن الاشعار والاخبار والسير والاسماء ما يتسع به منطقك ويطول به قلمك وانظر في كتب المقامات والخطب ومجاوبة العرب في حروبهم ومعاني العجم (كذا) وحدود المنطق وامثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم ووقائعهم ومكايدهم في حروبهم بعد ان تكون متوسطاً علم النحو والغريب والوثائق والسور وكتب السجلات والامانات » ١)

وروى في عقدة قال :

« قال عبدالله بن مسلم بن قتيبة من اراد ان يكون عالمًا فليطلب فنًا واحدًا ومن اراد ان يكون اديباً فليتفنن في العلوم » ٢)

وقد وفق ابن عبد ربه في تحقيق غايته ، وسبق الكثيرين ممن بحثوا قبله في هذه الناحية نفسها ، وامتاز على بعضهم بالوضوح وسهولة المأخذ ، وعلى غيرهم بالترتيب والتنسيق ، وعلى عمومهم في ان كتابه كان جامعاً لاكثر علوم عصره ان لم يكن كلها . وهذا يظهر لاول وهلة لمن يطالع جدول الكتب التي ضمها العقد . ناهيك في انّ الصبغة الغالبة في اكثر هذه الكتب انما هي صبغة الادب كما كانوا يفهمونه يومذاك ، فكتابه في الاجواد ، وكتابه في الوفود ، وكتابه

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢١٠ ، ولاحظ ورود ذكر « المقامات » قبل زمن بديع الزمان ، وقبل ابن دريد . وقارن قراءة هذه القطعة بما ورد في صفحة ٧ من الرسالة العذراء لابرهيم بن المدبر، طبع دار الكتب بالقاهرة ١٩٣١، نشر الدكتور زكي مبارك . ٢) ابن عبد ربه ١ : ١٩٦

في مخاطبة الملوك ، وكتابه في العلم والادب ، وكتابه في الامثال ، وكتبه الاخرى في المواعظ والزهد ، والتعازي والمراثي ، وكلام الاعراب ، والخطب ، وفضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ، والفكاهات والملح ، كل هذه غلب فيها البحث في آداب العرب عموماً واشعارهم بنوع خاصّ ، حتى كتبه التي تبحث في التاريخ والاجتماع والموسيقى لا تخلو من فوائد ادبية كثيرة.

وفي العقد ما لا يقلّ عن عشرة آلاف بيت من الشعر لاكثر من مئتي شاعر من العصر الجاهلي والاموي والعباسي . وربما يصعب ان تذكر شاعراً معروفاً لا ترى عنه خبراً او نتفاً من شعره استشهد بها ابن عبد ربه لمناسبة ما. فالنابغة ، وامرؤ القيس ، وطرفة ، والاعشى ، وحسان ، ولبيد ، وزهير ، وعنترة ، والمهلهل ، وعديّ ، وابوذؤيب ، وغيرهم من العصر الجاهلي ؛ وجرير ، والاخطل ، والفرزدق ، وابن ابي ربيعة ، وجميل ، وكثيّر ، وذو الرمّة ، ونصيب ، والمجنون ، والاحوص ، والعرجي ، وغيرهم من عصر الراشدين وبني امية ؛ وبشار ، ومروان بن ابي حفصة ، وابو نواس ، والبحتري ، وابو تمام ، وابو العتاهية ، ومسلم بن الوليد ، وغيرهم من العصر العباسي ؛ كل هؤلاء قد ذكر عنهم اخباراً كثيرة ونوادر ، وروى لهم شعراً كثيراً . ناهيك بما ذكره لغير هؤلاء من المشهورين وغير المشهورين وبنوع خاص لابن عبد ربه نفسه ، فان في العقد اكبر مجموعة شعرية من شعر ابن عبد ربه الذي لم يفقد مع ما فقد في ديوانه. هذا من حيث رواية الشعر واخبار الشعراء . اما من حيث وصف المجالس الادبية والخطب والرسائل فحدّث ولا حرج . ففي العقد كتاب خاصّ ، جعله الواسطة بين جواهر العقد ، ذكر فيه عيون الخطب ، وهو يحقّ من خير المصادر لمراجعة بعض خطب المتقدّمين . زد على ذلك خطب الوفود واقوالهم ، والرسائل المتبادلة بين ناس وناس ، وبنوع خاصّ هذه الرسائل التي تبودلت بين علي ومعاوية والتي ان صحّت نسبتها اليها لتدلّ على ان فنّ انشاء الرسائل الطويلة قد تقدّم عصر عبد الحميد الكاتب ومعلّمه . ففي الرسائل ترسّل واسهاب ، وكنت اودّ لو يتسع المجال لذكر بعضها ، فلتراجع في موضعها[1].

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٨٤

ومن الخير ان نذكر هنا ايضاً ما في العقد من قصص ونوادر وحكايات اشرنا الى بعضها في بحثنا عن شيء من نواحي خلقه، جمعها ابن عبد ربه من مصادر شتى، فيما يظهر، وجعل اكثرها في كتابين واحد للمتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين، وآخر للفكاهات والملح. ونرى ان هذين الكتابين من اقدم المجموعات العربية للقصص والنوادر.

كذلك للعقد قيمة ادبية من حيث النقد الادبي. ففيه فصول في النقد نقل بعضها ابن عبد ربه عن الشيباني وغيره من الادباء القدماء يجدر بعلماء النقد الوقوف عليها، منها مثلاً ما يجب ان يأخذ الكاتب به نفسه في صناعة الكتابة:

« فتخير من الالفاظ ارجحها لفظاً واجزلها واشرفها جوهراً واكرمها حسباً واليقها في مكانها واشكلها في موضعها. فان حاولت صنعة رسالة فزن اللفظة قبل ان تخرجها بميزان التصريف اذا عرضت وعاير الكلمة بمعيارها اذا سنحت. فانه ربما مرّ بك موضع يكون مخرج الكلام اذا كتبت: انا فاعل، احسن من ان تكتب: انا افعل، وموضع آخر يكون فيه استفعلت احلى من فعلت. فادر الكلام على اماكنه وقلبه على جميع وجوهه فاي لفظة رأيتها في المكان الذي ندبتها اليه فانزعها الى المكان الذي اوردتها عليه واوقعها فيه. ولاتجعل اللفظة قلقة في موضعها نافرة عن مكانها فانك متى فعلت هجنت الموضع الذي حاولت تحسينه وافسدت المكان الذي اردت اصلاحه. فان وضع الالفاظ في غير اماكنها وقصدك بها الى غير مصابها انما هو كترقيع الثوب الذي لم تشابه رقاعه ولم تتقارب اجزاؤه وخرج من حد الجدة وتغير حسنه... كذلك كلما احلولى الكلام وعذب وراق وسهلت مخارجه كان اسهل وارجى في الاسماع واشدّ اتصالاً بالقلوب واخفّ على الافواه لاسيما ان كان المعنى البديع مترجماً بلفظ مونق شريف ومعايراً بكلام عذب لم يسمه التكليف بميسمه ولم يفسده التعليق باستهلاكه » (١

ومنها:

« وقد رأيتهم شبَّهوا المعنى الخفي بالروح الخفي واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر. واذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ولا النظام متسقاً وتضاءل المعنى الحسن تحت المعنى (كذا) القبيح كتضاؤل الحسناء في الاطمار الرثة. وانما يدل على المعنى اربعة اصناف: لفظ واشارة وعقد وخط. » (٢

وقد نرى في العقد نوادر واخباراً عن الرواة الذين اخذ عنهم كثيراً من

---

١) ابن عبد ربه ٢: ٢١٦ ٢) ابن عبد ربه ٢: ٢١٧

اخبار العرب وشعرائها يندر الوقوع عليها في كثير من كتب الادب المختلفة . وقد عني صاحب العقد في كثير من الامور التي عُني بها بعض هؤلاء الرواة . فاذا بلغه مثلاً ان الاصمعي روى: « لم اجد في شعر شاعر بيتاً اوله مَثل وآخره مثل الا ثلاثة ابيات » — احدهما للحطيئة وآخر لامرئ القيس — يذكر الرواية في عقده والشعر ثم يعلق على الخبر بقوله: « ومثل هذا كثير في القديم والحديث، ولا ادري كيف اغفل القديم منه الاصمعي فمنه قول طرفة . . . ومن ذلك قول الآخر . . . الخ »[1]

وفي العقد كتاب هو الجوهرة في الامثال[2] فيه مجموعة كبيرة لامثال العرب، قد رتبت وصنفت وبوّبت حسب اقسامها الرئيسية. فترى في اول الكتاب هذا: امثال النبي العربي، يليها امثال روتها العلماء، ثم امثال اكثم بن صيفي وبزرجمهر الفارسي ، ثم « امثال العرب » عامة . وترى في باب الامثال التي روتها العلماء امثالاً تحت العناوين التالية « مَن ضُرب به المثل من الناس » ، « من يُضرب به المثل من النساء » ، « ما تمثلوا به من البهائم » ، « ما ضرب به المثل من غير الحيوان » . وتجد تحت العنوان الاول مثلاً « أسخى من حاتم ، واشجع من ربيعة بن مكلم ، وانكى من قيس بن زهير، واعزّ من كليب بن وائل الخ »[3] . ومن الخير ان ندوّن هنا ان القسم الاخير من جوهرته هذه ، اي باب « ومن امثال العرب » ، وهو القسم الاكبر في الجوهرة ، قد اخذه فيما يقول عن رواية ابي عبيدة . واذا رجعنا الى الفهرست[4] نرى ان بين الكتب التي وضعها ابو عبيدة كتاباً اسمه « كتاب الامثال » . فلا يبعد ان يكون هو الكتاب الذي رجع اليه ابن عبد ربه . وقد ذكر ابن عبد ربه انه جرّد هذه الامثال من الآداب التي ادخل فيها ابو عبيدة ، وضمّ الى امثلة العرب القديمة ما جرى على السنة العامة من الامثال المستعملة ، وفسّر من ذلك ما احتاج الى التفسير[5] . ومن الخير ان نذكر ايضاً ان الامثال هذه مصنّفة بحسب مواضيعها وهي تقع

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٥٢
٢) ابن عبد ربه ١ : ٢٢٧
٣) « « ١ : ٢٣٠
٤) ابن النديم ١ : ٥٤ و٥٥
٥) « « ١ : ٢٢٢

في نحو مئتي موضوع. فترى مثلاً في موضوع «القصد في المدح»: «من حفنا او رفنا فليقتصد»، «لا تهرف بما لا تعرف»، «شاكه ابا يسار من دون ذا ينفق الحمار». او في موضوع «حمية القريب وان كان مبغضاً»: «آكل لحمي ولا ادعه يؤكل»، «لا تعدم من ابن عمك نصراً»، «كفّ منك وان كانت شلّاء» الخ. ويظهر لنا ان هذا التبويب مأخوذ عن ابي عبيدة، اذ ترى من سياق ذكر ابن عبد ربه لهذه الامثال ما يدلّ على ذاك، قال: «قال ابو عبيدة من امثالهم في الحلم اذا نزل الشرّ فاقعد... ومنه قول الآخر: الحليم مطيّة الجهول. وقولهم: لا ينتصف حليم من جاهل، وقولهم: أخر الشر فان شئت تعجلته. وقولهم الخ.»[1]

وفي العقد كتاب خاص عن اعاريض الشعر وعلل القوافي، فيه ارجوزة من نظم ابن عبد ربه لا بأس بها من حيث نظم قواعد العروض والمامه بها. وهي تفيد من يرغب في درس العروض. وقد اتبع ابن عبد ربه الارجوزة بامثلة على ٦٣ ضرباً من ضروب العروض من شعره. وجعل المقطعات، فيما يقول، رقيقة غزلة ليسهل حفظها على السنة الرواة. وضمن في آخر كل مقطعة منها بيتاً قديماً متصلاً بها وداخلاً في معناها من الابيات التي استشهد بها الخليل في عروضه، لتقوم به الحجة لمن روى هذه المقطعات واحتجّ بها.[2]

وفيه ارجوزة عن مآثر الخليفة الناصر في حروبه أشرنا اليها عند بحثنا عن قيمة العقد التاريخية وذكرنا انها تكاد تكون من اقدم الشعر القصصي الذي يدور على الملاحم...

ولم يكن ابن عبد ربه اول من نظم الشعر العربي في بعض وقائع التاريخ فقد تقدمه شعراء المشرق في جاهليتهم واسلامهم ولكنهم لم يقصروا قصائدهم على وقائع التاريخ، بل ذكروا فيها فخرهم وحبهم وغير ذاك. كذلك لم يطيلوا في الشعر الذي ذكرت فيه وقائع تاريخية مثل ما اطال ابن عبد ربه؛ لا نستثني الا ابن المعتزّ، فقد سبق ابن عبد ربه بالزمن وشاركه بطول القصيدة

---

١) ابن عبد ربه ١: ٣٤١ ٢) ابن عبد ربه ٣: ١٨٨

واقتصارها على موضوع واحد عام. ولعلّ ابن عبد ربه قد اخذ شيئاً عن ارجوزة ابن المعتز، لاسيما اذا لاحظنا ان اول ابيات ابن عبد ربه تكاد تشبه من حيث المعنى اول ارجوزة ابن المعتز[1]. ومن يقرأ الارجوزتين يشعر ان ابن المعتز صاحب القسط الاوفر من الفضل والتقدم في هذا المضمار.

كذلك يصدق على قيمته الادبية ما ذكرنا في قيمته التاريخيــة من امر الرجوع الى العقد عند نشر الكتب التي اخذ عنها صاحبه، والكتب التي استقت من المصادر التي استقى منها ابن عبد ربه نفسه، وضبط الاشعار، والتعرّف على مختلف الروايات التي تروى عليها.

ولا بد لي من ذكر فضل صاحبــه في التبويب والتصنيف، واجتهاده في ان تقع اكثر موادّ عقده تحت المواضيع التي تلائمها بحيث امتاز على الكثيرين من الذين سبقوه الى هذا الامر وطرقوه قبله.

وهناك في العقد ما له قيمة ادبية وتاريخيــة بالوقت نفسه، ألا وهو بحث ابن عبد ربه او جمعه لبعض الامور في اصطلاحات الكتّاب، واصول المخابرات الرسمية، وتضمين الاسرار في الكتب. فكأن عمله من هــذه الناحية نواة صغيرة لما كتبه في صبح الاعشى ابو العباس القلقشنــدي. ولا بأس في ان نذكر لمن يهمهم الاطلاع على هذا الامر بعض الامثلة: قال في باب «ما يجوز في الكتابة وما لا يجوز فيها»:

«قال ابراهيم بن محمد الشيباني اذا احتجت الى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتّاب والخطباء والادباء والشعراء واوساط الناس وسوقتهم فخاطب كلًّا على قدر ابهته وجلالتــه وعلوه وارتفاعه وفطنته وانتباهه واجعل طبقات الكلام على ثمان (كذا) اقسام منها الطبقات

---

1) راجع ديوان ابن المعتز (طبع في مطبعة المحروسة بمصر ١٨٩١) — ج ١ : ١٢٦، وقابل بين ارجوزته هذه في المعتضد وارجوزة ابن عبد ربه في الجزء ٢ من عقده ص ٢٢٦ ترَ وجه الشبه بين الارجوزتين من حيث اللفظ في

الحمد لله على آلائه   احمده، والحمد من نعمائه

يقابلها عند ابن عبد ربه :

فالحمد لله على نعمائه   حمدًا جزيلًا وعلى آلائه

ومن حيث المعنى في اتفاقهما بذكر الفوضى التي سبقت حكم كلّ من الخليفتين : المعتضد العباسي، والناصر الاندلسي.

العليّة اربع ، والطبقات الاخر وهي دونها اربع لكل طبقة منها درجـة ولكل قسمة لا يبغي للكاتب البليغ ان يقصر باهلها عنها ويقلب معناها الى غيرها . فالحد الاول الطبقات العليا وغايتها القصوى الخلافة . . . والطبقة الثانية لوزرائها وكتابها . . . والطبقة الثالثـة امراء ثغورهم وقواد جنودهم . . . والرابعة القضاة . . . واما الطبقات الاربع الاخر . . . ولكل طبقـة من هذه الطبقات معانٍ ومذاهب يجب عليك ان ترعاها في مراسلتك اياهم في كتبك فتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه وتعطيه قسمه وتوفيه نصيبه فانك متى اهملت ذلك واضعته لم آمن عليك ان تعدل بهم عن طريقهم وتسلك بهم غير مسلكهم . . . فان الباسك المعنى وان صح وصرف لفظاً متخلفاً على قدر المكتوب اليه لم تجرِ به عاداتهم تهجين للمعنى واخلال بقدره وظلم بحق المكتوب اليه ونقص ما يجب له . كما ان في اتباع تعارفهم وما انتشرت به عاداتهم وجرت بهم سنتهم قطعاً لعذرهم وخروجاً من حقوقهم وبلوغاً الى غاية مرادهم واسقاطاً لحجة ادبهم . فمن الالفاظ المرغوب عنها والصدور المستوحش منهـا في كتب السادات والملـوك والامراء على اتفاق المعاني مثل ابقاك الله طويلاً وعمرك ملياً وان كنـا نعلم انـه لا فرق بين قولهم اطال الله بقاك وبين قولهم ابقاك الله طويلاً ولكنهم جعلوا هذا ارجح وزناً وانبه قدراً في المخاطبة كما انهم جعلوا اكرمك الله وابقاك احسن منزلاً في كتب الفضـلاء والادباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتمال . . . وكذلك لم يجيزوا ان يكتبوا بمثـل ابقاك الله وامتع لك الا في الابن والخادم المنقطع اليك واما في كتب الاخوان فغير جائز بـل مذموم مرغوب عنه . » [١]

وذكر ايضاً نماذج من استهلال الكتب التي تكتب الى خليفـة ، او الى ولي عهد ، او الى والي شرطة ، او الى قاض الخ منها : (صدور الى خليفة) : « وفق الله امير المؤمنين بالظفر فيما قلده وايده واصلح به وعلى يديه . . . » ومنها : (صدور الى ولي عهد) : « متع الله امير المؤمنين بطول مدة الامير واجرى على يديه فعل الجميل وآنس بولايته المؤمنين » . . . ومنها : (صدور الى والي شرطة) : « انصف الله بك المظلوم واغاث بك الملهوف وأيدك بالتثبت ووفقك للصواب . . . » [٢] وقد ذكر في تضمين الاسرار في الكتب اموراً اوردها كلها القلقشندي [٣] .

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢١٢ ، راجع الرسالة العذراء ص ١٠–١٤ ، ويرى القارئ ايضاً ان اكثر ما ذكره ابن عبد ربه في صناعة الكتابة والنقد موجود فيها

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٤٤

٣) قابل ابن عبد ربه ٢ : ٢١٨ ، بالقلقشندي ٩ : ٢٢٩–٢٣٠

قيمة العقد من حيث علوم الدين وشرائعه

لقد كان ابن عبد ربه فقيهاً ، كما علمنا ، فلا غرو اذا ظهرت آثار هذه الثقافة الفقهية في عقده . ففيه اخبار كثيرة عن الائمة المختلفين الذين تقدموه وشيء كثير من اقوالهم واحكامهم وفتاويهم في بعض المسائل ، واختلافهم في بعض امور الدين . وترى مثلاً فوائد كثيرة في بحثه عن الخمر وآراء الائمة في ذاك واختلافهم في حدّها ، وفيما اذا كانت محرّمة العين كما حرّمت عين الخنزير ، او حرّمت لعرض دخل لها ، فاذا زايلها ذلك العرض عادت حلالاً . واحتجاج المحرّمين لقليل النبيذ وكثيره ، واحتجاج المحلّين للنبيذ كله . وترى ايضاً في الباب نفسه تعليقات لابن عبد ربه ربما اقتبسها عن ائمة سبقوه منها :

« واما منافعها (يعني الخمر) التي ذكرها الله تعالى في قوله : « يسالونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما » ، فانها كثيرة لا تحصى فمنها انها تدرّ الدم وتقوي المعدة وتصفي اللون وتبعث النشاط وتفتق اللسان ما اخذ منها بقدر الحاجة ولم يجاوز المقدار . فاذا جاوز ذلك عاد نفعها ضرراً . » ١)

ويحس القارئ في مطالعته هذا الباب الذي يدور على الاشربة تساهل ابن عبد ربه — وهو الفقيه — في امر شرب النبيذ ودعوته من ناحية خفية الى تناول شيء منه :

« قالوا : ولولا ان الله تعالى حرّم الخمر في كتابه لكانت سيدة الاشربة . وما ظنك بشراب الشربة الثانية منه اطيب من الاولى والثالثة اطيب من الثانية حتى يؤديك الى ارفق الاشياء وهو النوم . وكل شراب سواها فالشربة الاولى اطيب من الثانية والثانية اطيب من الثالثة حتى تمله وتكرهه » . . . — و « سقى قوم اعرابياً كؤوساً ثم قالوا : كيف تجدك ؟ قال : اجدني اسرّ واجدكم تحسنون اليّ » — و « قالوا ما حرّم الله شيئاً الا عوضنا ما هو خير منه او مثله وقد جعل الله النبيذ عوضاً من الخمر نأخذ منه ما يطيب النفس ويصفي اللون ويهضم الطعام » ٢) — و « قالوا في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كل خمر مسكر هو ما اسكر الفرق منه فملء الكف حرام هذا كله منسوخ نسخه شربه للصلب يوم حجة الوداع » ٣) — و « دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوم يشربون ويوقدون في الاخصاص . فقال :

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٤١٢
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٤١٢
٣) « « ٣ : ٤١٥

نهيتكم عن معاقرة الشراب فعاقرتم وعن الايقاد في الاخصاص فاوقدتم. وهمَّ بتأديبهم. فقالوا: يا امير المؤمنين نهاك الله عن التجسّس فتجسست ونهاك عن الدخول بغير اذن فدخلت فقال: هاتان بهاتين. وانصرف وهو يقول: كل الناس افقه منك يا عمر؛ وانما نهاهم عن المعاقرة وادمان الشراب حتى يسكروا ولم ينههم عن الشراب ... ولو كان عنده ما شربوا حراماً لحدّهم.» (١ – « واحتجوا من جهة النظر ان الاشياء كلها حلال الا ما حرّم الله قالوا: فلا تزيل نفس الحلال بالاختلاف ولو كان المحللون فرقة من الناس فكيف وهم اكثر الفرق؟ واهل الكوفة اجمعون على التحليل لا يختلفون فيه وتلوا قول الله عزّ وجل: قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل: الله اذن لكم ام على الله تفترون.» (٢

ويرى القارئ ايضاً فوائد كثيرة في بحث ابن عبد ربه عن « الالحان »، واختلاف الائمة والفقهاء في امرها، وآراء المتقدمين من رجال الاسلام الاول فيها. ولا يفوت ابن عبد ربه ايضاً اظهار ميله الى السماع، وافتاؤه كفقيه بانه حلال.

ويتضمن العقد عدداً ليس بقليل من الاحاديث النبوية يجدر بعلماء الحديث مراجعتها ومقابلتها مع احاديث النبي العربي في الكتب المختلفة. وفيه ايضاً طائفة كبيرة من اخبار قدماء الائمة واصحاب المذاهب واقوالهم وآرائهم وتفسير بعضهم لبعض آيات القرآن. ومن يقرأ كتاب الياقوتة في العلم والادب يدرك ان قسماً كبيراً منه يدور على اقوال الائمة المتقدمين واصحاب المذاهب كالحسن البصري، وعلي، وعبدالله بن مسعود، والاوزاعي، والزهري، والشيباني، وسفيان الثوري، وسعيد بن المسيب، ومالك بن أنس، وغيرهم، اقوال وآراء لا بدّ لطالب الفقه الاسلامي من الوقوف عليها. وفي هذا الكتاب ايضاً باب في الغلوّ في الدين، وبحث في القول في القدر، وردّ المأمون على الملحدين واهل الاهواء. ثم القول في اصحاب الاهواء من رافضة وغيرهم. في كلها فوائد لها قيمتها. كذلك قد نثر ابن عبد ربه فوائد اخرى تتعلق في الموضوع نفسه في كتاب الجوهرة في الامثال، وكتاب المواعظ والزهد، وكتاب فضائل الشعر، وكتاب الوفود وغيرها.

زد على ذلك ان العقد لا يخلو من بعض روايات واقوال لها صلة بامور

---

١) ابن عبد ربه ٣: ٤١٦

٢) ابن عبد ربه ٣: ٤١٦

الدين والفقه اخذها ابن عبد ربه عن اساتذته في المغرب: الخُشَني ، وابن وضاح، وبقي بن مخلد ، الذين سبق لنا ان ذكرنا شيئاً عن مكانتهم.

وقد كان ابن عبد ربه مالكي المذهب ، شأن اكثر مسلمي الاندلس في ذلك الزمن ، وقد ذكر انتسابه الى هذا المذهب عند ذكر اسمه في اول صفحة بالعقد قبل الفهرس والمقدمة.

وربما من الخير ان نشير هنا الى ما ذكرناه عن اعتدال ابن عبد ربه ليس فيما يتعلق بامور الدنيا فحسب ، بل فيما له مساس بالدين ، فلتراجع هناك.

ما دسّ في العقد بعد صاحبه

لم يسلم العقد مما اصاب كثيراً من الكتب العربية القديمة من حيث دس الاخبار فيها بعد ان يكون قد قضى اصحابها . ذلك ان اصحاب كثير من الكتب الخطية كانوا في بعض الاحيان يضيفون في اواخر كثير من فصولها او ابوابها اخباراً جديدة تتعلق بالموضوع ، او قد لا تتعلق به ، وشروحاً لبعض ما في المتون. ثم تمرّ الايام ، وينسخ بعض هذه الكتب ، فتدخل الزيادة في الاصل ، ويثبت الشرح في المتن ، ويختلط الامر على المتأخرين ، فينسب كل ما في النسخة الخطية الى المؤلف.

من هذا ما وقع فيه ناشرو الطبعات التي بين ايدينا لكتاب العقد في مصر، فقد اعتمدوا ، فيما يظهر لنا ، على نسخة خطية دُسّت فيها جملة كثيرة من الاخبار . فاثبتوا الاصل والزيادة في طبعاتهم ، دون ان ينتبهوا الى الامر او يشيروا اليه . والغريب ان بعض هذه الاخبار المدسوسة كانت ظاهرة لا يحتاج امر اكتشافها الى كثير من العناء او التدقيق . فانك اذا قرأت العقد ترى انه قد ترجم فيه في كتاب اليتيمة الثانية[1] لاربعة خلفاء من بني العباس هم الراضي ، والمتقي ، والمستكفي ، والمطيع . وكلهم توفي بعد وفاة ابن عبد

---

١) ابن عبد ربه ٣: ٥٩-٦٠

ربه اي بعد سنة ٣٢٨ ﻫ . وترى في ترجمة الاخير انه قد خلع نفسه سنة ٣٦٣ﻫ[1]. اي بعد موت ابن عبد ربه ﺑ ٣٥ سنة . ولا بدّ من الاشارة الى ان اوّل من سبق فنبّه الى دسّ اخبار هؤلاء الخلفاء المتأخرين هو العلّامة Theodor Nöldeke في كتابه *Die Ghassânischen Fürsten aus dem Hause Gafna's.* ، هامش الصفحة ٥٥ ، وقد ذكر ان هذه الاخبار لم ترد في مخطوطتي العقد في München وفي Vienna .

ولم نكتفِ في وقوفنا على الدسّ في هذا الباب . بل دفعنا الامر الى مراجعة الباب كلّه والنظر فيه ، فاذا هو يستهلّ بعبارة « فرش ذكر خلفاء بني العباس وصفاتهم ووزرائهم وحجابهم . »[2] وهي المرة الوحيدة التي تستعمل فيها كلمة « فرش » في اول بابٍ ما ، اذ ان استعمالها في العقد كلّه واقع في اوائل الكتب ، لا في اوائل الفصول والابواب . وقد نبه الى ذلك ابن عبد ربه نفسه في المقدمة حيث قال « وقد الفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الاداب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب . وانما لي فيه تأليف الاختيار وحسن الاختصار وفرش لدور كل كتاب . »[3] زد على ذلك انه ليس في الباب هذا فرش كما في اوائل الكتب ، وانما هو ذكر للفرش ليس الا ، حيث نرى ان الباب يبدأ بابي العباس السفاح دون توطئة او تمهيد ، او «فرش» كما اصطلح ابن عبد ربه ان يقول.

وبحثنا في فرش اليتيمة الثانية نفسها نطلب ذكر هذا الباب فلم نرَ لذلك اثرًا . وكل ما في الفرش من هذه الناحية هو: «قد مضى قولنا في اخبار الخلفاء وتواريخهم وايامهم وما تصرفت به دولتهم ونحن قائلون بعون الله في اخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة وما سيجوز على شيء من اخبار الدولة اذ كان هؤلاء الذين جرّدنا لهم كتابنا هذا قطب الملك الذي عليه مدار السياسة ومعادن التدبير وينابيع البلاغة وجوامع البيان هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها وخزموا الانوف حتى سكنت شواردها ومارسوا الامور وجرّبوا الدهور

١) ابن عبد ربه ٣ : ٥٩ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ٥٢
٣) » » ١ : ٢

فاحتملوا اعباءها واستفتحوا مغالقها حتى استقرت قواعد الملك وانتظمت قلائد الحكم ونفذت عزائم السلطان . »[١] وظاهرٌ من هذا الفرش ان ابن عبد ربه قد قصر كتابه هذا على اخبار رجال الدولتين الاموية والعباسية دون الخلفاء ، وذكر ما لبعض هؤلاء الرجال من مكانة في الدولة . وليس في الفرش ، كما ترى ، ذكر لخلفاء بني العباس ، بل هناك ما يشير الى ان اخبار الخلفاء قد دُوِّنت في الكتاب الذي سبق – « قد مضى قولنا في اخبـار الخلفاء وتواريخهم الخ » – وطلبنا فرش الدرة الثانية في ايام العرب ووقائعها ، وهو الكتاب الـذي يلي اليتيمة الثانية ، نبحث عن ذكرٍ لاخبار بني العباس فلم نعثر على شيء . وقد تعوّد ابن عبد ربه ان يكتب مواضيع كل كتاب سابق في اول الكتاب الذي يليه . وكل ما رأينا هو « قد مضى قولنا في اخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه الخ »[٢] . وعدنا الى مقدمة العقد نفسه وفيهـا جدول بكتب العقد وفصولها فلم نرَ في شرحه عن هذا الكتاب سوى « ثم كتاب اليتيمة الثانية في اخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة »[٣] . وطلبنا معجم البلدان لياقوت حيث ذكر جدولًا لكتب العقد واقسامها الرئيسية فلم نرَ في صدد هذا الكتاب سوى « ثم اليتيمة الثانية في اخبـار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة . »[٤] ولم يقتصر الامر ، في هذا الكتاب ، على هذا الباب فحسب بل ان هناك باباً آخر قد سبقه هو « باب من اخبار الدولة العباسية »[٥] ليس له ذكر كما ترى في كل المواضع التي اشرنا اليها . وهنا نرى انه يحقّ لنا ان لا نرتاح الى ان هذه الاخبار عن بني العباس قد دوَّنها ابن عبد ربه ، وان نزعم انها ربما قد دسّت عليه بعد موته ، او ان قسماً منها قد دُسّ ونقل القسم الآخر من موضع آخر حيث انـه كان الاولى بابن عبـد ربه – ان كان قد ألف هذين البـابين – حملًا على مـا عرف عنه من حسن التبويب والتصنيف وتبعاً لما اخذ على نفسه في مقدمة عقده حيث قال : « ثم قرنت كل جنس منها

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٦٠

٣) 〃 〃 ١ : ٤

٤) ياقوت ٢ : ٧٠

٥) 〃 〃 ٣ : ٤٧

الى جنسه فجعلته باباً على حدته ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره من كل باب »[١] ، كان الاولى به ان يضع هذين البابين في الكتاب السابق — كتاب العسجدة الثانية — حيث يبحث في الخلفاء وتواريخهم وايامهم وحيث نرى باباً خاصاً في اخبار الدولة العباسية[٢] .

ولا نستطيع تعيين البلاد التي دُسّت فيها اخبار هؤلاء الخلفاء المتأخرين ولا الزمن الذي دُسّت فيه . انما سنذكر ما يمكن ان يفيدنا من هذه الناحية ففي ترجمة الخليفة الاخير المطيع ذكر لسنة مولده ولسنة مبايعته ولسنة خلعه ، وعند وصول الواضع الى « وتوفي في » نرى بياضاً . وكذلك نرى بياضاً عند « وكان سنه » . فلا يبعد اذن ان يكون وضع هذه الاخبار قد جرى في هذه المـدة بين خلع المطيع نفسه وبين سنة موته ، اي بعد سنة ٣٦٣ هـ . غير اننـا نعود فنرى ان اكثر المصادر للتاريخ العباسي تهمل ذكر سنة وفاة المطيع وتكتفي بذكر سنة خلعه ٣٦٣ هـ . فابن الاثير وابن خلدون ومسكويه كل هؤلاء اهمل ذكر سنة موته . فلعلّ من دسّ هذه الاخبار في العقد لم يتوفق في العثور على تاريخ موته فترك بياضاً . ومهما يكن من جهلنا هذا الامر فانا نظن ان الدسّ ، ان لم يكن قد وقع زمن المطيع ، فقد وقع زمن الخليفة الذي عقب المطيع ، لا بعد زمنه . والا فما الذي كان يمنع الواضع من ان يذكر اخبار الخليفة او الخلفاء الذين ولوا امر المسلمين بعد المطيع . يقوّي ظننا في ان الدسّ قد وقع زمن المطيع سكوت الواضع عن ذكر سنة وفاة الخليفة القاهر وعمره ، واكتفاؤه بما يلي « وكانت خلافته سنة وستة اشهر وستة ايام وعاش الى ايام المطيع وكانت سنه »[٣] ويترك بياضاً . ويقوّيه ايضاً ما سنذكره من دسّ اخبار اخرى عن هؤلاء الخلفاء العباسيين في موضع آخر من العقد لم يتعدَّ فيها الواضع خلافة المطيع .

امّا هذه الاخبار الاخرى عن خلفاء بني العباس الذين قد تأخر بعضهم عن زمن موت ابن عبد ربه فقد وردت في كتاب التوقيعات والفصول والصـدور

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٣٥١

٣) 〃 〃 ٣ : ٥٩

وادوات الكتابة واخبار الكتاب[1] . ذلك ان ابن عبد ربه ذكر في هـذا الكتاب شيئاً في شرف الكتاب وفضلهم ، واورد في هـذا الباب اسماء كثير ممن كتبوا للخلفاء ، فـابتدأ من النبي وذكر من كتب له ، ثم ذكر الخلفاء واحداً واحداً ومن كتب لهم ، حتى انتهى الى المطيع فـذكر من وزر لـه وسكت عنده[2] . وظاهرٌ ان الذي دسّ هنا قد دسّ هناك ، وان الدسّ قد وقع في زمن واحد ، ولعلّه لم يتعدّ الوقت الذي ذكرنا.

ولابن عبد ربه فصل في هذا الكتاب المذكور يدور على توقيعات الخلفاء ، فيه بابٌ في توقيعات بني العباس[3] ليس فيه توقيعٌ لخليفة بعد المأمون. والغريب ان الذي دسّ في المواضع السابقة قد فاته الدسّ هنا . وان وقوف ابن عبـد ربه عند المأمون ليحملنا على الظن ان اكثر الاخبار التي وردت في العقـد عن خلفاء بني العباس ممن عقب المأمون دُسّت على ابن عبد ربه ، بعد موته. وليس غريباً ان يصدق هذا الظن لاسيما ونحن نعلم ان ابن عبد ربه قـد اخذ اكثر اخبـاره عن كتب مدوّنة لمؤلفين سبقوه اكثرهم لم يدوّن اخبـار من عقبوا المأمون . زد على ذلك ان ابن عبد ربه لم يذكر من توقيعات الامراء المختلفين لاحد بعد طاهر بن الحسين[4] ، احد قواد المأمون.

ولعلَّ القارئ لا يزال يذكر ما قد اشرنا اليه عنـد بحثنا في امر تجزئة كتب العقد الخمسة والعشرين، من حيث وصف التجزئة في مقدمة العقد وعدم انطباقها على ما هي عليه كتب العقد الآن . فلقد ذكرنا انه ليس في العقـد كله سوى ثلاثة كتب قد ذكر فيها اجزاؤها ، بينما قد اشار ابن عبد ربه في مقدمة العقد الى انه جزأ كل كتاب الى جزئين . ونرى انه يجوز لنا ان نظن ان كثيراً من الزيادات والتغيير قد طرأ على اواخر الاجزاء حتى ضاع ذكرها في اكثر كتب العقد . واظهرنا عندئذٍ ان كتاب الياقوتة في العلم والادب ــ وهو احد الكتب الثلاثة التي ذكرت فيها التجزئة ــ قد الحق في نصفه الاول زيادة وجُدت في بعض النسخ ، ولعلّ هذه الزيادة التي وجدت في بعض النسخ

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٠١
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٠٧
٣) 〃 〃 ٢ : ٢٢٩
٤) 〃 〃 ٢ : ٢٢٢

ولم توجد في البعض الآخر لم تكن مما جمعه ابن عبد ربه في عقده . ولم يتفرد كتاب الياقوتة بالزيادات فانا نرى في آخر كتاب الواسطة في الخطب زيادة اشار اليها ناشر الكتاب ايضاً في متن العقد نفسه ، قال: «وفي الام زيادة من غير اصلها فاوردتها كهيئتها وهي خطبة لعلي كرم الله وجهه في هذه المجنبة تلو خطبة المأمون يوم عيد الفطر جاء رجل الى علي . . . » الخ[١] . وفي آخر الخطبة قال الناشر: «تم الالحاق» . ونرى ايضاً في آخر كتاب الطعام والشراب زيادة اشار اليها ناشر الكتاب في متن العقد ايضاً قال : « وجدت في بعض النسخ زيادة فاوردتها وهي . . . »[٢] ونرى اشارة اخرى الى زيادة رابعة في كتاب الفكاهات والملح ، وهو آخر كتاب في العقد ، عنونها الناشر بـ « زيادة من غير الام »[٣] . ولعل هناك زيادات اخرى لم يعلمها الناشر فلم يشر اليها كتلك التي ذكرنا في اول هذا الباب والتي تدور على بعض خلفاء بني العباس ، لاسيما وانه لم يطلع على مختلف النسخ الخطية للعقد في الشرق والغرب .

وهناك امر آخر يدفعنا الى الظن في انه قد طرأ على العقد بعض التغيير او التحريف او الزيادة ، هو ان ترتيب كتب العقد في معجم الادباء لياقوت يختلف عما هو عليه في العقد نفسه وفي مقدمته . فالكتاب الاخير في العقد هو اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح بينما الكتاب الاخير في جدول ياقوت هو اللؤلؤة الثانية في طبائع الانسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان ويقول ياقوت « وهو آخر الكتاب »[٤] . وهذا التغيير يقتضي تغييراً آخر فقد صارت الزبرجدة الثانية عند ياقوت كتاب التحف والهدايا والنتف والفاكهات (كذا) والملح[٥] ، وتقع الثانية والعشرين في جدوله لجواهر العقد ، بينما هي الاخيرة (الـ ٢٥) في العقد نفسه وفي الجدول المذكور في مقدمته . ولا نرى بدّاً من الاشارة الى اختلاف اخر هو ان « الهدايا والنتف » قد ذكرت في جدول ياقوت في الزبرجدة الثانية مع « الفاكهات (كذا) والملح » ، بينما نراها في العقد في آخر كتاب طبائع

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٠٠
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٤١٩
٣) « « ٣ : ٤٢٢
٤) ياقوت ٢ : ٧٠
٥) ياقوت ٢ : ٧٠

الانسان وسائر الحيوان[١] . وليس في العقـد ايضاً ذكرٌ للتحف التي ذكرها ياقوت واشار الى انها واقعة في الزبرجدة الثانية . واورد ياقوت ايضاً في جدوله ان الفريدة الثانية هي في الهيئات والبنايين والطعام والشراب[٢] ، بينما نرى ان ابن عبد ربه قد اهمل هذا في مقدمة عقده ، وليس في كتاب الطعام والشراب ذكر للهيئات او البنايين[٣] . غير اننا نرى في العقـد ، في الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الانسان وسائر الحيوان ، بعض الامور عن البنيان واللباس في بابين مختلفين واحد للبنيان ، وآخر للباس[٤] . فاذا كانا ما عناه ياقوت في « الهيئات والبنايين » ، فقد وقعا في غير الموضع الذي ذكره . ويجب ان نذكر ، قبل الفراغ من هذه الكلمة، ان ياقوت قد درس العقد، فيما يقول هوعن نفسه، على استاذ ذكره قال :« وقد اجـاز لي رواية كتابه الموسوم بالعقـد الحافظ ذو النسبين بني دحية والحسين ابو الخطاب عمر» الخ[٥]

وهـذا الاضطراب والتشويش ، او بالاحرى هـذا الاختلاف بين جدول العقد وجدول ياقوت ، قد ترك آثاراً تدل على ان ايدي المتأخرين قـد لعبت في العقد . فان في الكتاب الذي عثرنا في آخره على باب النتف في الاخبار وذكرنا انها تظهر في غير هذا الموضع بجـدول ياقوت ، وبعبـارة اخرى ان في كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الانسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان اموراً لا يمكن ان يكون قد دوّنها هناك ابن عبـد ربه صاحب العقد . فهناك وصف للكعبة فيه ذكر للعلوي الثائر[٦] ، واشارة الى انه لما تغلّب على مكة قلع ذهب الحاجب الايمن من باب البيت[٧] . وفيـه وصف للحجر الاسود يظهر منه ان الواصف شاهد عيان قال :« والحجر الاسود على صخرتين من وجه الارض قد نحت من الصخر مقدار ما ادخل فيه الحجر وأشفت الصخرة الثالثة عليها مثل

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٧٠ و٢٧٥ — ٢) ياقوت ٢ : ٧٠

٣) 〃 〃 ٣ : ٢٨٠ — ٤) ابن عبد ربه ٣ : ٢٤٧

٥) ياقوت ٢ : ٦٩

٦) نذهب الى انه زعيم القرامطة الذي تغلّب على مكة سنـة ٣١٧ هـ ، وسنذكر رأي السيد شفيع في انه غير هذا ونعرض لمناقشته فيه.

٧) ابن عبد ربه ٣ : ٣٦٢

اصبعين والحجر املس مجزع حالك السواد في قدر الكف المحنية (كذا) قد لزمن (كذا) جوانبه بـ-امير الفضة وفيه صدوع وفي جانب منـه صفيحة فضة حسبتها شظية منه شظيت فجبرت بهـا وصخر الركن الاسود احرش اكبر من صخرنا قليلاً.»[1] وهناك اشارة اخرى الى ان الواصف شاهد عيان قال: «وحمام المسجد كثير انيس يكاد الانسان ان يطأه بقدمه لانسه بالنـاس وهو في لون حمام الابرجة عندنا الا انه اقدر منه وليس منها حمـامة تجلس على البيت ولا تطير عليه ولقد همّني ذلك فرايتها حين تكاد ان تحاذي البيت وهي مستعلية في طيرانها ذلك غطست حتى تصير دونه واخذت عن يمينه او يساره وزرقهـا ظاهر بارز على البيوت التي في المسجد الا بيت الله الحرام فانه نقي ليس فيـه ولا عليه اثر.»[2]

وظاهر من هذه النصوص ان الكاتب قد شاهد هذه المواضع بعد تغلّب العلويّ الثائر على مكة واخذه الحجر الاسود، الامر الذي وقع سنة ٣١٧هـ[3]. ونحن نعلم ان القرامطة اصحاب العلوي الثائر هذا احتفظوا بالحجر الاسود حول عشرين سنة[4]. فلم يرجع الحجر قبل سنة ٣٣٧ هـ . ونحن نعلم مما تقـدم من درسنا عن ابن عبد ربه انه مات سنة ٣٢٨ هـ . فكيف يمكن اذاً ان يكون صاحب هذا الوصف او مشاهد هـذا الامر، ولم يُرجع الحجر الى الكعبة كما ترى الّا بعد موته بنحو ٩ سنوات؟ ولو فرضنا ان وصف الحجر الاسود كان اثر حجة لابن عبد ربه قبل تغلّب العلوي الثائر على مكة ، فانّا نرى في ذكر ابن عبد ربه خبر العلويّ الثائر ووصفه حاجب الباب الذي اقتلع ذهبه ما يناقض ذلك . ولو فرضنا جدلاً ان ابن عبـد ربه قد حجّ بعـد تغلّب العلويّ الثائر فوصف ما شاهده واكتفى بنقل وصف الحجر الاسود عن غيره من اساتـذته الذين حجوا قبله، او عن غيرهم، لرأينا انه يصعب احتمال وقوعه حيث ان ابن عبد ربه كان وقتئذ قد تجاوز السبعين من عمره، ويصعب على مثلـه ان يقوم

---

١) ابن عبد ربه ٣: ٣٦٢ ٢) ابن عبد ربه ٣: ٣٦٤

٣) Wensinck, *Kaʿba* [The Encyc. of Islam vol. II, p. 586]

٤) ibid.

برحلة الى الشرق لاسيا وقد كان آدر يدرم في مشيه[١] . وقد ذكر الرواة انه اصيب بالفالج قبل موته باعوام[٢] . وكان من الطبيعي ان ينقل مثل هذه الاخبار عن اصحاب بعض المصادر التي استند اليها او عن اساتذته الذين حجُّوا الى المشرق ، لولا ما تقدم ذكره من امر العلويّ الثائر الذي دخل مكة بعد ان قضى كل هؤلاء .

بقي ان نفرض ان العلويّ الثائر هذا هو غير القرمطي المشهور ، ونسلّم مع الدكتور شفيع[٣] في انه حسين بن الحسن الطالبيّ الذي ذكر الطبري انه دخل مكة وجماعته الذين لم يبلغوا العشرة في الفتنة عام ١٩٩ ﻫ ، وقد اخلاها اصحاب الامر من بني العبّاس ودعاه اهل مكة اليها[٤] . ولكن الطبري لم يذكر ان حسين بن حسن هذا قد اقتلع باب الكعبة او ذهب حاجبه . وقد ذكره ايضاً الازرقي في كتاب اخبار مكة[٥] ، ولكنه لم يشر الى انه اقتلع ذهب حاجب الباب . بل انه ذكر ان الذهب الذي كان على الباب كان ممّا وضع على زمن الامين ، اي قبل ظهور هذا الطالبي ، وان الصفائح هذه كانت قد ضربت مما كان على الباب قبلاً من زمن الوليد بن عبد الملك ومن الدنانير التي ارسلها الامين نفسه ، وان هذا الذهب بقي على الباب الى يوم الازرقي[٦] . وقد مات الازرقي ، ومات قبله جدّه الذي خلف له بعض هذه الاخبار ، بعد زمن الامين وبعد عام الفتنة (١٩٩ ﻫ) الذي اشير اليه . فقد قضى الجدّ سنة ٢١٩ ﻫ . والحفيد سنة ٢٤٤ ﻫ .[٧] ومن الطبيعي ان لا يكتب الازرقيّان عن الثائر العلويّ القرمطي شيئاً وقد قضيا قبل ان يظهر ، كما وان الطبري لم يصل

---

١) المقّري طبعة اوربة II : ٢٠٠ وهامشها : اما طبعة مصر ٢ : ٨٢٢ فالرواية فيها مشوشة مضطربة . غير انها تشير الى انه كان في مشية ابن عبد ربه اضطراب .

٢) ابن الفرضي ١ : ٣٧ ؛ وابن خلكان ١ : ٤٦

٣) شفيع ٤١٦ وما يليها

٤) الطبري III : ٩٨٣–٩٨٤

٥) طبعة ليبزك سنة ١٨٥٨ ، المجلد الاول : ص ١٢٧

٦) 〃 〃 〃 〃 〃

٧) *Al Azraki* [The Encyc. of Isl. vol I, p. 542] في المقالة المهملة التوقيع

بتاريخه الى ابعد من سنة ٣٠٢ هـ. وقد ذكره ايضاً ابن خلدون في مقدمة تاريخه واشار الى انه يلقب بالافطس ، وروى انه اخذ ما كان في جب مكة من الاموال التي كانت قد خبأت فيه قبل الاسلام[١]. غير انه لم يشر الى ان الافطس هذا اقتلع ذهب باب الكعبة ، بينما نراه قد اشار ، في موضع آخر من تاريخه[٢]، الى ان ابا طاهر القرمطي الثائر قد « هجم على مكة سنة ٣١٧ هـ . وقتل كثيراً من الحاج ومن اهلها ونهب اموالهم جميعاً وقلع باب البيت والميزاب وقسم كسوة البيت في اصحابه واقتلع الحجر الاسود وانصرف به واراد ان يجعل الحج عنده ... وقد كان الحكم المتغلب على الدولة ببغداد ايام المستكفي بذل لهم خمسين الفاً من الذهب على ان يردوه فابوا وزعموا انهم انما حملوه بامر امامهم عبيد الله وانما يردونه بامره وامر خليفته .» ولا نظن بعد هذا كله ان ابن عبد ربه يشير الى ان الحسين بن الحسن هو الذي اقتلع الذهب . ومهما يكن من الامر فانا لا نسلم مع الدكتور شفيع في ان ابن عبد ربه صاحب العقد قد حج الى المشرق ، حيث ان المقري قد ذكر في كتابه « نفح الطيب » اسماء طائفة من الرجال المشهورين الذين كانت لهم رحلة الى المشرق . وقد كان ابن عبد ربه صاحب العقد معروفاً عنده استجلب ذكره في كتابه نحو عشر مرات او ازيد، ونقل ترجمة حياته عن الفتح بن خاقان وذكر كثيراً من شعره، ونسب اليه رجالاً متأخرين ذكرهم ، ومع كل هذا لم يذكره بين الذين رحلوا الى المشرق ولم يشر الى شيء من هذا الامر[٣]. اضف الى هذا ان G. Le Strange في كتابه *Palestine under the Moslems*. London, *1890*. قد رجع الى العقد ونقل عن ابن عبد ربه وصف الحرم في القدس، فلاحظ ان هذا الوصف يكاد يتفق بالحرف مع وصف معاصر لابن عبد ربه هو ابن الفقيه ،

---

١) ابن خلدون ٣٠٩

٢) تاريخ ابن خلدون الجزء الرابع ، ص ٨٩

٣) المقري ١ : ٢٢١–٦٤٠

ولا يختلف عنه الا ببعض التفاصيل[١] بحيث كاد يستنتج انهما استقيا من مصدر واحد[٢]، واشار Le Strange الى انه لا يجزم في ان صاحب العقد قد حجّ وشاهد هذه المواضع[٣].

ولا يفوتنا ان نذكر ايضاً انه ليس في العقد كله — اذا استثنينا هذا الموضع الذي يظهر لنا انه مدسوس — اشارة واحدة الى ان صاحبه قد حجّ الى المشرق او تلميح يفيد انه كان لابن عبد ربه هذا رحلة الى الشرق، وكان من الطبيعي لو كانت له رحلة في شبابه او في كبره ان نرى اثرًا لاخبارها في عقده، كأن يذكر مثلًا بعض الاخبار عن علماء المشرق ممّن كنا ننتظر ان يكون قد لاقاهم او اخذ عنهم اثناء رحلته هذه او سمع منهم او تحدّث اليهم، بينما هو لم يهمل ذكر كثير من الاخبار والروايات التي حدّثه بها اساتذته عن علماء المشرق بعد رحلاتهم وحجتهم.

زد على هذا ان ابن عبد ربه يقول في مقدمة عقده ان ما له في العقد انما هو تأليف الاختيار، وحسن الاختصار، وفرش لدور كل كتاب، وما سواه فمأخوذ من افواه العلماء ومأثور عن الحكماء والادباء[٤] وهذا اقرار صريح منه، مع ما عرف عنه من النزعة الشخصية، يظهر فيه انه لم يتصدَّ لكتابة مثل هذه الابواب التي تدلّ على ان الواصف شاهد عيان.

ولا بدّ لنا اخيرًا من الاشارة الى اننا لم نرَ تناسباً بين وصف الحرمين وبيت المقدس وبين سائر الابحاث في اول فصل تفاضل البلدان من حيث الامور التي تشير الى نفس كاتب واحد او اختبارات رجل واحد، بل ان هناك انتقالًا فجائيًا من نتف من الاخبار عن مزايا بعض البلدان مسندة الى رواة مختلفين، الى وصف طويل فيه اسهاب وتدقيق عن الحرمين وبيت المقدس.

ولا بد لنا بعد هذا كله من الاشارة مرة ثانية الى ما في مقال السيد

---

١) انظر ص ٤ و١٦٣ من المصدر المذكور (Le Strange)

٢) 〃 ١٦٠ 〃 〃

٣) 〃 ٤و١٦٠ 〃 〃

٤) ابن عبد ربه ١: ٢

شفيع القيّم في كتاب «عجب نامه» مما يفيد ان صاحب المقال يقطع ان ابن عبد ربه صاحب العقد قد حج الى المشرق وشاهد الحرمين ووصفها في هذا الباب[١]. وكنا بغنى عن الاشارة الى رأيه هذا لولا ان الرجل باحث قدير، ولولا ان الكتاب يضمّ مجموعة من الابحاث الشرقية القيّمة لطائفة من كبار المستشرقين، وقد اهدي كما اشرنا في فصل سابق الى المستشرق الاستاذ برون بمناسبة عيد ميلاده الستيني. ولا نظن الا ان السيد شفيع — بعد اطلاعه على ما ذكرنا — راجع عن رايه، ومسلّمٌ معنا فيا ذهبنا اليه.

ولكن من الذي دسّ هذه الاخبار في فصل تفاضل البلدان على ابن عبد ربه ؟ وما السبيل الى معرفته ؟ يظهر قبل كل شيء ان الواضع اندلسي! ولعلّ هذا الامر قد دفع السيد شفيع في ان يزعم انه صاحب العقد : فلقد قابل هذا الواضع بين بعض الامور التي شاهدها وبين جامع قرطبة قال عن منى : « وبها مسجد اكبر من جامع قرطبة.»[٢] وقال في باب صفة مسجد النبي :« ... ثم فوقه ازار مثل الاول فيه اربعة عشر باباً في صف من الشرق الى الغرب في تقدير كوى المسجد الجامع بقرطبة.»[٣] واورد طائفة من المفردات التي يظهر من بحث السيد شفيع — اذا جاز لنا الاستناد اليه — انها اندلسية ولقد رتب لها السيد شفيع جدولاً كبيراً في آخر مقاله[٤].

ونعود فنسأل انفسنا من هو هذا الاندلسي ؟ ولعلّ خير سبيل لمعرفته ان نلتفت الى ما سيلي :

لقد علمنا من درسنا حياة ابن عبد ربه صاحب العقد ان اسمه احمد وان كنيته ابو عمر، هكذا وردا في فرش دور كتب العقد، وفي كتب الذين ترجموا حياته بل انهما قد وردا في شعر للقلفاط الشاعر هجاه به بحيث لا يبقى مجالاً للشك في صحة ذاك :

---

١) شفيع ٤٢٢

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٥

٣) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٥

٤) شفيع ٤٢٢

يا عرس أحمد اني مزمع سفرا فودّعيني سرّاً من ابي عمرا [١]

غير اننــا نرى في كتاب اليــاقوتة في العلم والادب باباً هو باب جامع الآداب ذكر في اوله « قال ابو عبدالله احمد بن محمد اول ما نبدأ به ادب الله لنبيّه » الخ [٢] وقد دهشنا لهذه الكنية ، ودهشنا لورود اسمه في اول الباب ، اذ هي المرة الوحيدة التي يرد فيها اسم ابن عبد ربه في اول باب ما. وانما جرى ابن عبد ربه على ان يذكر اسمه في فرش دوركل كتاب لا في اوائل الابواب، وقد ذكر اسمه في فرش دار الياقوتة هذه قال: «قال ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه » الخ [٣]. فمن هو ابو عبدالله ذاك ؟

نرى في مقدمة ابن خلدون بحثاً عن الموشحات يذكر فيه ابن عبــد ربه صاحب كتاب العقد ويكنيه ابا عبد الله [٤] : فهــل كان لابن عبد ربه هــذا كنيتان ؟ لقــد ظن المستشرق Hartmann في كتابه *Das arabische Strophengedicht I, Das Muwaššah* ان طبعة بيروت من مقدمة ابن خلدون قد اضافت كلمة « ابو » قبل عبــد الله وان الاصل كان « عبد الله » . دون « ابو » ، ولكنه يعود فيقول ولعلها كانت في الاصل « ابو عبــد الله » ويظهر انه لم يطّلع على هذا الموضع في العقد الذي وردت فيه عبارة: «قال ابو عبد الله» ولم يطلع ايضاً على طبعة مصر لمقدمة ابن خلدون سنة ١٢٧٤ هـ . فانهــا تدوّن الاسم « ابو عبد الله » لا « عبد الله » ، وكذلك نرى في الطبعة الازهرية للعقــد «ابو عبد الله». وعلى كل حال لقد احسن Hartmann في انه لم يقطع في الامر.

ترى هل كان هناك شخص بهذه الكنية من آل عبد ربه ، وهل لهــذا الشخص علاقة في هذا الموضوع الذي نحن بصدده ؟

ذكر المقّري في كتابه نفح الطيب ، في الباب الــذي قصره على التعريف ببعض من رحل من الاندلسيين الى بلاد المشرق ، رجلاً من آل عبد ربه كنيته ابو عبدالله وصفه بالكاتب ، وذكر له شعراً ، وروى عنه انه اجتمع في رحلته

---

١) المقّري ٢ : ٨٢٢
٢) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٠
٣) ابن عبد ربه ١ : ١٩٨
٤) ابن خلدون ٥٨٤

الى الشرق بالسعيد بن سناء الملك ، واخذ عنه شيئاً من شعره ورواه بالمغرب[1] .
وعاد فذكر مرة ثانية في الباب نفسه رجلاً من هذا البيت قال : « ومنهم (اي من الراحلين الى المشرق) ابو عبد الله محمد ابن الشيخ الاجلّ ابي الحسن ابن عبد ربه وهو من حفداء صاحب كتاب العقد المشهور . » وذكر بعض الاخبار عنه وروى بعض الابيات من شعره ، ثم ختم ترجمته بقوله : « وتقدمت ترجمة الكاتب ابي عبد الله بن عبد ربه واظنه هذا فليتنبه له بل اعتقد انه هو لا غيره والله تعالى اعلم »[2]

ولعلّ من الخير قبل اظهار رأينا في الامر ان نلفت النظر الى انه ليس من اللازم ان نتمسك بقول ابن خلدون عن ابي عبدالله هذا انه صاحب العقد[3] ، اذ يجوز ان تكون عبارة « صاحب العقد » زيادة من المتأخرين ، او يجوز انها خطأ من ابن خلدون لم يلتفت اليه ، لاسيا وان ابن عبد ربه صاحب العقد ، كما سنرى في بحثنا عن شعره ، لم يُعرف في نظم الموشحات كما زعم ابن خلدون . ولا بد لنا ايضاً من الاشارة الى عدم تدقيق ابن خلدون في الاخبار التي ذكرها عن صاحب العقد حيث اننا نجد تغييراً عظيماً في الرواية التي نقلها عن العقد من امر المأمون وزواجه ببوران بنت الحسن بن سهل . فان ابن خلدون قد نسب الى المأمون في القصة التي نقلها ابن عبدربه ما لم يذكره هذا[4] . مما يدلّ على ان ابن خلدون قد حمل على ابن عبد ربه ما لم يقله ، او انه على الاقل لم يكن مدققاً فيما نقله عنه .

نرى بعد هذا كله انه يجوز لنا ان نظنّ ان لابي عبد الله هذا يداً في هذا الدسّ . وسنعرض لهذا الشخص المذكور عند بحثنا عما اذا كان صاحب العقد نظم الموشحات من الشعر ام لا !

---

١) المقري ١ : ٣٧٢–٣٧٤
٢) المقري ١ : ٣٨٢–٣٨٤
٣) ابن خلدون ٥٨٤
٤) قابل بين رواية ابن عبد ربه ٣ : ٤٥٢–٤٥٨ ، وما نقله ابن خلدون ٢٠

بقي شيء واحد وهو ان النسخة التي روجعت عند طبع العقد ببولاق ، والتي اشار الناشرون الى انها « المشهورة بالصحة والضبط والمعوّل عليها في الغالب في الجمع والتصحيح »[١] قد كُتبت فيما يظهر بعد موت ابن عبد ربه ، اذ ان في النسخة المطبوعة بين ايدينا عبارات تفيد ذاك مثل « رحمه الله »[٢] (الضمير يعود على ابن عبد ربه) ، او « رضي الله عنه »[٣] ، او « تغمده برحمته »[٤] الخ . وقد يجوز ان يكون الناشرون اضافوها .

وكم كنت اود لو كانت بين يدي نسخ العقد الخطية المختلفة علّني بواسطتها استطيع الجزم حيث ظننت ، او الرجوع عمّا قطعت . واني لمغتنم هذه الفرصة لتوجيه ندائي الى كل عالم ممن يقرأون هذه السطور ، لاسيما في بلدان اوربة حيث توجد نسخ خطية للعقد ويستطيعون جلاء شيء من غامض هذا الامر ، ان يتكرّم عليَّ بارسال ما يرتأيه او يستند اليه ، سواء أكان مطابقاً لما ذهبت اليه او مخالفاً له .

سبب تأليف العقد وزمنه وطريقته

اما سبب تأليفه فالظاهر من مقدمة الكتاب انه دافع علمي ادبي ، حيث يذكر صاحبه انه رأى بعض اهل العلم قبله ممن بحثوا في مثل هذه الامور التي تعرض لها في عقده اكثروا واطالوا ، ورأى البعض الآخر أساءوا الاختيار والجمع والتبويب فجعل كتابه كافياً جامعاً مبوّباً مرتباً[٥] . ويذهب بعض المتأخرين ، ولا ندري الى اي مرجع يستندون ، الى انه الفه ، لعبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر المتوفى سنة ٣٥٠[٦] ولا يفوتنا ان نعد هنا ما ذكرنا مرة من ان ارجوزة ابن عبد ربه في العروض ، وهي جزء من كتاب كتب العقد ، قد اهداها الى الامير عبد الله المتوفى سنة ٣٠٠

اما زمن بدء تأليفه او جمعه فلا نعلمه بالضبط ، اذ فيه من الشعر الذي

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢ قبل المقدمة
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٤٥ و ٣ : ١١٦
٣) « « ٣ : ٦٠ و ٢
٤) « « ١ : ٨٢
٥) راجع ابن عبد ربه ١ : ٢-٣
٦) المقتطف المجلد ٢٩ (سنة ١٩٠٤) يوليو (ص ٥٨٨ ، مقال محمد كرد علي

نظمه ابن عبد ربه ما يرجع الى قبل سنة ٣٠٠ كما اسلفنا وفيه ما يستمر عهده الى سنة ٣٢٢ [١]. وهناك ذكر للخليفة عبد الرحمن الناصر يتبعه بامير المؤمنين [٢] مما يدلّ على ان هذا النعت ان لم يكن من وضع المتأخرين فقد وضعت اخبار صاحبه بعد سنة ٣١٧، السنة التي لقب فيها الناصر بامير المؤمنين [٣]. وفي تضاعيف العقد ما يظهر انه كان يجمع اخباره كلها ويبوبها بحيث يقع كل خبر تحت باب خاص وضعه له. وترى في ما يأتي دليلًا على ما نقول، قال ابن عبد ربه: «هذا ما ذكرنا في كتابنا من الخطب للحجاج وما بقي منها فهي مستقصاة في كتاب اليتيمة الثانية حيث ذكرت اخبار زياد والحجاج. وانما مذهبنا في كتابنا هذا ان نأخذ من كل شيء أحسنه ونحذف الكثير الذي يستجزأ منه بالقليل [٤].» اما اليتيمة الثانية فانها تقع بعد الكتاب الذي اخذنا منه هذه العبارة. كذلك ذكر مثلًا في الكتاب الاول من عقده «اللؤلؤة في السلطان» ثم اعقبه بقوله: «وهذا مثل وقد وقع تفسيره في كتاب الامثال.» [٥] وكتاب الجوهرة في الامثال انما هو الكتاب السابع من كتب العقد الخمسة والعشرين.

اختصار العقد

ولقد اختصر العقد — فيما يذكر حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون (طبعة اوربة ٤: ٢٣٢)، والسيوطي في كتابه بغية الوعاة... (صفحة ١٨٢ وصفحة ١٠٦) — اثنان اولهما ابو اسحق ابرهيم بن عبد الرحمن الوادي آشي القيسي المتوفى حول سنة ٥٧٠هـ، وهو فيما يظهر من اسمه اندلسي من وادي آش (Guadix) من مقاطعة غرناطة، وثانيهما جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم الانصاري الخزرجي، وهو ابن منظور الشهير مؤلف معجم لسان العرب المتوفى سنة ٧١١هـ. وقد روى السيوطي ان الاخير اختصر كثيرًا من كتب الادب المطولة عدا العقد كالاغاني والذخيرة ومفردات ابن البيطار ونقل ان مختصراته ٥٠٠ مجلد [٦].

---

١) ابن عبد ربه ٢: ٢٧٧ ٢) ابن عبد ربه ٢: ٢٦٣
٣) المقري ج ١: ١٦٦ وج I: ٢٧٧ طبعة اوربة
٤) ابن عبد ربه ٢: ١٨٨ ٥) ابن عبد ربه ١: ٢٣
٦) السيوطي ١٠٦

ولا اعلم هل لهذين الكتابين اثر الآن. ويظهر من فهرس كتب آداب اللغة العربية الموجودة في دار الكتب بالقاهرة (٣ : ٣٤٤) ان هناك نسختين لمختصر كتاب العقد كلتاهما نسبت لمجهول (احد الفضلاء) الواحدة يرجع تاريخ الفراغ من كتابتها الى سنة ٩٩١ هـ. والاخرى الى سنة ١٠٣٦ هـ. فهل لاي من هاتين النسختين علاقة باحدٍ من المختصرين المذكورين ؟

وقد عمدت لجنة من بعض ادباء مصر[1] فاختارت بعض الابواب والفصول منه وجمعتها في كتاب سمته مختار العقد بين يدينا الآن الطبعة الثالثة منه، وتاريخها سنة ١٩١٣ م وقد طبعت في المطبعة الجمالية بمصر.

الناقلون عن العقد

اما الناقلون عن العقد فهم فيما نظن كثرٌ يصعب حصرهم. غير اننا نودُّ ان نشير هنا الى ان الابشيهي المتوفى بعد سنة ٨٥٠ هـ. قد نقل كثيراً عن العقد في كتابه « المستطرف في كل فنّ مستظرف » وقد نبّه الى ذاك في مقدمة كتابه قال : « ونقلت فيه كثيراً مما نقله ابن عبد ربه في كتابه . . »[2] والغريب ان الابشيهي لم ينقل ما نقله ابن عبد ربه فحسب بل سطا على كلام ابن عبد ربه في فرش بعض الكتب، فنقله بالحرف ايضاً واسند الكلام فيه الى نفسه لا الى ابن عبد ربه[3].

وذكر البغدادي (الشيخ عبد القادر بن عمر) في كتابه « خزانة الادب ولب لباب لسان العرب » انه استند الى بعض كتب ترجع الى فن الادب منها العقد الفريد لابن عبد ربه[4].

كذلك قد رجع ابن خلدون الى العقد في اكثر من موضع في مقدمته[5] ولم يفت القلقشندي ان يأخذ كثيراً عن العقد وقد اشار الى ذلك في كثير من المواضع[6].

---

١) الاساتذة : الشيخ عبد الحكيم محمد، والشيخ عبد الخالق عمر، والشيخ عبدالعزيز خليل، والشيخ محمد الخضري

٢) الابشيهي ١ : ٢

٣) الابشيهي ٢ : ١٧٦، وقابله بابن عبد ربه ٣ : ٢٢٩

٤) ج ١ : ١٠، طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ

٥) ص ٢٠ و١٧

٦) ١ : ٢٩٢ ؛ و ٩ : ٢٦٢ وغيرها

في نسخ العقد الخطية

اما نسخ العقد الخطية فهي ، فيما يظهر من كتاب بروكلمن في تاريخ آداب اللغة العربية ، كثيرة جداً منها اثنتان في برلين ، وثلاث في غوطه ، وواحدة في المجموعة الرفاعيــة لفليشر ، وواحدة في ڤينـــا ، وواحدة في منشن ، واربع في مكتبة بودليان ، وثلاث في المتحف البريطاني ، واثنتان في الاسكوريال بمدريد ، وخمس في باريس ، وواحدة في بطرسبرج ، وواحدة في (Mel. as.) ، وواحدة في مكتبة ميلانو الايطالية . وهناك اثنتا عشرة نسخـة في الاستـــانة منها ست في مكتبة ايا صوفيا ، واثنتان في مكتبة نوري عثمانية ، وواحدة في مكتبة راغب باشا ، وثلاث في مكتبة كوبريلي[١]

ومع ان بروكلمن لم يشر الى وجود نسخة ما بالقاهرة بل اكتفى بالاشارة الى سنوات طبع العقد فيها ، فانا نظنّ انه لا بد من وجود بعض النسخ . وليس من الضروري ان يكون عدد النسخ بعدد الطبعات اذ يجوز ان النـــاشرين المتأخرين نقلوا عن الطبعة القديمة . والذي يظهر من الطبعة الاولى سنة ١٢٩٣ انها اخذت عن نسخة خطية للشيخ عبد العزيز محاسن[٢] الـــذي يظهر ايضاً انه رتب فهرسها للمواضيع على الطريقة التي هي عليهـــا الآن . ويجوز ان يكون هذا قد نقلها عن احدى نسخ الاستانة . ويظهر من فهرس دار الكتب بالقاهرة ان ليس في الدار نسخة خطية تامة من العقـــد ، انما يوجـــد عدة اجزاء صغيرة مختلفة اشرنا الى بعضها في غير هذا الموضع[٣] .

في طبعات العقد ، وترجمة بعض اقسامه

لقد طبع العقد في مصر ٥ مرات اولاهـــا ببولاق سنة ١٢٩٣ هـ . ثم في المطبعة العثمانية سنة ١٣٠٢هـ . ، ثم في المطبعة الشرفية سنة ١٣٠٥هـ . ثم تكرر طبعه في المطبعـــة الاخيرة ايضاً سنة ١٣١٦ ، واخيراً في المطبعة الازهرية سنة

---

١) بروكلمن ١ : ١٥٥

٢) ابن عبد ربه ١ : ٢ من جدول الفهرس باول الكتاب

٣) راجع فهرس الآداب ٣ : ٢٥٢–٢٥٤

١٣٣١ هـ . وقد ذكر الاستاذ فؤاد افرام البستاني في « روائعه »[١] ان الافرنج قد سبقوا ادباء العصر الى معرفة هـذا الكتاب ، وان المستشرق الفرنساوي تورنيل (Tournel) قد نقل الى لغته بعض المقاطع المختصـة باحوال قدمـاء العرب ونشرها في باريس بعنوان: «*Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme.*» سنـة ١٨٣٦ و١٨٣٧ و١٨٣٨ . واشار الى ان المستشرقين لم يطبعوا النص العربي.

آراء بعض المتقدمين في العقد

مرّ معنا شيء من تعرّض الصاحب بن عبّاد للعقد ونقده اياه وقوله « هذه بضاعتنا رُدّت الينا » . ويظهر ان اكثر الذين نعوا على ابن عبد ربه عقده قـد قصدوا الى هذه الناحية التي انتقدها الصاحب بن عبّاد ، اي عدم ذكر صاحبـه اخبارًا كثيرة عن الاندلسيين . فقد ذكر المقّري ان ابا علي التميمي القيرواني ذكر لابن حزم الاندلسي في رسالة تعرّض فيها للاندلسيين ابن عبد ربه صاحبنا فاثنى على عقده ثناء قليلًا ثم قال: « انه يلحقه فيه بعض اللوم لاسيا اذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقـده ومناقب ملوكه يتيمة سلكه اكثر الحزّ واخطـأ المفصل واطال الهزّ لسيفٍ غيرِ مقصل وقعد به ما قعـد باصحابه من ترك مـا يعنيهم واغفال ما يهمهم »[٢]

ويذكر المقّري في موضع آخر ان القلفاط الشاعر معاصر ابن عبد ربه كان يتعرّض لابن عبد ربه ويهجوه ويسمي كتاب العقد حبل الثوم[٣] . واذا استثنينا هؤلاء نرى سائر المؤرخين والادباء يثنون على العقد وصاحبه خير ثناء.

هل لابن عبد ربه كتب غير العقد؟

والجواب نعم . والغريب اننا ، اذا استثنينا حاجي خليفـة ، نرى ان كل

---

١) بستاني عدد ٨: ج ١ ، ص و — ز

٢) المقّري (اوربة) ٢ : ١٠٩ ، وطبعة مصر ٢ : ٧٦٧

٣) 〃 〃 ٢ : ٢٠٠ 〃 〃 ٢ : ٨٢٣ ، غير ان الروايـة في الطبعـة المصرية مشوشة.

الذين تصدّوا لذكر شيء عن ابن عبد ربه من القدماء والمحدثين لم يلتفتوا الى هذا الامر . ولقد ذهب المرحوم جرجي زيدان الى ابعد من السكوت فصرح انه ليس لابن عبد ربه سوى العقد[1] . اما حاجي خليفة فقد ذكر في كتابه « كشف الظنون » كتاباً لابن عبد ربه غير العقد هو « اللباب في معرفة العلم والآداب » ثم قال : « للشيخ العلّامة احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي المتوفى سنة ٣٢٨ هـ اوله : الحمد لله على كل حال الخ »[2] وظاهر من كلام حاجي خليفة ان لا مجال يدفعنا الى ان نظن ان المؤلف غير صاحبنا .

٤

نثره

لم يترك لنا ابن عبد ربه آثاراً كثيرة من نثره . ومن يظنّ ان لغة العقد تمثل نثره فقد أخطأ . ذلك لان العقد مجموعة اخبار في مختلف العلوم والفنون نقلت عن رواة من عصور مختلفة روعيت في رواياتها المحافظة على الاصل من حيث صوغ العبارة . ولم يكن لابن عبد ربه فيها ، كما صرّح هو نفسه ، سوى فضل الاختيار وحسن الاختصار ، وما سواهما فمأخوذ من اقوال العلماء والادباء . ولقد يدلّ هذا التصريح من ابن عبد ربه على انه كان يرجع الى كتب دوّنت ينقل عنها ، وانه لم يأخذ عن احد شفاهاً بحيث يضطرّ الى سبك الخبر بلغته . ولعل المواضع الوحيدة في صلب عقده التي يصحّ لنا ان نظنّ انه حاك عبارتها بلفظه هي تلك الاخبار التي دوّنها عن امراء الاندلس ولاسيما المتأخرين منهم كالمنذر بن محمد ، وعبد الله ، والخليفة الناصر ؛ وتلك التي نقلها شفاهاً عن اساتذته بقي بن مخلد ، وابن وضاح ، والخشني ، وقليلة ما هي ! غير ان صاحب العقد قد صدّر كتابه بمقدمة من انشائه ، وفرش لـدار كل كتاب من كتب العقد الخمسة والعشرين بتوطئة من نثره دون ان يفوته التنبيه الى ذاك . زد

---

١) زيدان ٢ : ١٧٤

٢) حاجي خليفة (طبعة اوربة) ٥ : ٣٠٢

على هذا كله انه لم يخلُ العقد من بعض مواضع عثرنا فيها على عبارات مقتضبة وجيزة يقتضي سياق الكلام فيها ان تكون من صوغه.

ونرى — اذا جاز لنا ان نحكم من هذا القدر القليل الذي بين ايدينا — ان انشاء ابن عبد ربه يمتاز بالوضوح اذا قورن بانشاء ابي الفرج الاصبهاني صاحب كتاب «الاغاني» الكبير، وبالرقة من حيث اللفظ، والترتيب من حيث المعنى اذا قوبل بنثر الجاحظ. ولعله اشبه باسلوب ابن قتيبة ولغته. ولا عجب فقد اكثر ابن عبد ربه من الدرس في كتب ابن قتيبة، واكثر من الاخذ عنها. ولقد مرّ معنا انه كان يتأثر ابن قتيبة في طريقته وأنّ عقده، لولا قليل، لكان معارضة لعيون اخباره. ولعلّ من الخير ان نظهرك على قطع من انشائها، ولتكن من مقدّمتي هذين الكتابين قال ابن عبد ربه:

«وتطلبت نظائر الكلام، واشكال المعاني، وجواهر الحكم، وضروب الادب، ونوادر الامثال، ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه، فجعلته بابًا على حدته. ليستدلّ الطالب للخبر على موضعه من الكتاب، ونظيره من كل باب، وقصدت من جملة الاخبار، وفنون الاثار، الى اشرفها جوهرًا، واظهرها رونقًا، والطفها معنى، واجزلها لفظًا، واحسنها ديباجة، واكثرها طلاوة وحلاوة.» (١

وقال ابن قتيبة:

«نظمتها لمغفل التأدب تبصرة، ولاهل العلم تذكرة، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدبًا، وللملوك مستراحًا من كدّ الجدّ والتعب، وصنفتها ابوابًا، وقرنت الباب بشكله، والخبر بمثله، والكلمة باختها، ليسهل على المتعلم علمها، وعلى الدارس حفظها، وعلى الناشد طلبها، وهي لقاح عقول العلماء، ونتاج افكار الحكماء، وزبدة المخض، وحلية الادب واثمار طول النظر.» (٢

وقال ابن عبد ربه في موضع آخر من المقدمة:

«وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة، فوجدتها غير متفرقة في فنون الاخبار، ولا جامعة لجمل الآثار، فجعلت هذا الكتاب كافيًا جامعًا لاكثر المعاني التي تجري على افواه العامّة والخاصة، وتدور على السنة الملوك والسوقة، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر، تجانس الاخبار في معانيها، وتوافقه في مذاهبها.» (٣

---

١) ابن عبد ربه ١: ٢

٢) ابن قتيبة ١: صفحة ى

٣) 〃 〃 ١: ٤

وقال ابن قتيبة في مقدمة كتابه :

«ولم أرَ صواباً ان يكون كتابي هذا وقفاً على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواص الناس دون عوامهم ولا على ملوكهم دون سوقتهم ، فوفيت كل فريق منهم قسمه ، ووفّرت عليه سهمه ، واودعته طرفاً من محاسن كلام الزهّاد في الدنيا ، وذكر فجائعها والزوال والانتقال ، وما يتلاقون به اذا اجتمعوا ، ويتكاتبون به اذا افترقوا ، في المواعظ والزهد والصبر والتقوى واليقين واشباه ذلك ، لعلّ الله يعطف به صادفاً ، ويأطر على التوبة متجانفاً ، ويردع ظالماً ويلين برقائقه قسوة القلوب.» (١

ولعل كلا ابن عبد ربه وابن قتيبة قد تأثر بالجاحظ من ناحية استعمال الجمل المقتضبة الوجيزة المتوازنة بعضها مع بعض ، والتي لم يلتفت فيها كثيراً الى السجع ، ولكنهما لم يبلغا مبلغه ولم يوفقا توفيقه . ويظهر ان ابن عبد ربه قد امتاز على ابن قتيبة في رقة العبارة وسلاستها رغم ان الفرق قليل ، ولعله ايضاً قد وفّق اكثر من رفيقه في التأثر بالجاحظ من حيث قصر العبارات واتّزانها بعضها مع بعض ، وربما من الخير ان تقابل ما ذكرنا لكليهما مع ما سيأتي للجاحظ .

قال في مقدمة كتابه « المحاسن والاضداد » :

« الكتاب نعم الذخر والعدة ، والجليس والعمدة ، ونعم النشرة ، ونعم النزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الانيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والزميل ، ونعم الوزير والنزيل ، والكتاب وعاء ملئ علماً وظرفٌ حشي ظرفاً ، واناء شُحنَ مزاحاً ، ان شئت كان اعيا من باقل وان شئت كان ابلغ من سحبان وائل ، وان شئت سرتك نوادره ، وشجتك مواعظه ، ومن لك بواعظٍ مله ، وبناسك فاتكٍ ، وناطق أخرس . . . ومن لك بشيء يجمع الاول والاخر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب .» (٢

ومهما يكن من الامر فانّا نرى انه ليس من الضروري ان يكون ابن عبد ربه او ابن قتيبة قد تأثر بالجاحظ خاصةً او بكاتب خاص آخر غير الجاحظ ، حيث اننا نرى اكثر الادباء في صدر الدولة العباسية كسهل بن هرون ، وابرهيم الصولي ، وعبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع (الى حدٍّ ما) قد اتبعوا هذا الاسلوب الكتابي المتوازن العبارات وكتبوا رسائلهم الادبية فيه . ولقد

---

١) ابن قتيبة ١ صفحة ك ٢) الجاحظ م : صفحة ٤

تقيد ابن عبد ربه بهذا الاسلوب في فرش دور كتبه اكثر مما تقيد في مقدمة العقد نفسه : قال في مقدمة كتاب الفريدة في الحروب :

«قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه ، وما على الرعية من لزوم طاعته ، وادامة نصيحته ، وما على السلطان من العدل في رعيته ، والرفق باهل مملكته ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه ، في الحروب ومدار امرها ، وقود الجيوش وتدبيرها ، وما على المدبّر لها من انتهاز الفرصة ، والتماس الغرة ، واذكاء العيون ، وافشاء الطلائع ، واجتناب المضايق ، والتحفظ من الدسيسات ، واحكام معرفته ، وطول تجربته لمقاساة الحروب ، ومعاناة الجيوش ، وعلمه ان لا درع كالصبر ، ولا حصن كاليقين .» (١

وقال في مقدمة كتاب السلطان :

« السلطان زمام الامور ، ونظام الحقوق ، وقوام الحدود ، والقطب الذي عليه مدار الدنيا ، وهو حمى الله في بلاده ، وظلّه الممدود على عباده ، به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم .» (٢

وقال في فرش كتاب الوفود :

«. . . فانها مقامات فضل ، ومشاهد حفل ، يتخير لها الكلام ، ويتهذب الالفاظ ، ويستجزل المعاني ، ولا بدّ للوافد عن قومه ، ان يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن قوته (كذا) ينزعون ، وعن رأيه يصدرون ، فهو واحد يعدل قبيلة ، ولسان يعرب عن السنة ، وما ظنك بوافد قوم يتكلم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم او خليفته او بين يدي ملك جبار في رغبة او رهبة ، فهو يوطد لقومه مرة ويتحفظ عن امامه اخرى ، اتراه مدخراً نتيجة من نتائج الحكمة ، او مستبقياً غريبة من غرائب الفطنة ، ام تظن القوم قدموه لفضل هذه الخطة ، الا وهو عندهم في غاية الذلقة واللسانة ومجمع الشعر والخطابة .» (٣

وقال في فرش كتاب الياقوتة الثانية :

«. . . وكرهنا ان يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الاداب والحكم والنوادر والامثال ، عطلًا من هذه الصناعة التي هي مراد السمع ، ومرتع النفس ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وانس الوحيد ، وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب ، واخذه بمجامع النفس .» (٤

وانا لنلاحظ هذا الاتزان في عبارته ، في الجمل والفقرات الصغيرة التي نثرها في العقد عند تعليقه على خبر او تعرضه لراوٍ كان يقول مثلاً :

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٣٥
٢) ابن عبد ربه ١ : ٤
٣) « « ١ : ١٢٤
٤) « « ٣ : ٢٢٩

« ومن الشعر المطبوع الذي يجري مع النفس رقة ، ويؤدي عن الضمير ابانة . . . » (١ او « وهذا في قديم الشعر وحديثه ، وطارف الكلام وتليده ، اكثر من ان يحيط به وصف او يأتي من ورائه نعت . » (٢ او « وما سمعت بالطف معنى ، ولا اكمل ادباً ، ولا احسن مذهباً ، في مسائلة الملوك من شبيب بن شبة وقوله لابي جعفر اصلحك الله ، اني احب المعرفة واجلك عن السؤال : فقال له فلان بن فلان » (٣

اما اذا اقتضى الامر شيئاً من الشرح او الاستدلال او الاسهاب فانا نرى ابن عبد ربه يتفلّت شيئاً ما من قيود هـذا التوازن بين العبـارات ، فيرسل الكلام في بعضها ويراعي التوازن في البعض الآخر . قال :

« وما رأيت اعجب من ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب انه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية فنقض في آخره كل ما بنى في اوله . » (٤

وقال في امر اشعر نصف بيت قالته العرب :

« وهذا ما لا يدرك غايته ولا يوقف على حدّ منه والشعر لا يفوت به احد ولا يأتي بـه بديع الا اتى ما هو ابدع منه ولله در القائل اشعر الناس من ابدع في شعره . »(٥

وقال :

«وما سمعت في صفة الدنيا والسبب الذي يحبها له الناس لاجله بابلغ من قول القائل . . فذكر أن الناس بنو الدنيا وما كان الانسان منه فهو محبّب اليه واعلم ان الانسان لا يحب شيئاً الا ان يجانسه في بعض طبائعه وان الدنيا جانست الانسان في طبائعه كلها فاحبهـا بكل اطرافه . » (٦

وقال في باب اخبار خلفاء بني امية في الاندلس :

«ثم ولي الملك القمر الازهر ، الاسد الغضنفر ، الميمون النقيبة (٧ ، المحمود الضريبة (٨ سيد الخلفاء وانجب النجباء عبد الرحمن بن محمد امير المؤمنين . . . فتولى الملك وهي جمرة تحتدم ، ونار تضطرم ، وشقاق ونفاق ، فاخمد نيرانها وسكّن زلازلها ، وافتتحها عودًا كما افتتحها بدءًا سميّه عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله وقد قلت وقيل في «اشعار» [لعلّها زائدة] غزواته كلها اشعار قد جالت في الامصار وشرّدت في البلدان حتى اتهمت وانجدت واعرقت ولولا ان الناس مكتفون بما في ايديهم منها لاعدنا ذكرها او ذكر بعضها ولكنا سنذكر ما

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٢ — ٢) ابن عبد ربه ١ : ٢١٤

٣) 〃 〃 ١ : ٢٨٨ — ٤) 〃 〃 ٢ : ٨٩

٥) 〃 〃 ٣ : ١١٨ — ٦) 〃 〃 ١ : ٢٧٢

٧) وردت خطأ « التقية » والنقيبه بمعنى النفس والعقل .

٨) الضريبة بمعنى السجية والطبيعة

سبق الينا من مناقبه التي لم يتقدمه اليها متقدم ولا اخت لها ولا نظير . » (١

وقال ايضاً :

« ومن مناقبه ان الملوك لم تزل تبني على اقدارها ويقضى عليها بآثارها ، وانه بنى في المدة القليلة ما لم تبن الخلفاء في المدة الطويلة ، نعم لم يبقَ في القصر الذي فيه مصانع اجداده ومعالم اوليته بنية الا وله فيها اثر محدث اما تزييد او تجديد ، ومن مناقبه انه اول من سمي امير المؤمنين من خلفاء بني امية بالاندلس ومن مناقبه التي لا اخت لها ولا نظير ما اعجز فيه من بعده وفات فيه من قبله من الجود الذي لم يعرف لاحد من اجواد الجاهلية والاسلام الا له . »(٢

ويظهر من بعض المواضع في عقده انه كان يرغب في اللفظ السهل قال : « ومن قولنا نمدح رجلاً باستسهال اللفظ وحسن الكلام . »(٣ وانه كان يرغب عن التكلف ، قال :« فانما مدار كل شيء على طبعه والتكلف مذموم من كل وجه . »(٤ وانه كان يحب الايجاز ويرى الفضل كل الفضل فيه قال :« اذ كان اشرف الكلام كله حسناً واوقعه قدراً واعظمه من القلوب موقعاً ، واقله على اللسان عملاً ، ما دلّ بعضه على كله ، وكفى قليله عن كثيره ، وشهد ظاهره على باطنه ، وذلك ان تقلّ حروفه وتكثر معانيه . »(٥ وانه كان يرى للاطناب موضعاً ، ولكنه يفضل الاختصار في الجملة عليه قال :« ومن كلام العرب الاختصار والاطناب والاختصار عندهم احمد في الجملة ، وان كان للاطناب موضع لا يصلح الا له . »(٦ وقد جمع اكثر هذه الامور التي تمثل رأيه في الانشاء بقوله عن كلام الاعراب :« اشرف الكلام حسباً واكثره رونقاً ، واحسنه ديباجة ، واقله كلفة ، واوضحه طريقة . »(٧

والخلاصة انه يستدل مما ذكرنا عن رأي ابن عبد ربه في هذا الموضوع ، ومن هذا القدر القليل من نثره الذي ذكرنا لك بعض نماذج منه [اذا جاز لنا الاكتفاء بها] على ان ميزات اسلوبه الكتابي تشمل الايجاز في الكلام ، وسلامته من الفضول ، وبراءته من التعقيد ، وبعده عن التكلف ، وسهولة

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٢
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٢
٣) 〃 〃 ١ : ٢٠٠
٤) 〃 〃 ١ : ٢٠١
٥) 〃 〃 ٢ : ٢٠٢
٦) 〃 〃 ٢ : ٢٠٢
٧) 〃 〃 ٢ : ٩٢

الفاظه ، وعذوبتها ، واتزان عباراته ، وحسن سبكها ، وعـدم استعمال الغريب من المفردات . وان ابن عبد ربه في نثره ، كمـا سنراه في شعره ، رقيق اللفظ جزله ، واضح التعبير ، سائغ الفهم .

٥

شعره

يقول ابن الفرضي عن ابن عبد ربه «هو شاعر الاندلس واديبها .»[١] ويذكر الفتح بن خاقان ان ابن عبد ربه « حجة الادب ، وان له شعراً انتهى منتهـاه وتجاوز سماك الاحسان وسهاه .»[٢] ويزعم علي بن سعيد المغربي صاحب « عنوان المرقصات والمطربات » ان ابن عبـد ربه « امام اهل ادب المئة الرابعة وفرسان شعرائها في المغرب كله . »[٣] ويروي البعض ان المتنبي انشد شعراً لابن عبـد ربه فصفق بيديه وقال : « يا ابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبواً . »[٤]

واخشى ان تكون آراء هؤلاء كلهم قليلة القيمة عندنا . ذلك لاننـا اذا قرأنا ترجمة هؤلاء المؤرخين والادباء لغير هذا الشاعر وآراءهم في شعره وتقديرهم لمكانته الفينا ان اكثر الذين تُرجمت حياتهم شعراء كبـار ، وان كلًّا منهم « شاعر الاندلس واديبها » وان لكلّ منهم شعراً « انتهى منتهاه وتجاوز سماك الاحسان وسهاه » . نعم لقد تعوّد اكثر هؤلاء القدماء ان يصدروا احكامهم ويقطعوا في الامور التي تعرض امامهم ، دون رويّة واحتياط وايثار للقصـد والاعتدال . فيبالغون في مدح المترجم او يسرفون في ذمـه [اذا كانت لهم غاية في ذمـه] ولا يقضون في حكمهم قضاء نزيهاً بريئاً من اغراضهم الخاصة

---

١) ابن الفرضي ١ : ٣٧

٢) ابن خاقان : ٥١

٣) علي بن سعيد المغربي : عنوان المرقصات والمطربات ، مصر سنة ١٢٨٦ ، ص٥٦

٤) ياقوت ٢ : ٧١ . ويذكر علي بن سعيد المغربي الابيات التي حكم المتنبي بسماعها ان ابن عبد ربه شاعر الاندلس ، صفحة ٥٦

وتأثراتهم الشخصية ، وقليل جدًا من كل هؤلاء من استطاع ان يكون مستقيماً في حكمه ، مقتصدًا في رأيه ، يقضي في هذه المسائل الادبية التي تعرض له من تقدير شعر شاعر ، او نثر ناثر ، والحكم على صاحبه قضاء صحيحاً خالياً من الغرض ، بريئاً من الهوى ، طليقاً من قيود العادات والتقاليد حتى يكون لحكمه وزن ولرأيه قيمة . واذن فعندما نرى هؤلاء يتفقون او يكادون يتفقون على ان ابن عبد ربه صاحبنا هو زعيم شعراء الاندلس فيجب ان لا نقتنع باحكامهم ولا نتقيد بآرائهم ، اذ كل ما يقولون هو انهم سمعوا الناس تقول هذا ، او ارادوا لغرض في نفوسهم ان يكتبوا هذا ، او انهم ، وهو الارجح ، قد تعودوا ان يقولوا في اكثر الشعراء مثل هذا.

خذ الفتح بن خاقان مثلاً وافتح كتابه عرضاً ، وها انا افتح الكتاب كذلك ، وها امامي صفحة ٣٦ ، وفيها ترجمة فقيه . انظر كيف يبدأها : « اي شرف لاهل الاندلس ومفخر واي محتد شيد الاسلام وسحر خلدت منه الاندلس فقيهاً عالماً اعاد مجاهل جهلها معالماً » حتى يقول : « سمع بالاندلس وتفقه حتى صار اعلم من بها وافقه » . انتخب موضعاً آخر من الكتاب وهوذا صفحة ٥٣ تقع تحت نظري وفيها ترجمة فقيه آخر : « امام اللغة والاعراب وكعبة الآداب » . واقرأ في صفحة ٢٨ ترجمته لوزير فقيه : « واحد الاندلس الذي طوقها فخاراً . » او صفحة ٧٤ ، وفيها ترجمة اديب قال عنه : « زهت به الاندلس وتاهت وحاسنت ببدائعه الاشمس وزاهت فحسد المغرب فيه المشرق وغصّ به من بالعراق وشرق . » او صفحة ٩١ وفيها ترجمة شاعر صدرها بقوله : « رافع راية القريض . » وقريباً من هذا كانت احكام ابن الفرضي وكثيرين غيره ممن تعرّضوا لتقدير شعره.

الا انه لم يفت البعض منهم ان يقتصدوا نوعاً ما في مدحهم اياه من هذه الناحية فقد ذكره الضبيّ فقال فيه ما قاله الحميدي . « من اهل العلم والادب والشعر كانت له بالعلم جلالة وفي الادب رياسة وشهرة مع ديانة وصيانة . »[1] وذكره ياقوت فاورد رواية « مدح المتنبي له واكتفى بما قاله الحميدي فيه »[2] .

---

١) الضبي : ١٢٧ ٢) ياقوت ٢ : ٦٨

وذكره ابن خلكان فاشار الى انه له ديوان شعر جيد[١] . وروى بعض اشعاره الثعالبي وقال عنه « احد محاسن الاندلس علماً وفضلاً وادباً ونبلاً » وشعره في نهاية الجزالة والحلاوة وعليه رونق البلاغة والطلاوة.[٢] والغريب ان هؤلاء الذين اعتدلوا في مدحه ، واقتصدوا في نعته ، واكتفى بعضهم بقوله انه من اهل الشعر وذكر البعض الآخر ان له شعراً جيداً ، لم يشر احد منهم الى موضع الجودة في شعره ، ولم يذكر احد منهم من اين كانت له الرياسة والشهرة في الادب ، ولم يتصدَّ احد منهم الى نقد آراء الرواة التي نقلوها عنهم في صدد الحكم على هذا الشاعر . وكم كنا نود لو ذكروا لنا اسباب حكمهم او طرق نظرهم ، او وصفوا لنا موازين تقديرهم للشعر علّنا نستطيع من هذا كله ان نكتشف ما يسهل علينا ان نحكم على شاعرية ابن عبد ربه حكماً عادلاً مستقيماً بعد ان ضاع اكثر شعره الذي يظهر ان بعضهم رجع اليه. قال ابن خلكان: «وله (اي لابن عبد ربه) ديوان شعر جيد.»[٣] وذكر ياقوت ، والضبي عن الحميدي ، ان شعر ابن عبد ربه مجموع ، وان الحميدي رأى منه نيفاً وعشرين جزءاً من جملة ما جمع للحكم بن عبد الله. »[٤]

وليس بين ايدينا الآن من هذا الشعر كله سوى الف واربع مئة بيت ونيف[٥] . ولربَّ معترض يقول ان في هذا القدر من الشعر الكفاية للحكم على صاحبه ، ولكننا لا نرى هذا الرأي ، ولا نصدر حكماً باتاً على شاعر ما قبل ان نطّلع على ديوانه تاماً او على الاقل على القسم الاكبر من شعره. اذ قد يجوز ان يكون الشعر الذي بين ايدينا مما بقي لهذا الشاعر هو من احسن شعره او من ارذله ، وفي كلتا الحالتين لا يمثله تمام التمثيل . زد على ذلك اننا

---

١) ابن خلكان ١ : ٤٥ ٢) الثعالبي ١ : ٤١٢

٣) ابن خلكان ١ : ٤٥ ٤) ياقوت ٢ : ٦٧ ، والضبي : ١٢٧

٥) لقد عُني السيد شفيع بعدّها ، وذكر في مقاله بعجب نامه صفحة ٤١٧ ، ان العقد يضمّ منها ١٣٥٠ بيتاً ، وان في سائر الكتب ٩٢ بيتاً منها ٢٧ في المطمح ، و ١٤ في طبقات الامم ، و ٢ في وفيات الاعيان ، ونحو ٦٠ في اليتيمة . وظاهر ان السيد شفيع اخطأ في حسابها حيث ان مجموع الارقام الاخيرة يبلغ ١٠٣ لا ٩٢ كما وانه قد اهمل نفح الطيب . . . للمقري ففيه شعر لم يذكر في كتاب آخر .

سنضطر ان نسقط من هذا العدد الذي ذكرناه ٤٤٥ بيتاً تألفت منها ارجوزته في غزوات الخليفة الناصر[١] ، وقد مرّ معنا انها ليست من الشعر في شيء ، انما هي تاريخ منظوم . وكذلك سنسقط ايضاً ١٩١ بيتاً تألفت منها ارجوزته في العروض[٢] ، تلك الارجوزة التي يصدق عليها من حيث القيمة الشعرية ما يصدق على اختها التاريخية . وسنسقط ايضاً ٦٣ بيتاً ذكر ابن عبد ربه انه ضمنها في مقطعاته الغزلية عن ضروب العروض واشار الى انه نقلها عن كتاب الخليل في العروض[٣] . فلا يبقى لدينا بعد هذا كله من شعر ابن عبد ربه سوى سبع مئة بيت ونيف . واذن فحكمنا على شاعريته وفنه انما هو يستند الى هـذا القدر القليل ، وهو اذاً عرضة للخطأ ، اذ قد يجوز ان يكون فيما بقي من شعره ما يوصل الى غير هذه النتائج التي سنصل اليها . فلنسجل تحفظنا منذ الآن ونعيد القول ان حكمنا ليس نهائياً ولا باتاً . انما هو قابل « للاستئناف والتمييز » . وعسى ان يكون في طيّات الكتب الخطية المدفونة ما يجلو غامض هذه الناحية يوماً ما .

وبعد فكنّا قد درسنا في حياة ابن عبد ربه شيئاً عن المحيط الـذي نشأ فيه ، فذكرنا قرطبة وما بلغت اليه في ذلك الزمن من الحضارة والرقي ، ومـا كان فيها من ضروب العلم وسبل اللهو ، وأشرنا الى ما كان يحيطها من مناظر طبيعية خلابة من جبال غطّت مناكبها اشجار الورد الـذي كان يرى اصحابه الفضل لمن قطف بيده ما يمنحونه منه ، ونهر ينساب في ربوعها وقد قرّب براه الواحد من الآخر وتقطعت غـدرُه ، وانبسطت على جنباته مروج من الخضرة وبساتين من الفاكهة زادته بهجة ونضارة واكسبته معنى وحلاوةً . وتصدينـا الى المجتمع الذي عاش فيه والناس الـذين احتكّ بهم وعاشرهم في الحلقـات المختلفة من فقهاء وعلماء ، وامراء وخلفاء . والمحنا الى حياة اللهو التي عاشها في شبابه ، والطرق التي سلكها في لهوه ، واشرنا الى بعض المحن التي عرضت له ،

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٢

٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٩١

٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨

وتوصلنا الى فهم بعض نزعاته وميوله ، وطبعه ، وخلقه . وللقارئ ان يقدر تأثير هذه كلها في نفس ابن عبد ربه ، وبالتالي في شعره الذي لم تحفظ لنا الاقدار منه سوى النزر اليسير .

ويتبيّن لنا من هذه الآثار التي بقيت من شعره ان الفنون التي تعرّض لها ابن عبد ربه هي : الهجاء ، والمدح ، والرثاء ، والغزل ، والزهد ، وبالطبع قد تعرّض في سبيل هذه الفنون الى الوصف ، وربما قصر بعض شعره على وصف روضة ما او جنة من تلك الجنات التي عرفت بها قرطبة وما جاورها من بقاع الاندلس ، او على وصف حرب او قتال ، او سيف ، او جواد ، وما الى هذه الامور . اما الموشحات التي ينسبها اليه البعض فلم نقع على اثر لشيء منها في كل المصادر التي بين ايدينا ، وسنعرض لدرس هذا الامر في آخر البحث .

الهجاء

كان ابن عبد ربه يحبّ الهجاء ، وكان يرغب في الدعابة والفكاهة فيه . ترى ذلك واضحاً في عقده ، في هذه المواضع التي تعرّض فيها بالانتقاد للكثيرين من الذين اخذ عنهم كالمبرّد ، وابن قتيبة ، وسيبويه ، او روى لهم نقلاً عن هؤلاء وغيرهم . ولعلّ القارئ لا يزال يذكر انتقاد ابن عبد ربه للمبرّد في صدد ما جمعه الاخير بكتابه الروضة ، وكيف زعم ان المبرّد كان يخطر بكل الاشعار الجميلة التي لا نظير لها فيتخطاها الى التي تجانسه في برده ، وقال : « ما احسبه لحقه هذا الاسم المبرّد الا لبرده » ، ولعله لايزال يذكر ايضاً هذه الناحية من خلق ابن عبد ربه التي اشرنا اليها من حيث حبه التعرّض بالغير في شيء من الانتقاد ، وذكره للروايات المختلفة في ما عيب على الشعراء وغيرهم وتدوينه لكثير من الاشعار التي قيلت في هجو الثقلاء . وقد كان لهذه الناحية من خلقه اثر ظاهر في شعره . ويظهر انه وفق الى حدّ ما في فهم الهجاء على الوجه الذي يجب ان يكون عليه من حيث تصوير المساوئ والتعرّض لاصحابها بشيء من الدعابة والفكاهة ، حتى اذا سمع الهجو سامع استنكر السيئة واستظرف النكتة وضحك مع ناظمها . واليك مثلاً من شعره هذا وقد وقف تحت روشن

قصر في قرطبة لبعض الرؤساء وكان فيه غناء حسن ، فرُش بماء ، فاستدعى رقعة وكتب الى صاحب القصر بهذه القطعة :

يا من يضنّ بصوت الطائر الفرد ، ما كنت احسب هذا البخل في احد !
لو ان اسماع اهل الارض قاطبةً أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزدِ !
فلا تضنّ على سمعي ، تقلّده صوتاً يجول مجال الروح في الجسدِ .
اما النبيذ فاني لست اشربه ، ولست آتيك الا كسرتي بيدي .

وقال يهجو بخيلاً :

لا يفطر الصائم من اكله ، لكنه صوم لمن افطرا
في وجهه من لؤمه شاهد يكفي به الشاهد ان يخبرا
لم يعرف المعروف افعاله قط ، كما لم تنكر المنكرا (١

وقال يهجو آخر :

ما بال بابك محروساً ببوّاب يحميه من طارق يأتي ومنتابِ ؟
لا يحتجب وجهك الممقوت عن احد ، فالمقت يحجبه من غير حجّاب ؛
فاعزل عن الباب من قد ظلّ يحجبه فان وجهك طلّسم على الباب . (٢

وذكر في عقده انه قصد شخصاً ورجاه وامله فما اغناه شيئاً انما كتب اليه بعدةٍ في صحيفةٍ ومطله بها ، فقال فيه :

صحيفة افنيت ليت بها وعسى عنوانها راحة الراجي اذا يئسا .
وعد له هاجس في القدر قد برمت احشاء صدري به من طول ما انحبسا .
مواعد غرّني منها وميضُ سنا حتى مددت اليها الكفّ مقتبسا .
فاصبحت حجراً لو كنت تضربه ، من لؤمه ، بعصا موسى لما انبجسا .
كانما صيغ من بخلٍ ومن كذبٍ فكان ذاك له روحاً ، وذا نفسا .

وقال فيه ايضاً :

صحيفة طابعها اللومُ ، عنوانها بالجهل مختومُ
اهدى لها ، والخلف في طيها ، والمطل والتسويف واللومُ ،
من وجهه نحسٌ ، ومن قربه رجسٌ ، ومن عرفانه شومُ .
لا تحتضم ، ان بتّ ضيفاً له ، فخبزه في الجوف هاضومُ .
تكلمه الالحاظ من رقة ، فهو بلحظ العين مكلومُ .

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٠
٢) « « ١ : ٢٠

لا تأتدم شيئاً على اكله ، فانه بالجوع مأدومُ . (١

وذكر ابن صاعد الاندلسي في طبقات الامم انه كان لابن عبد ربه ابن اخ اسمه سعيد . وكان طبيباً وشاعراً فافتصد يوماً وبعث الى عمه راغباً اليه في ان يحضر عنده مؤانساً له ، فلم يجبه عمه الى ذلك وابطأ عنه فكتب سعيد الى عمه :

لما عدمت مؤانساً وجليسا ، نادمت بقراطاً وجالينوسا ؛
وجعلت كتبهما شفاء تفرّدي ، وهما الشفاء لكل جرح بوسا .
ووجدت علمهما ، اذا حصلته ، يذكي ويحيي للجسوم نفوسا .

فجاوبه ابن عبد ربه احمد :

الفيت بقراطا وجالينوسا لا يأكلان ، ويرزآن جليسا ،
فجعلتهم دون الاقارب جنّة ، ورضيت منهم صاحباً وانيسا .
واظن بخلك لا يرى لك تاركاً حتى تنادم بعدهم ابليسا . (٢

وترى في ردّ ابن عبد ربه ميله الى النكتة في الهجاء ، ومداعبته الشديدة الوطأة لابن اخيه ، ناسباً اليه البخل وزاعماً له ان ذاك سيجرّه الى منادمة ابليس .

وكان يجنح ابن عبد ربه في بعض الاحيان الى النكتة اللاذعة يصوغها بشيء من بذيء اللفظ او يديرها على شيء من سافل المعنى . فقد جرت بينه وبين ابي محمد القلفاط الشاعر مشادّة وخصام أثارهما القلفاط اذ دعا ابن عبد ربه بلقبه (طلاس) ، فاقذع له ابن عبد ربه بالجواب . ثم صنع القلفاط قصيدة في هجو ابن عبد ربه ، وتهاجيا . ثم التقيا مرةً عند بعض الوزراء ، فسأل عن حاليهما فانشد القلفاط بيتاً هجا فيه ابن عبد ربه . غير انه ما كاد يكمله حتى بادره ابن عبد ربه ببيت صبّ فيه جام نقمته عليه فاقذع اشدّ اقذاع ، والقم القلفاط حجراً ، فانقطع خجلاً . ومع ان البيت غاية في الفحش معنى وتعبيراً فانه مثال قوي لقوة النكتة وبراعة صاحبها في ايرادها . وقد ذكره المقّري على عجره وبجره شاهداً على سرعة جواب اهل الاندلس[٣]

١) ابن عبد ربه ١ : ٩٤
٢) ابن صاعد : ٧٩ ، وابن ابي اصيبعة ٢ : ٤٤
٣) المقري ٢ : ٨٢٢ ، و ج II : ٢٠٠ من طبعة اوربة

ومع ان وستنفلد (Wüstenfeld) [1] يرى ان ابن عبد ربه يمتاز بالهجاء، فانا لا نرى له شعرًا كثيرًا في هذا الفنّ يحقّ ان تذكر له فيه هذه الميزة بارزة قوية، غير ناسين اننا لاحظنا في خلقه ميـلًا للتعرض بالغير بشيء من الهجو او الانتقاد.

وكان يخلط هجاءه في بعض الاحيان بشيء من التذمّر من الزمن الـذي عاش فيه. وبذلك تراه شاكياً مثلما تراه هاجياً. وتراه متبرّماً متذمرًا، كما تراه متهجماً مظهرًا نقائص خصمه وعيوبه. واليك قوله في بعضهم:

رجاء دون اقربه السحـابُ، ووعد مثل ما لمع السرابُ،
ودهر سادت العبـدان فيـه وعاثت في جوانبه الذئابُ،
وايـام خلت من كل خير، ودنيا قد تدرعهـا الكلابُ
كلاب لو سألتهم ترابـاً، لقالوا عندنا انقطع الترابُ [2]

وقوله، وقد سأل بعض موالي السلطان اطلاق محبوس فتلكأ فيه:

حاشا لمثلك ان يفـكّ اسيرا! او ان يكون من الزمان مجيرا!
لبست قوافي الشعر منك مدارعاً سودًا، وضلت اوجهاً وصدورا.
هلّا عطفت برحمة لمـا دعت ويلًا عليك مداخمي، وثبورا!
لو ان لؤمك عاد جودًا عشره ما كان عندك حاتم مذكورا. [3]

واليك قوله شاكياً الشيب والحكام:

جار المشيب على رأسي فغيّره، لما رأى عندنا الحكّام قدجاروا [4]

ويتبين من هذا كله ان ما بين ايدينا من شعر ابن عبد ربه في الهجـاء قليل لا يحقّ لنا ان نطلق منه حكماً على صاحبه. واننا نرى من هذا القليل ان ابن عبد ربه قد فهم شيئاً من روح الفن الهجائي من حيث حبه للفكاهة والدعابة في اظهار نقيصة الخصم. غير انه كان يجنح في بعض الاحيـان الى الدعابة اللاذعة التي يشوبها الاقذاع. وسنعرض لديباجة شعره بوجه عام في غير هذا الموضع.

---

١) Wüstenfeld صفحة ٣٥ رقم ١٠٧

٢) ابن عبد ربه ١: ٢٤٠ ٣) ابن عبد ربه ١: ١٠٧

٤) 〃 〃 ١: ٢١٩

المدح

ويصدق على شعر ابن عبد ربه في المدح من حيث قلته وحكمنا عليه ما يصدق على شعره في الهجو. غير اننا نرى في هذه الاشعار القليلة قوة في المعاني، مع طلاوة ورقة تبعثها عاطفة صادقة في كثير من الاحيـان. دخل على القائد ابي العباس فانشده :

الله جرّد للنـدى والبـاس سيفاً، فقلّـده ابا العبّاس.
ملك، اذا استقبلت غرّة وجهه قبض الرجاء اليك روح اليأس،
وبه عليك من الحيـاء سكينةٌ ومحبّـة تجري مع الانفاس.
واذا احبّ الله يوماً عبـده القى عليه محبـةً للناس! (١

وروى في عقده انه سأله حاجة فيها بعض الغلظ فتلكأ عليه فاخذ سحاة من بين يديه، فوقع فيها على البديهة :

ما ضرّ عندك حاجتي؟ ما ضرّها؟ عذراً اذا اعطيت نفسك قدرها!
انظر الى عرض البلاد وطولـها او لست اكرم اهلها وابرّهـا!
حاشا لجودك ان يوعّر حاجتي! ثقتي بجودك سهّلت لي وعرهـا.
لا يجتني حلو المحـامد ماجـدٌ حتى يذوقَ من المطالب مرّها.

فقضى حاجته وسارع اليها[٢]. ومدح احدهم فقال :

كريم على العلّات، جزلٌ عطاؤه، يُنيل، وان لم يعتمد لنوال.
وما الجود من يعطي اذا ما سألته ولكن من يعطي بغير سؤال. (٣

ومدح بعضهم لتواضعه فقال :

فتى زاده عزُّ المهـابة ذلّـةً، فكل عزيز عنـده متواضعُ (٤

ومدح آخر لهيبته فقال :

يـا من يجرّد من بصيرتـه، تحت الحوادث، صارمَ العزمِ،
رعت العدوّ فمـا مثلت لـه الا تفزّع منـك في الحلم.
اضحى لـك التدبير مطرداً مثل اطراد الفعـل للاسم.

---

١) ابن عبد ربه ١ : ١٠١
٢) ابن عبد ربه ١ : ١٠١
٣) 〃 〃 ١ : ٨٨
٤) ابن عبد ربه ١ : ١٥

رفع الحسود اليك ناظره فرآك مطلعاً مع النجم.(١

ومدح آخر باستسهال اللفظ وحسن الكلام فقال :

قول كأن فرنده شحذ على ذهن اللبيب.
لا يشمئز على اللسا نِ، ولا يشذّ على القلوب.
لم يغل في شنع اللغا تِ، ولا يوحش بالغريب.
سيف تقلّد مثله عطف القضيب على القضيب.
هذا تجذ به الرقا ب، وذا تجذ به الخطوب.(٢

ومدح بعضهم فقارن بين خلائقه وبين زهر الروض، قال :

وما روضة بالحزن حاك لها الندى برودًا من الموشي حمر الشقائق،
يقيم الدجى اعناقها، ويميلها شعاع الدجى المستنّ في كل شارق،
اذا ضاحكتها الشمس تبكي بأعين مكللة الاجفان صفر الحمالق،
حكت ارضها لون السماء، وزانها نجوم كامثال النجوم الخوافق،
باطيب نشرًا من خلائقه التي لها خضعت في الحسن زهر الخلائق.(٣

وكان يشوب شعره في المدح في بعض الاحيان شيء من المبالغة، شأن اكثر الشعراء في عصره . وقد مدح الخليفة عبد الرحمن الناصر باشعار كثيرة فيما يقول جالت في الامصار وشرّدت في البلدان حتى اتهمت وانجدت واعرقت[٤] . غير انه يسكت عن ذكر اكثرها ويكتفي بتدوين بعضها في عقده . ومن هذا القليل قوله من قصيدة :

يا ابن الخلائف، ان المزن لو علمت نداك، ما كان منها الماء ثجاجا.
والحرب، لو علمت بأسا تصول به، ما هيجت من جبال الدين اهياجاً.

الى ان يقول :

ادخلت في قبة الاسلام مارقة اخرجتها من ديار الشرك اخراجا،
بجحفل تشرق الارض الفضاء به كالبحر يقذف بالامواج امواجا،
يقوده البدر يسري في كواكبه عرمرماً كسواد الليل رجراجا؛
تروق فيه بروق الموت لامعة، ويسمعون به للرعد اهزاجا.
غادرت في عقرتي جيان ملحمة ابكيت منها بارض الشرك اعلاجا.
في نصف شهر تركت الارض ساكنة، من بعد ما كان فيها الطير قد ماجا،

---

١) ابن عبد ربه ١ : ١٦
٢) ابن عبد ربه ١ : ٢٠٠
٣) « « ٣ : ١٨٧
٤) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٢

وجدت في الخبر المأثور منصلتاً   من الخلائف خرّاجا وولّاجا ،
فلا بك الارض عدلاً ، مثل ما ملئت   جوراً ، وتوضح للمعروف منهاجا .
يا بدر ظلمتها ، يا شمس صبحتها ،   يا ليث حومتها ، ان هائج هاجا ،
ان الخلافة لن ترضى ، ولا رضيت ،   حتى عقدت لها في رأسك التاجا .(١

اما مديحه للخليفة الناصر هذا ، الذي تركه لنا في ارجوزته التاريخية الحاوية ذكر الغزوات التي قام بها الخليفة المذكور ، فليس من مستوى هذه الابيات التي ذكرنا ، ولا ترى فيه قوّة العاطفة او الخيال كما تراهما في غيره :

اقول في ايام خير الناس ،   ومن تحلّى بالندى والباس ،
ونحن في حنادس كالليل ،   وفتنة مثل زهاء السيل ،
حتى تولى عابد الرحمن ،   ذاك الاغر من بني مروان ،
خليفة الله الذي اصطفاه   على جميع الخلق ، واجتباه
من معدن الوحي وبيت الحكمة ،   وخير منسوب الى امية
تكلّ عن معروفه الجنائب ،   وتستحي من جوده السحائب .
في وجهه من نوره برهانُ ،   وكفّه لعقله قربان .
احيا الذي مات من المكارم ،   من عهد كعبٍ ، وزمان حاتم ،
مكارم يقصر عنها الوصفُ ،   وغرة يحسرُ عنها الطرفُ ،
وشيمة كالصاب ، او كالماء ،   وهمة ترقى الى السماء .
وانظر الى البديع من بيانه   يريك بدعاً من عظيم شانه .
لو كايل البحر ندى يديه ،   اذ لجأت عفاته اليه ،
لغاض ، او لكاد ان يغيضا ،   ولاستحى من بعد ان يفيضا .
من اسبغ النعمى ، وكانت محقا ،   ورتق الدنيا ، وكانت فتقا .
هو الذي جمع شمل الامه ،   وجاب عنها دامسات الظلمه ،
وجدّد الملك الذي قد اخلقا ،   حتى رست اوتاده واستوثقا .(٢

ولعلّ هذه الابيات خير ابيات في المدح في ارجوزته . فاننا اذا تجاوزناها الى قلب الارجوزة نرى التكلف في المدح ، وضعف العاطفة والخيال والمعاني :

وبعدها غزاة ثنتي عشره   وكم بها من خبرة وعبره !
غزا الامام ، حوله كتائبُ ،   كالبدر محفوفاً به الكواكب ،
غزا ، وسيف النصر في يمينه ،   وطالع السعد على جبينه ،

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٣–٢٦٣
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٤

الى ان يقول :

فاجتمعت عليه كل الامه ، وبايعته امراء الفتنه . (١

والذي اراه ، وذكرته في غير هذا الموضع ، ان الارجوزة على وجه عام نظمٌ اكثر منها شعرًا . ولابن عبد ربه غير الارجوزة ، وغير الشعر الذي ذكرنا ، مدحٌ في الخليفة الناصر وغيره يخالطه وصف دقيق للحرب ربما اتينا على ذكر بعضه في بحثنا عن الوصف في شعر ابن عبد ربه .

الزهد

اما شعره في الزهد فقد كان اكثره متكلفاً . ويكفي ان تعلم انه كان في زهده يعارض نفسه في غزله . فيأخذ قصيدته في الغزل ، وينقضها بأخرى في الزهد على نفس الوزن والقافية حدث في شبابه انه كان له محبوب عزم على الرحيل في غد يوم ، فاستولى الحزن على الشاعر . ولما اصبح اتت السماء بمطر جود حال دون السفر ، فكتب ابن عبد ربه :

هلّا ابتكرت لبينٍ انت مبتكرُ ! هيهات يأبى عليك اللهُ والقدرُ !
ما زلت ابكي حذارَ البين ، ملتهباً حتى رثى لي فيك الروحُ والمطرُ .
يا برده من حيا مزن على كبدي ! نيرانُها بغليل الشوق تستعرُ .
آليت الا ارى شمساً ، ولا قمرًا ، حتى اراك ، فانت الشمس والقمرُ . (٢

كان هذا في صباه . فلما زهد في كبره عمد الى هذه الاشعار فمحصها باخرى في الزهد ومحّص ابياته هذه بقوله :

يا قادرًا ليس يعفو حين يقتدر ، ماذا الذي بعد شيب الراس تنتظر ؟
عاينْ بقلبك ان العين غافلة عن الحقيقة ، واعلم انها سقر ،
سوداء ترفر من غيظ ، اذا سفرت للظالمين ، فلا تبقي ولا تذر .
لو لم يكن لك غير الموت موعظة لكان فيه عن اللذات مزدجرُ !
انت المقول له ما قلت مبتدئاً : هلّا ابتكرتَ لبين انت مبتكر (٣

ويظهر التكلف في شعره في الزهد ، عندما يعمد الى كلام بعض الذين

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٧٢ ٢) الضبي : ١٣٨

٣) ابن خاقان : ٥٢ اما الضبي : ١٢٩ فيروي « يا عاجزًا » . . . ولا تقضى له من عيشه وطرُ . ويذكر بدل ترفر في البيت الثالث تسفر .

سبقوه من الائمة او الفقهاء فينظمه شعرًا قال: « قال الحسن:

« ابن آدم لست بسابق أجلك ولا ببالغ املك ولا مغلوب على رزقك ولا بمرزوق ما ليس لك فعلامَ تقتل نفسك » ، اخذت هذا المعنى فنظمته في شعري فقلت:

لست بقاضٍ املي ، ولا بعاد اجلي ،
ولا بمغلوب على الـ(م) رزق الذي قُدّر لي ،
ولا بمعطى رزق غيـ(م) ري بالشقا والعمل ،
فليت شعري ما الذي ادخلني في شغلي! »[1]

ولعلّ ابن عبد ربه قد تأثر بابي العتاهية في زهده. وقد شابهه بالرجوع عن حياة اللهو الى الزهد ، او ان شئت فقل شابهه بالرجوع عن شعر في اللهو الى شعر في الزهد ، وما اكثر ما يستشهد باشعار ابي العتاهية في العقد في مواضيع الزهد ، وما اكثر ما يردفها بابيات له في الموضوع نفسه فيذمّ الدنيا والزمان الذي عاش فيه ، كما كان يذم ابو العتاهية دنياه وزمانه ، ويذكر الموت ويدعو الى الالتفات الى الحياة الآخرة ، كما كان يفعل ابو العتاهية. وأخشى ان المقام لا يتسع لذكر هذه الاشعار وما يقابلها من شعر ابي العتاهية. ولكن من الخير ان ترجع الى بعضها في العقد[2].

ومن دعوة ابن عبد ربه الى ذم الدنيا والزهد فيها قوله:

الا انما الدنيا نضارة ايكةٍ اذا اخضرّ منها جانب ، جفّ جانبُ.
هي الدار ، ما الآمال الا فجائع عليها ، ولا اللذات الا مصائبُ.
فكم سخنت بالامس عين قريرة! وقرت عيون دمعها اليوم ساكبُ!
فلا تكتحل عيناك فيها بعبرةٍ على ذاهب منها ، فانك ذاهبُ! »[3]

ولم يكن كل شعر ابن عبد ربه في الزهد متكلفاً. بل كان منه ما يمثل عاطفة رجل تائب نادم. وكان منه ما حرض نفسه فيه على التوبة الخالصة ، مذكرًا اياها بوعد الله ، ومهددًا اياها بدنوّ الموت. قال:

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٣٨٨

٢) « « ١ : ٢٨٠،٢٧٩،٢٧٧،٢٧٦،٢٧٣،٢٧٢،٢٤٠

٣) « « ١ : ٢٧٢. اما الثعالبي ١ : ٣٦٢ فيورد « عين » و« عيون » في البيت الثالث منصوبتين على التعدية : « وغضارة » في البيت بدل « نضارة »

بادر الى التوبة الخلصاء ، مبتدئاً ، والموت ، ويحك ، لم يمدد اليك يدا.
وارقب من الله وعداً ليس يخلفه ، لا بدّ لله من انجاز ما وعدا ! (١

وقال ايضاً :

يا ويلنا من موقف ما به أخوف من ان يعدل الحاكمُ !
ابارز الله بعصيانه ، وليس لي من دونه راحمُ ،
يا ربّ ، غفرانك عن مذنب أسرف ، الا انه نادمُ ! (٢

وله في البكاء من خوف العقاب :

مدامع قد خدّدت في الخدود ، وأعين مكحولة بالهجود ،
ومعشر اوعدهم ربهم فبادروا خشية ذاك الوعيد ،
فهم عكوف في محاربيهم يبكون من خوف عقاب المجيد ،
قد كاد ان يعشب من دمعهم ما قابلت اعينهم في السجود . (٣

وقال ايضاً مذكراً نفسه بقرب الاجل ، وناهياً اياها عن سبل الضلال :

اتلهو بين باطيةٍ وزيرٍ ، وانت من الهلاك على شفيرِ ؟
فيا من غرّه امل طويل يؤديه الى اجل قصير ،
اتفرحُ ، والمنيّة كل يومٍ تريك مكان قبرك في القبور ؟
هي الدنيا ، فان سرتك يوماً ، فان الحزن عاقبة السرور .
ستسلب كل ما جمعت منها كعارية تردّ الى المعير ،
وتعتاض اليقين من التظني ، ودار الحق من دار الغرور . (٤

الغزل

واذا تركنا هذه الفنون الى الغزل نرى ان ابن عبد ربه قد ضرب فيه بسهم كبير ، واكثر شعره المتحدّر الينا في يتيمة الثعالبي وفي العقد يدور على الغزل . ويظهر ان اكثر التقريظ الذي ناله ابن عبد ربه من القدماء انما كان لشعره في الغزل . وقد كانت الابيات التي روى الرواة انها اطربت المتنبي حتى صفق بيديه واستعادها من راويها وقال : « يا ابن عبد ربه ، لقد تأتيك العراق حبواً » في باب الغزل الذي لم يطرقه المتنبي نفسه كثيراً :

يا لؤلؤاً يسبي العقول انيقا ، ورشا بتقطيع القلوب رفيقا ،

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٧ وقابله ايضاً بابيات ابي العتاهية (ابن عبد ربه ١ : ٢٨٠)
٢) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٦ ٣) ابن عبد ربه ١ : ٢٨٤
٤) ابن عبد ربه ١ : ٢٨٠

ما ان رأيت ، ولا سمعت بمثله   درًّا يعود من الحياء عقيقا .
واذا نظرتَ الى محاسن وجهه   ابصرتَ وجهك في سناه غريقا ،
يا من تقطع خصره من رقّة ،   ما بال قلبك لا يكون رقيقا .[١]

واكثر شعره الذي يذكره له مترجموه انما هو في الغزل . فقد نقل ابن خلكان بعض المقاطيع من شعره اكثرها في الغزل ، وما نقله ابن خاقان اكثره في الغزل . ولعلّ تقريظه له بقوله عنه « ان له شعرًا انتهى منتهاه وتجاوز سماك الاحسان وسهاه » كان لشعره في الغزل حيث انه يستشهد بعد تقريظه هذا بابيات في الغزل[٢] .

واذا درسنا هذا الشعر الغزلي الذي بقي وتحدّر الينا عنه نرى انه لم يخلُ في كثير من المواضع من التكلف الذي صبغ به بعض شعره في الزهد والمدح . ذلك ان اكثر المقطوعات الغزلية التي بين ايدينا قد نظمت فيما يظهر لغاية علمية لا تعبّر عن عقيدة صادقة او عاطفة صحيحة . فالقسم الاول من المقطوعات (وهو نحو ٣٠٠ بيت) قد نظم ليكون مثالًا على ضروب العروض المختلفة ، وقد ضمّنت كل قطعة منها بيتاً قديماً من الابيات التي استشهد بها الخليل في عروضه[٣] . وقيد ابن عبد ربه نفسه في ان ينظم كل مقطوعة على بحر البيت الذي استشهد به الخليل وقافيته ، وان تكون المقطوعة متضمنة للبيت ومتصلة به وداخلةً في معناه[٤] . وليس هذا بالقيد اليسير . وكذلك قل في القسم الثاني من المقطوعات (ويضم نحو ٢٠٠ بيت) فان ابن عبد ربه قد وضع اجزاءه على تأليف حروف الهجاء ، فاتى بالمقطوعة الاولى على قافية الهمزة ، وبالثانية على الباء ، وبالثالثة على التاء ، وهلم جرًّا . وفي هذا من التقيد ما به . زد على هذا كله ان عدد الابيات في كل مقطوعة معيّن لا يمكن تجاوزه . فهو خمسة في القسم الاول آخرها البيت المضمّن ، واربعة في القسم الثاني . وكل هذه قيود فوق قيود . والذي يظهر لنا ان ابن عبد ربه قد قصد الى الغزل في هذه المقطوعات لغاية

---

١) ابن خاقان : ٥٢ ، وياقوت ٢ : ٦٧
٢) 〃 〃 ٥١–٥٢
٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨
٤) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨

علمية صرّح بها وهي ان يكون حفظها سهلاً على السنة الرواة[٢]. وهاك بعض نماذج منها :

الخفيف : العروض التام — الضرب التام الجائز فيه التشعيث :

انت دائي ، وفي يديك دوائي ،   يا شفائي من الجوى ، وبلائي ،
ان قلبي يحبّ من لا اسمّي   في عناء ، اعظم به من عناء !
كيف لا ؟ كيف أن الذ بعيش ؟   مات صبري به ، ومات عزائي .
ايها اللائمون ، ماذا عليكم   ان تعيشوا ، وان اموت بدائي ؟
« ليس من مات فاستراح بميت   انما الميت ميّت الاحياء » (٤

شطر الخفيف : العروض المجزوء الضرب :

ما لليلى تبدلت ،   بعدنا ودّ غيرنا ،
ارهقتنا ملامة ،   بعد ايضاح عذرنا .
فسلونا عن ذكرها ،   وتسلّت عن ذكرنا .
لم تقل ، اذ تحرمت   واستهلت بهجرنا ،
« ليت شعري ماذا ترى   ام عمرو في امرنا . » (٥

شطر المقتضب : له عروض واحد مجزوء مطوي وضرب مثل عروضه وهو :

يا مليحة الدعج ،   هل لديك من فرج ؟
ام تراك قاتلتي   بالدلال والغنج ؟
من لحسن وجهك من   سوء فعلك السمج ؟
عاذليّ ، حسبكما !   قد غرقت في لجج .
« هل عليّ ، ويحكما   ان لهوت من حرج » (٦

مقطعات على تأليف حروف الهجاء ، وضروب العروض الاول من الطويل سالم :

وازهر كالعيّوق يسمى بزهراء   لنا منها داء ، وبرء من الداء .
الا بابي صدغ حكى العين عطفه ،   وشارب مسك قد حكى عطفة الراء .
فما السحر ما يعزى الى ارض بابل ،   ولكن فتور اللحظ من طرف حوراء .
وكف ادارت مذهب اللون اصفرا   بمذهبة في راحة الكف صفراء

الضرب الثاني من الطويل مقبوض :

معذبتي رفقاً بقلب معذبِ ،   وان كان يرضيك العذابُ ، فعذّبي !

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨   ٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢١٢
٣) « « ٣ : ٢١٤   ٤) « « ٣ : ٢١٥

لعمري ، لقد باعدت غير مباعد ، كما انني قربت غير مقرّبِ .
بنفسي بدرٌ اخمد البدر نوره ، وشمس متى تبدو الى الشمس تغربِ ،
لو ان امرء القيس بن حجر بدت له لما قال : « مرّا بي على ام جندب » .

الضرب الثالث من الطويل المحذوف المعتمد :

محب طوى كشحاً على الزفرات ، وانسان عين خاض في غمراتِ ،
فيا من بعينيه سقامي وصحتي ، ومن في يديه ميتتي وحياتي ،
بحبك عاشرت الهموم صبابةً ، كأني لها تربٌ ، وهنَّ لداتي .
فخدّي ارض للدموع ، ومقلتي سماء لها تنهلّ بالعبرات . (١

وترى اثرًا آخر للتكلف في شعره الغزلي في غير هذه المقطوعات نتج عن تحدّيه لبعض شعراء المشرق ومحاولته تقليدهم او معارضتهم في بعض الاحيان . منه ما يتعلق باستعماله بعض انواع البديع على طريقة ابي تمام ومسلم بن الوليد اللذين اكثر من رواية شعرهما في عقده . ومنه ما يتعلق بتضمينه بعض التعابير ، او استعارته بعض المعاني المألوفة عن هذين الشاعرين وغيرهما . غير انه كان في طبيعته فيما يظهر ، وفي بيئته الخاصة ومحيطه العام ، ما جعله يختلف عن هؤلاء من نواحٍ كثيرة . بل انه كان في معارضته بعضهم يخرج عن التقليد . فلقد اورد اشعارًا في رقة التشبيب لشعراء من المشرق منهم العباس بن الاحنف ، وجميل بن معمر ، وعمر بن ابي ربيعة ، وقال عن بعضها انها من الشعر المطبوع الذي يجري مع النفس رقة ويؤدي عن الضمير ابانةً . ثم ذكر في آخر هذا الباب اشعارًا له صدرها بقوله : «ومن قولنا في رقة التشبيب والشعر المطبوع الذي ليس بدون ما تقدم ذكره » ويظهر من هذه الاشعار معان جديدة ليست حقًّا دون ما نقل لهؤلاء الشعراء منها :

صحا القلب الا خطرة تبعث الأسى لها زفرة موصولة بحنينِ .
بلى ربما حلّت عرى عزماته سوالفُ آرام ، واعين عينِ ،
لواقط حبات القلوب ، اذا رنت بسحر عيون وانكسار جفونِ .
وريط من الموشي ابنع تحته ثمار صدور لا ثمار غصون .
برودٌ كانوار الربيع لبسنها ثياب قصاب لا ثياب مجونِ ،
فرين اديم الليل عن نور اوجه تجنّ بها الالباب كلّ جنونِ ،

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٤ و ٢٢٥ ، وليلاحظ انا اوردنا ٣ مقطوعات على الاحرف الثلاثة الاول متتابعة

وجوه جرى فيها النعيم ، فكللت ... بورد خدود يجتنى وعيون .
سالبس للايام درعاً من الاسى ، ... وان لم يكن عند اللقا بحصين .
فكيف ، ولي قلب اذا هبت الصبا ... اهبَّ بشوقٍ في الضلوع دفين !
ويهتاج منه كل ما كان ساكناً ... دعاء حمام لم يبت بوكون .
وان ارتياحي من بكاء حمامةٍ ... كذي شجن داويته بشجون .
كأن حمام الايك ، حين تجاوبت ، ... حزين بكى من رحمةٍ لحزين (١

ويصدق على لاميته التي عارض بها صريع الغواني (مسلم بن اوليد) ما صدق على قصيدته هذه قال : ومما عارضت به صريع الغواني في قوله :

اديرا علي الراح ، لا تشربا قبلي ، ... ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي .
فيا حزني اني اموت صبابةً ، ... ولكن على من لا يحلّ له قتلي .
فديتُ التي صدت وقالت لتربها : ... دعيه، الثريّا منه اقرب من وصلي .

فقلت على رويّه :

اتقتلني ظلماً ، وتجحدني قتلي ، ... وقد قام من عينيك لي شاهدا عدلِ ؟
اطلاب ذحلي ، ليس بي غيرُ شادنٍ ... بعينيه سحرٌ ، فاطلبوا عنده ذحلي .
اغار على قلبي ، فلما اتيته ... أطالبه فيه ، اغار على عقلي .
بنفسي التي ضنّت بردّ سلامها ، ... ولو سألت قتلي وهبتُ لها قتلي .
اذا جئتها ، صدّت حياء بوجهها ، ... فيمجبني هجر الذّ من الوصل .
وان حكمت ، جارت عليّ بحكمها ... ولكن ذاك الجور اشهى من العدل .
كتمت الهوى جهدي ، فجرّده الاسى ... بماء البكا : هذا يخطّ ، وذا يملي .
واحببت فيها العذل حباً لذكرها ، ... فلا شيء اشهى في فؤادي من العذل .
اقول لقلبي ، كلما ضامه الاسى : ... اذا ما أبيت العز فاصبر على الذلّ !
برايك ، لا رأيي ، تعرّضتَ للهوى ، ... وامرك ، لا امري ، وفعلك ، لا فعلي .
وجدت الهوى نصلاً من الموت مغمداً ، ... فجرّدته ، ثم اتكيت على النصل .
فان تك مقتولاً ، على غير ريبة ، ... فانت الذي عرضت نفسك للقتل . (٢

وقد اعجب ابن عبد ربه في قصيدته هذه ايضاً حتى انه قال :

« فمن نظر الى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه لم يفضل شعر صريع عنده الّا بفضل التقدم ولاسيما اذا قرن قوله في هذا الشعر :

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٤ ، والثعالبي ١ : ٣٦٢

٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٥ ولقد اورد الثعالبي هذه الابيات في يتيمته (١ : ٤٢٠) انما كثر فيها التصحيف والتحريف فترى « دخلي » في موضع « ذحلي » (ثأري) - و« البلا » بدل « البكا » - و« اشقى » بدل « اشهى » - غير اننا آثرنا نقل « فيمجبني هجر » في البيت الخامس عن اليتيمة ، وهي في العقد فتهجرني هجراً .

كتمت الذي القى من الحب عاذلي ، فلم يدر ما بي ، فاسترحت من العذل .
بقولي في هذا الشعر :
واحببت فيها العذل حباً لـذكرها ، فلا شيء اشهى في فؤادي من العذل . (١

ويجب ان نذكر هنا ان ابن عبد ربه — على هذه القيود المختلفة التي قيّد بها نفسه — قد وفق في بعض مقطوعاته الغزليه . وليس غريباً ان يكون بعض الشعر الموضوع لغرض خاص علمي او مادي ممثلاً لعاطفة صادقة قويّة . فقد يكون بعض شعر المدح مأجوراً ويكون بالوقت نفسه صادق العاطفة صحيح العقيدة . ويكون بعض شعر الغزل تمثيلاً وتخيلاً ويكون جميل الصورة قويّ الخيال ، سائغ المعاني ، صحيح العاطفة ، صادراً عن نفس حساسة تتمثل ما الفته وعانته فتحسن التعبير عنه . وقد لاحظنا ان ابن عبد ربه قد وفق في معارضته لصريع على تأثره له من ناحية القافية والبحر وبعض الالفاظ والمعاني والاستعانة بالبديع وعلى كونه لم ينظم معارضته هذه اثر حادثة خاصة مع حسناء خاصة . ولعل من الخير ان نروي لك بعض هذه المقطوعات :

من محبّ شفّه سقمه ، وتـلاشى لحمه ودمـه ،
كاتب حنت صحيفته ، وبكى من رحمـة قلمه ،
يرفع الشكوى الى قمر ينجلي عن وجهه ظلمه .
من لقرن الشمس جبهته ، ولـلمع البرق مبتسمه .
خلّ عقلي يا مسفّهه ، ان عقلي لست اتهمه .
« للفتى عقل يعيش بـه حيث تهدي ساقه قدمه . » (٢

وقوله :

اعطيتُه مـا سألا ، حكمته لو عدلا .
وهبته روحي ، فـما ادري به مـا فعلا ؟
اسلمتـه في يـده عيّشه ام قتـلا ،
قلبي بـه في شغل لا ملّ ذاك الشغـلا
« قيّـده الحب كما قيَّد راعٍ جملا » (٣

وقوله :

يا مقلة الرشأ الغرير ، وشقة القمر المنير ،

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٥ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٠١
٣) ابن عبد ربه ٣ : ٢٠٨

ما رنقت عيناك لي ، بين الاكلة والسنور ،
الا وضعت يدي على قلبي ، مخافة ان يطير.
هبني كبعض حمام مكـ ـة ، واستمع قول النذير :
« أبنيّ لا تظلم بمكـ ـة لا الصغير ولا الكبير » (١

واذا تعدّينا هذه المقطوعات التي لم يوفق في اكثرها ، وجزنا هـذا الشعر الذي تحدّى فيه بعض شعراء المشرق مكتفياً بتقليدهم ، ودرسنا ما بقي من شعره الغزلي نرى فنه هذا واضحاً جلياً. وهو في هذا الشعر يمثل الفن الاندلسي بوجه عام من حيث تفوقهم بالوصف والخيال ، ومن حيث الجزالـة والسهولـة باللفظ والرقة واللين والعذوبة ، وعدم تحميلهم اياه اكثر مما يطيق من المعاني . ونرى في شعره هذا عاطفة قويّة صادقة لم نعرف مثلها في شعره في الهجاء والمدح والزهد واسمع قوله في الفراق :

ودعتني بزفرة واعتناق ، ثم نادت : متى يكون التلاقي !
وتصدّت ، فاشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والاطواق .
يا سقيم الجفون من غير سقم ، بين عينيـك مصرعُ العشّاق .
ان يوم الفراق افظعُ يوم . ليتني مت قبل يوم الفراق ! (٢

او قوله :

هيّج البين دواعي سقمي ، وكسا جسمي ثوبَ الالم .
ايهـا البين ، أقلني مرةً ، فاذا عدت فقـد حلّ دمي .
يا خليّ الذرع ، نَم في غبطة ، ان من فارقته لم ينم .
ولقـد هاج لقلبي سقماً ذكرُ مَن لو شاء داوى سقمي (٣

تحسّ ان هذه العاطفة قوية عنيفة ، وهذه المعاني سائغة محبّبة الى النفس ، مع انها تصف الم الفراق ، وترَ هذه الالفاظ رقيقة عذبة سهلة ملائمة موضوعها.

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٠٦ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٢

٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٢ ؛ اما الثعالبي (١ : ٢٥٧) فيروي هذه الابيات والتي سبقتهـا لرجل باسم « حبيب بن احمد الاندلسي » . ولعله قد اخطأ في نقله الاسم فقلب « احمـد بن حبيب الاندلسي » الى ما ترى . لاسيا وان ابن عبد ربه يقول في عقـده عن هذه الابيات « ومن قولنا في البين » وقد اشرنا قبلًا الى ان الثعالبي جعل من ابن عبد ربه صاحبنا شخصين فذكر اشعارًا للاول (١ : ٢٦٠) وسماه احمد بن عبد ربه الاندلسي وذكر الثاني باسم احمد بن محمد بن عبد ربه وروى له اشعارًا في (١ : ٤١٢) والاشعار في كلا الموضعين مذكور اكثرها في العقد منسوبة لصاحبه ابن عبد ربه

ونظرت اليه فتاة تبكي فقال فيها شعراً منه :

وكأنما غاص الأسى بجفونها حتى اتاك بلؤلؤ منثور [١]

وفي هذا البيت تعبير جميل لمعنى مألوف وضعه بشكل يكاد يكون مبتكراً تخيّل فيه الاسى غوّاصاً في الجفون عائداً بلؤلؤ منثور . وقد اعجب هو نفسه بشعره هذا ، وقال عنه «انه من رقة التشبيب وحسن التشبيه والبديع الذي لا نظير له والغريب الذي لم يسبق اليه .» [٢]

وقال ايضاً :

ادعو عليك ، فلا دعاء يسمع ، يا من يضرّ بناظريه ، وينفعُ .
للورد حينٌ ليس يطلع دونه ، والورد عندك كل حين يطلعُ .
لم تنصدع كبدي عليك لضعفها ، لكنها ذابت ، فما تتصدع .
من لي باجرد ما يبين لسانه خجلاً ، وسيف جفونه ما يقلع ،
منع الكلام سوى اشارة مقلةٍ فبها يكلمني ، وعنها يسمع [٣]

وله ابيات نختم بها كلمتنا في شعره الغزلي ، لا يكاد يفرغ منها القارئ الا ويحسّ بالاعجاب فيها ويشعر ببراعة ابن عبدربه في التعبير عن شعوره وحبه .

بزمام الهوى امتُّ اليه ، وبحكم العقار اقضي عليه ،
بابي من زها عليَّ بوجهٍ كاد يدمى لمّا نظرت اليه !
ناول الكاس واستمال بلحظٍ فسقتني عيناه قبل يديه . [٤]

الرثاء

اما شعره في الرثاء فيكاد ينحصر باهله وذويه ، وبالاخص بمن فقد من بنيه . ومع ان هذه القصائد قليلة جداً ، فان الواقف عليها لا يستطيع ان يكتم اعجابه في قوة معانيها ومبانيها . ولعلي لا ابالغ اذا قلت ان ارقّ شعر له واصدقه عاطفة واقواه شعوراً هو شعره في مرض والديه ورثائهما . وترى ان ابن عبد ربه في احدى هذه القصائد ذا نفس حساسة متألمة ينظر الى ابنه المريض يتقلب على فراش الموت بين يديه ، وقد اعيا الطبيب مرضه ، فيبعث في ذلك الظلام دُعاء الى الله من قلب يتحرك بعاطفة عنيفة صادقة كلها حب

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٦ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٦
٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٦ ٤) الثعالبي ١ : ٢٦١

ورحمة وحنان وامل :

« بنيّ ، لئن اعيا الطبيب بن مسلم ضناك ، واعيا ذا البيان المشيّعِ ،
لابتهلنّ ، تحت الظلام ، بدعوةٍ متى يدعُها داعٍ الى الله يسمعِ ،
تغلغل من بين الضلوع نشيجُها ، له شافع من عبرةٍ وتضرعِ
الى فارج الكرب المجيب لمن دعا فزعت بكربي ، انه خير مفزعِ !
فيا خير مدعوٍّ ، دعوتك ، فاستمع! وما لي شفيعٌ غير فضلك ، فاشفعِ ! »[١]

ويراه ميتاً امامه ثاوياً في قبره فتتقطع كبده وتذوب حشاه ويهلع فؤاده ويكاد يموت عليه كمدًا :

واكبدا ! قد تقطعت كبدي ! قد حرقتها لواعج الكمدِ !
ما مات حيٌّ لميت اسفًا اعذر من والدٍ على ولد .
يا رحمة الله ، جاوري جدثًا دفنت فيه حُشاشتي بيدي .
ايّ حشًا لم يذب اسفا ؟ واي عين عليه لم تجدِ ؟
لا صبر لي بعده ، ولا جلد ، فجعت بالصبر فيه والجلد .
لو لم امت عند موته كمدًا ، لحق لي ان اموت من كمد .
يا لوعةً لا يزال لاعجها يقدح نار الاسى على كبدي .[٢]

وتمر الايام فتعاوده ذكراه المؤلمة ، فيتمنى لو يموت ويطوي موضعه ويدرج في اكفانه :

بليت عظامك ، والاسى يتجدّد ، والصبر ينفد ، والبكا لا ينفد !
يا غائبًا لا يرتجى لايابه ولقائه ، دون القيامة ، موعدُ ،
ما كان احسن ملحدًا ضمنته ، لو كان ضمّ اباك ذاك الملحدُ !
باليأس اسلو عنك ، لا بتجلّدي . هيهات ! اين من الحزين تجلّدُ !

[٣]

وله فيه ايضاً :

يا سيدي ومزاج الروح في جسدي ، هلّا دنا الموت مني حين منك دنا !
حتى يضمّ بنا في قعر مظلمة لحدٌ ، ويلبسنا في واحد كفنا !
يا اطيب الناس روحاً ضمّه بدنٌ ، استودع الله ذاك الروح والبدنا !
لو كنت اعطى به الدنيا معاوضةً منه ، لما كانت الدنيا له ثمنا .[٤]

اما ولده الآخر فقد تناوله الموت وهو طفل ، ولم يكن جزعه عليه باقل من جزعه على اخيه الاكبر :

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٩٨
٢) ابن عبد ربه ٢ : ١٣
٣) ابن عبد ربه ٢ : ١٣
٤) ابن عبد ربه ٢ : ١٥

على مثلها من فجعة خانك الصبر ! فراق حبيبٍ دون اوبته الحشرُ !
ولي كبد مشطورة في يد الاسى : فتحت الثرى شطر ، وفوق الثرى شطرُ .
يقولون لي : صبرٌ فؤادك بعده . فقلت لهم : ما لي فؤادٌ ، ولا صبرُ .
فُريخ من الحمر الحواصل ما اكتسى من الريش حتى ضمه الموت والقبرُ .
اذا قلت : اسلو عنه ، هاجت بلابل يجدّدها فكر يجدّده ذكرُ .
وانظر حولي ، لا ارى غير قبره ، كأنّ جميع الارض عندي له قبرُ .
افرخَ جنان الخلدِ طرتَ بمهجتي ، وليس سوى قعر الضريح لها وكرُ .(١

الوصف

وقد رأينا ان نفرد للوصف باباً خاصاً لما لابن عبد ربه من الشعر في الرياض والجنائن ، ذكر بعضه في عقده في باب اقوال العرب في الرياض . وهو في هذا الوصف – شأن شعراء الاندلس – متفوّق على الكثيرين من شعراء المشرق . ويظهر انه قد كان لهذه المناظر المبهجة المختلفة في بلاد الاندلس تأثيرٌ في نفوس هؤلاء الشعراء ، فردّدوا ذكر جمالها ، ووصفوا بهيج منظرها بلفظ انيق ومعنى رقيق . واليك مثلاً من شعره هذا :

وروضة عقدت ايدي الربيع بها نوراً بنورٍ ، وترويجاً بترويج ،
بلقح من سواريها ، وملقحة ، وناتج من غواديها ، ومنتوج ؛
توشحت بملاة غير ملحمة من نورها ، ورداء غير منسوج ،
فالبست حلل الموشيّ زهرتها وجلّلتها باغاط الدبابيج .(٢

وله ايضاً :

وموشيّة يهدي اليك نسيمها على مفرق الارواح مسكاً وعنبرا ،
سداوتها من ناصع اللون ابيض ، ولحمتها من فاقع اللون اصفرا ،
يلاحظ لحظاً من عيون ، كأنها فصوصٌ من الياقوت كللن جوهرا(٣

وله ايضاً من شعر وصف فيه روضة ثم تخلص الى الممدوح :

وما روضة بالحزن حاك لها الندى بروداً من الموشي حمر الشقائق ،
يقيم الدجى اعناقها ، ويميلها شعاع الدجى المستن في كل شارق ،
اذا ضاحكتها الشمس تبكي باعينٍ مكللة الاجفان صفر الحمالق ،
حكت ارضها لون السماء ، وزانها نجومٌ كامثال النجوم الخوافق ،
باطيب نشراً من خلائقك التي لها خضعت في الحسن زهر الحلائق .(٤

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ١٨
٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٧
٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٧
٤) بن عبد ربه ٣ : ١٨٧

ولم تنحصر قدرته على الوصف الجميل في مـا يختص بالرياض فحسب بل تعدّت الى غير الرياض . فضرب بسهم وافر منه في كل ابواب الشعر التي طرقها ، ولعلّ القارئ قد لمس شيئاً من هذا فيما اوردنا من الامثلة عن شعره في مختلف الفنون التي ذكرنا . وقال يصف فرساً :

ومقربة يشقرّ في النقع كمتها ، ويخضرّ حيناً كلما بلّه الرشحُ
تطير بلا ريشٍ الى كل صيحة وتسبح في البرّ الذي ما به سبحُ .(١

وقال في فتاة :

ازف الرحيـل فودعتني بقبلة اوحت اليّ جفونهـا بسلامِ ،
وتطلعت بين الحـدوج ، كأنها شمس تطلّعُ في خلال غمامِ ،
وشكت تباريح الصبابة والهوى بمدامع نطقت بغير كلامِ ؛
كمهاة رملٍ قد تربعت الحمى بين الظبـاء العفر والآرام ،
حتى اذا ضرب المصيف رواقه صافت بظلّ اراكةٍ وبشام .(٢

وقال في اخرى :

ذات دلّ ، وشاحها قلقُ من خمور ، وحجلها شرق ،
بزّت الشمس نورها ، وحباها لحظ عينيـه شادن خرق ،
ذهبٌ خدّها يذوب حياءً وسوى ذاك كله ورق .(٣

ويظهر انه كان يرغب في التشابيه فقد اكثر منها في شعره . وقد وفق في ايرادها . ولعلّ القارئ قد لاحظ هذا فيما ذكرنا له من شعر صاحبنا . وانظر بهذه المناسبة الابيات الميميّة الخمسة التي سبقت هذا الكلام .

والخلاصة ان ابن عبد ربه قـد تعرض في شعره الى فنون كثيرة وفق في بعضهـا ، ولم يوفق كثيراً في البعض الآخر . فقـد اجاد في باب الغزل والرثاء اكثر مما اجاد في المدح والهجاء . واتى في بعض الفنون بمعانٍ جديدة وتشابيـه جميلة ، بينما كان في البعض الآخر متكلفاً في اكثر الاحيان . اما ديباجة شعره فانها بوجه عام جميلة . فقد كان سبكه جيداً واضحاً ، بريئاً من التعقيد ، فيـه رشاقة وطلاوة ، وكان لفظه سهلاً رقيقاً عذباً فيه رونق وحلاوة . لم يقيـده

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٦٠ ٢) الثعالبي ١ : ٣٦١
٣) ابن عبد ربه ٣ : ٢١٢ وورق بمعنى فضة

بالبديع الا قليلاً ، وذلك حيث جاء البديع على السجية ؛ ولم يحمله اكثر مما يطيق من المعاني . وهو بهذا يمثل الفن الاندلسي الشعري بوجه عام .

الموشحات

بقي الموشحات . وقد نسب الى ابن عبد ربه انه نظم كثيراً منها ، وانه كان من الاول الذين اخترعوا هذا الفنّ ببلاد الاندلس . ونريد قبل كل شيء ان ندوّن هنا اننا لم نعثر ، في كل المصادر التي بين ايدينا حتى في العقد نفسه وفي اليتيمة ، على موشّح ما من هذه الموشحات التي زعم البعض ان ابن عبد ربه نظمها . واذن فبحثنا الآن في امر الموشحات هو من قبيل درس هذا الزعم وتثبيت هذه النظرية او ردّها ، لا من قبيل النظر في شعر ابن عبد ربه الموشح المزعوم ومعرفة خصائصه وميزاته .

اما اول من ذكر ان ابن عبد ربه نظم الموشحات فابن بسام . فقد ذكر في كتابه « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » شيئاً عن عبادة بن ماء السماء اتى فيه على ذكر ابن عبد ربه وما نسب اليه من نظم الموشح . وقد كنّا ذكرنا قبلاً اننا لم نوفق في الاطلاع على نسخة خطية من الذخيرة التي لم تطبع بعد ، واننا رجعنا الى بعض الذين اخذوا عنها كالصلاح الكتبي في « فوات الوفيات » او الدكتور ا. ر. نيكل الذي ترجم هذا النصّ الذي يهمنا في مقدمته لترجمة طوق الحمامة . غير اننا الآن قد عثرنا على النص الاصلي مرسوماً زنكوغرافياً في كتاب المستشرق ريبيرا *Disertaciones y Opusculos*, Madrid, 1928 قبالة صفحة ١٠٢ من الجزء الاول ، ومطبوعة بحرف مغربي في الصفحات من ٩٩ الى ١٠١ ، نقلاً عن نسخة مكتبة باريس الوطنية وهذا هو النص :

« قال ابو الحسن وكان هذا ابو بكر [عبادة بن ماء السماء] في ذلك العصر شيخ الصناعة وامام الجماعة سلك الى الشعر مسلكاً سهلاً فقالت له غرائبه مرحباً واهلاً وكانت صنعة التوشيح التي نهج اهل الاندلس طريقتها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود ولا منظومة العقود فاقام عبادة هذا منآدها ومرسلها ومنادها(١) . فكانها لم تسمع بالاندلس الا منه ولا

---

١) في نسخة تونس « وقوّم ميلها وسنادها » راجع كتاب ريبيرا المذكور في الموضع المذكور .

اخـذت الا عنه واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته وذهب بكثير من حسنـاته وهي اوزان كثر استعمال اهل الاندلس لها في الغزل والنسيب تشق على سماعهـا مصونات الجيوب بل القلوب واول من صنع اوزان هذه الموشحات بافقنا واخترع طريقتهـا فيما بلغني محمد بن معافر القبري الضرير وكان يضعها على اشطار الاشعار غير ان أكثرها على الاعـاريض المهملة غير المستعملة يأخذ اللفظ امي (١ والعجمي فيسميه المركز ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا اغصان وقيل ان ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد اول من سبق الى هذا النوع من الموشحات ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي فكان اول من اكثر فيهـا من التضمين في المراكيز يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خـاصة فاستمر (٢ ذلـك شعراء عصره كمكرم بن سعيد وابني ابي الحسن ثم نشا عبادة هذا فاحدث التصفير [التضفير] وذلـك انه اعتمد مواضع الوقف في الاغصان فيضمها كما اعتمد الرمـادي مواضع الوقف في المركز واوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض كتابنـا هذا اذ أكثرها على غير اعاريض اشعار العرب .»

ثم عقب ابن بسّام الصلاح الكتبي ، فذكر في كتابه « فوات الوفيـات » ترجمةً لحياة الشاعر عبادة بن عبدالله (ابن ماء السماء) نقلها فيما يظهر عن ابن بسّام[٣] ، وقال في آخرها شيئاً قد يكون منه والارجح انه مما نقـل عن ابن بسّام هو :

« واول من صنع اوزان الموشحات محمد بن محمود المقبري الضرير وقيل ان ابن عبد ربه صاحب العقد اول من سبق الى هذا النوع من الموشحات ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادي ثم نشأ عبادة .» (٤

وعقب الصلاح الكتبي ابن خلدون ، فـذكر في مقدمة تاريخـه في باب الموشّحات والازجال للاندلس خبر استحداث اهل الاندلس لفنّ الموشح قال :

« واما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغـاية استحدث المتأخرون منهم فناً سموّه بالموشح ينظمونه اسماطاً اسماطاً واغصاناً اغصاناً يكثرون منها ومن اعاريضها المختلفة ويسمّون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الاغصان واوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة واكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة ابيات ويشتمل كل بيت اغصان عددها بحسب الاغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كمـا يفعل في القصائد . وتجـاروا في ذلك الى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة

---

١) لعلها العامي ، راجع كتاب ريبيرا المذكور في الموضع المذكور .
٢) لعلها « استمر على » او « استمروا »
٣) الكتبي ١ : ٢٥٥ قال ابن بسام . . .
٤) الكتبي ١ : ٢٥٥ قال ابن بسام . . .

تناوله وقرب طريقه. وكان المخترع لها بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر الفريري من شعراء الامير عبدالله بن محمد المرواني. واخذ ذلك عنه ابو عبد الله احمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لها مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتها.»[١]

ويظهر في هذه الروايات كلها شيء من التشويش . فالمخترع للموشحات برواية ابن بسام هو محمد بن محمود العمري الضرير ، وفي رواية الكتبي هو محمد بن محمود المقبري الفرير ، بينما هو في رواية ابن خلدون مقدم بن معافر الفريري . كذلك هناك اختلاف في اسم ابن عبد ربه فهو عند ابن خلدون ابو عبدالله احمد بن عبد ربه ، وقد سبق لنا ان اظهرنا الخطأ في هذه الكنية . ولا يسعنا بعد هذا التشويش ان نقبل هذه الاخبار كما هي ، او ان نكتم استغرابنا لنقل نفر من ادبائنا بعض هذه الاسماء عن ابن خلدون او غيره دون ان يضبطوها او يتحققوا من امرها[٢] .

اما المستشرقون فقد درسوا هذه الناحية درساً دقيقاً ، واعاروا هذا التشويش والاضطراب التفاتهم . فمنهم هارتمن وقد ذكرنا رأيه في كلمة «ابو عبد الله» (هذه الكنية التي دونها ابن خلدون لابن عبد ربه) الذي نشره في كتابه «الموشح» «*Das Muwaššah*» والذي يظهر منه ان هارتمن يرى ان صاحب العقد لم تكن له علاقة بالموشح[٣] .

ومنهم بروكلمن فقد اتى في الموسوعة الاسلامية على ترجمة مختصرة لابن عبد ربه صاحب العقد ذكر فيها ان بين اشعار ابن عبد ربه التي اطلع عليها الحميدي كان هناك موشحات له *Among his poems, of which al-Humaidi was acquainted with more than 20 volumes, there were Muwashshahat.*[٤]

ولا ندري ايعني بروكلمن ان الحميدي ذكر هذا ام انه يظن انه في

---

١) ابن خلدون : ٥٤٠ ، وطبعة مصر سنة ١٢٧٤ صفحة ٢٠٥

٢) اطلب كتاب « نظرات في تاريخ الادب الاندلسي » (محاضرات للاستاذ كيلاني في الجامعة المصرية) صفحة ٢٣٢

٣) Hartmann, p. 23

٤) Brockelmann. *Ibn ʿAbd Rabbihi* [Encyc. of Islam, vol II, p. 353]

ديوانه الذي اطلع على بعضه الحميدي يجب ان تكون قد وردت هذه الموشحات ؟ والغريب انه ليس بين كل المصادر التي دونها بروكلمن في مقالته بالموسوعة المذكورة عن حياة ابن عبد ربه ما يشير الى ان ابن عبد ربه نظم الموشحات من الشعر . فمن اين اتى بروكلمن بهذا الخبر ؟ والغريب ايضاً ان بروكلمن قد رجع الى كتاب هرتمن في الشعر الموشح وذكره في جملة مصادره ولكنه لم يعرض لرأيه في ان ابن عبد ربه احمد بن محمد المكنى بابي عمر صاحب العقد لم ينظم الموشح ، ولم نعلم ما اذا كان بروكلمن يقبل رأي هرتمن هذا ام يردّه .

ومنهم ريبيرا فقد ذكر في كتابه « الموسيقى في الجزيرة العربية وفي اسبانيا » ونرجع الى الترجمة الانكليزية — « ان رجلاً من بيت ابن عبد ربه يصعب تعيينه قد تبع مقدماً بنظم الموشحات . » ثم يقول : « والذين يقرأون ابن بسام يظنون ان هذا الرجل هو صاحب كتاب العقد ، انما ليس لدينا ما يثبت هذا . » ثم يقول : « واظن ان ابن عبد ربه صاحب الموشحات كان ابن اخ صاحب العقد واسمه ابو عمر سعيد بن عبد ربه . وكان طبيباً وشاعراً ومات سنة ٣٤٢ هـ وكانت ميوله مخالفة لميول عمه الذي كان عربيّ النزعة من اتباع القديم . » ويورد ريبيرا قصة عنه يأخذها عن كتاب التكملة لابن ابار فيها ان سعيداً هذا كان لا يأنف من استعمال لهجة غير مألوفة في كلامه حتى مع الخلفاء ، مما يدل على انه كان يميل الى الخروج عن سبل القديم وينزع الى غيرها . ويقول ريبيرا : « ان ابن ابي اصيبعة قد ذكر ان هذا الشاعر عمي آخر حياته » ويظن المستشرق انه « في ذاك الزمن ربما نظم الموشحات هذه التي فيها خروج عن طرق العرب المألوفة في النظم . »[1] ولكن فات ريبيرا ان ابن ابي اصيبعة ترجم لرجل باسم سعيد بن عبد ربه ولكن بكنية ابي عثمان[2] لا « ابي عمر » . كما وان كنية الرجل هذا في التكملة هي ابو عثمان[3] ايضاً لا « ابو عمر » . ترى

١) Ribera, p 126

٢) ابن ابي اصيبعة ٢ : ٤٤

٣) ابن ابار ٢ : ٧١٠ رقم ١٩٩٥ : سعيد بن . . . ابن اخي الاديب ابي عمر . . . كنيته ابو عثمان وكان اديباً شاعراً الخ

هل كانت الكنية التي وضعها ريبيرا لسعيد هي الكنية الصحيحة وان عثمان محرّفة عن عمر ؟ ولكن ما المصدر الذي استند اليه في ذاك ؟ ولماذا لم يشر الى امر اختلاف الكنية او امر التحريف الذي زعمنا امكانية وقوعه ؟ والظاهر ان الشخص الذي يشير اليه ريبيرا هو الشخص نفسه الذي ترجم حياته ابن ابي اصيبعة فذكر انه كان طبيباً وشاعراً ، وانه كان ابن اخ ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد ، واورد عنه نادرة وقعت له مع عمه هذا وهو نفسه صاحب الترجمة في كتاب التكملة لابن ابار .

ومنهم ايضاً المستشرق الدكتور نيكل فقد تعرّض لهذا الموضوع في مقدمة ترجمته لكتاب « طوق الحمامة » لابن حزم ، واتى على اكثر آراء هؤلاء ، مبدياً ملاحظات قيّمة هنا وهنالك[1] . غير اننا لا نرى فيما كتبه ما يهمّنا من هذه الناحية التي نتعرض لفهمها .

نستخلص من هذا كله انه يصعب جدًا ان نقطع ان صاحب العقد احمد ابن عبد ربه المكنى بابي عمر قد نظم شيئاً من الشعر الموشح بحيث عرف فيه ، لاسيما اذا ذكرنا ان ابن عبد ربه صاحبنا قد افرد كتاباً خاصاً في عقده المشعر ، تصدّى فيه لدرس بحوره ومجزوءاتها ، ووضع لكل منها امثلةً من نظمه كما وانه نظم ارجوزة خاصة تعرّض فيها لاعاريض الشعر وعلل قوافيه ، وبحث بها في الاسباب والاوتاد والزحاف وكل ما عرفته العرب مما يطرأ على الشعر ، ووضع دوائر عليها خطوط تشير الى الحروف الساكنة والمتحركة في كل تفاعيل البحور ، ونظم مقطعات على تأليف حروف الهجاء وضروب العروض . ولكنه في كل هذه الابواب لم يذكر موشحاً ما ، ولم يشر الى فنّ الموشح ، ولم يلمح الى انّ له يدًا او اثرًا فيه ، او انه نظم عليه . مع ان اكثر الشعر الذي اورده مثالاً على البحور المختلفة ومجزوءاتها كان من نظمه .

ولعلّ ريبيرا لم يكن بعيدًا عن الصواب حين لاحظ ان ميول ابن عبد ربه صاحب العقد ، كانت تنزع الى المحافظة على القديم والتمسّك به . فقد ذهب

---

١) Nykl, p. LXXXV seq.

ابن عبد ربه في مبدأه من المحافظة على ما الفته العرب الى نقد خروج الخليل ابن احمد عن بعض الامور المعينة في عروض الشعر قال في ارجوزته :

هذا الذي جرّبه المجرّبُ   من كل ما قالت عليه العربُ
فكل شيء لم تقل عليه ،   فاننا لم نلتفت اليه .
ولا تقول مثل ما قد قالوا   لانه من قولنا محالُ ،
فانه لو جاز في الابيات ،   خلافها ، لجاز في اللغات .
وقد اجاز ذلك الخليلُ   ولا اقول فيه ما يقولُ .(١

ولعل القارئ لاحظ ما اورده ابن بسام من حيث ان العمري ، واضع الموشح ، كان في اغلب الاحيان يجنح الى الالفاظ الغريبة (الاعجمية) والى الاوزان التي لم تقرها العرب ولم تألفها . فيستبعد والحالة هذه ان يتبعه ويشايعه في هذا الامر ابن عبد ربه صاحبنا ، وقد عرف عنه حبّه للقديم وتقليده للشرقيين العرب ، وميله لنقد من يخرج على بعض النظم المألوفة ، وكرهه للنصارى وقربه من الامراء الحاكمين ، ومعيشته في قرطبة التي كانت اكثر البلدان الاندلسية اتصالًا بالحياة العربية واللغة العربية .

ولنلاحظ ايضاً كلمة ابن خلدون في ان الاندلسيين قد استحدثوا هذا الفنّ لما كثر الشعر في قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، وان المتأخرين منهم هم الذين استحدثوه . ولا نظن ان ابن عبد ربه صاحبنا يحسب من المتأخرين . زد على ذلك انه كان من الطبيعي — اذا كان ابن عبد ربه قد نظم الموشح — ان يقع ذاك في شبابه . وعندئذٍ يستبعد جدًا ان ينشأ الموشح وقتذاك ثم لا يؤتي ثمره الا في اول القرن الخامس للهجرة . ولنذكر ايضاً ان لابن عبد ربه صاحبنا اقارب تأخروا عن زمنه عرف بعضهم في الشعر والخروج على القديم كابن اخيه الذي ذكرنا ، وعرف بعضهم في انه يكنى بالكنية التي ذكرها ابن خلدون « ابو عبد الله» وقال عنه المقّري «انه كان شاعرًا وكاتباً وانه من حفداء صاحب كتاب العقد » .

كل هذا يدفعنا الى ان لا نقطع في الامر . ولعل من الخير ان نشير الى انه من الممكن ان يكون بعض القدماء نسبوا هذه الموشحات الى واحد من آل

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٦٨

ابن عبـد ربه ، ثم لشهرة الاسم اضاف اليه تابعوهم « صاحب العقد » ، او ان يكون في الاصل ذكر لقرابة صاحب الموشحات بابن عبد ربه « صاحب العقد»، فسقطت لامر ما الكلمة التي تشير الى هذه القرابة كأن تكون مثلاً « حفيد» ابن عبد ربه صاحب العقد ، فاهملت كلمة « حفيد » فبقي ابن عبد ربـه صاحب العقد ، واختلط الامر على المتأخرين. ومن يدري ايضاً لعل ابن عبـد ربه صاحبنا هو صاحب هذا الاثر في الموشحات ، ولكن القرائن التي تدلّ على ذاك والآثار التي تشير اليه ، والبراهين التي تثبته قد ضاعت كلها او اكثرها فالتبس الامر علينا.

ومن الخير ان نشير في آخر هذا الفصل عن شعر ابن عبد ربه الى ان صاحبنا ظلَّ ينظم الشعر الى ايامه الاخيرة بعد اصابته بالفالج. ويروي لنا الضبي ان آخر شعر قاله ابن عبد ربه كان قبل موته باحد عشر يوماً ، وفيه بيان مبلغ عمره وذكر علته :

بليت ، وابلتني الليالي بكرها ،	وصرفـان للايام معتـوران .
وما لي لا ابلى(١ لسبعين حجة	وعشر اتت من بعدها سنتان !
فـلا تسألاني عن تباريح علتي ،	ودونكما مني الـذي تريان .
واني بحمد الله راجٍ لفضلـه ،	ولي من ضمان الله خير ضمان ،
ولست ابالي عن تباريح علتي ،	اذا كان عقلي باقياً ، ولساني. (٢

---

١) في ياقوت ٢ : ٦٩ ابكي. ولعل الصواب « ابلى ». وقد وردت هكذا في الضبي.
٢) الضبي : ١٣٩

فهرس الاعلام

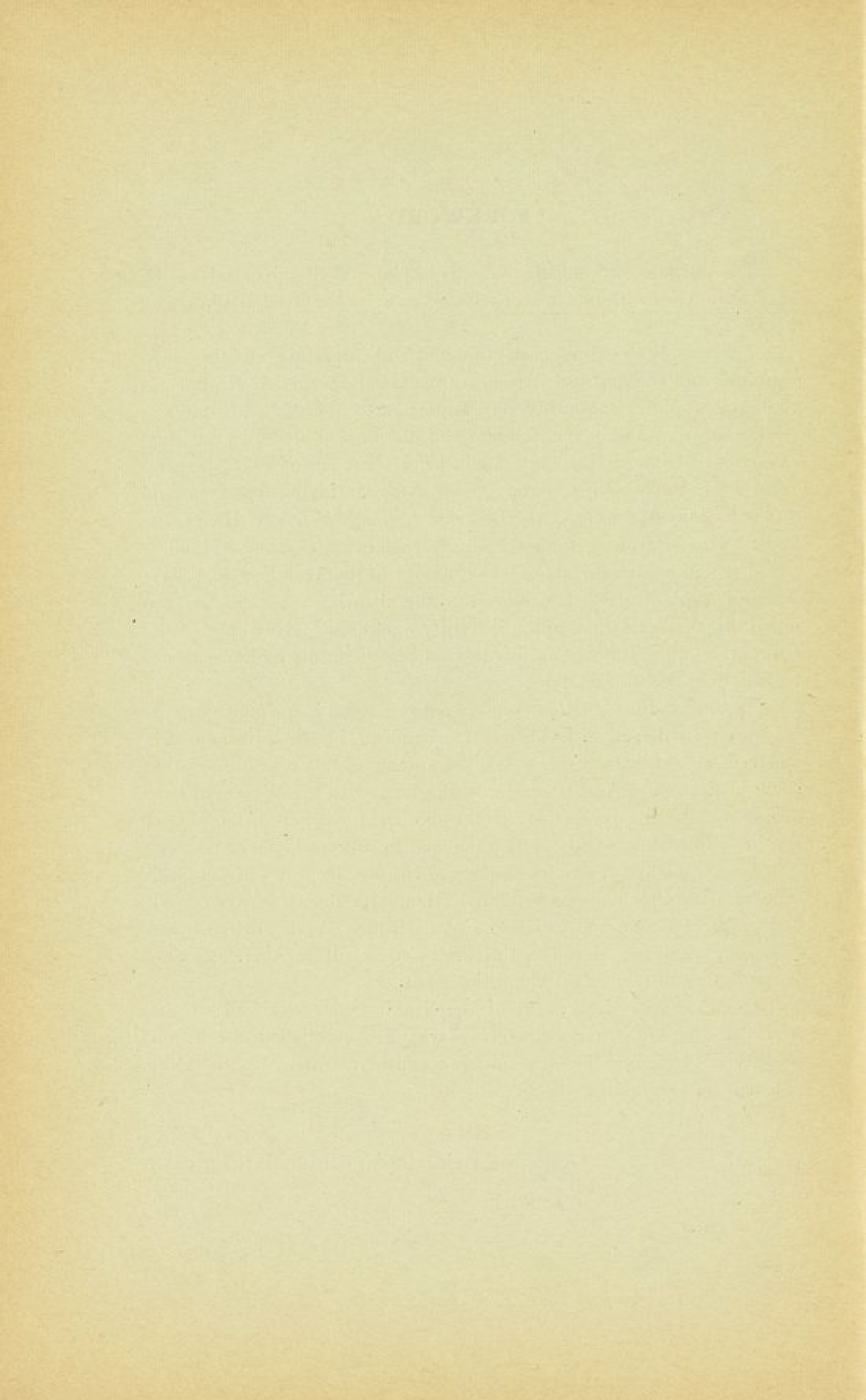
* غ *

* ف *

*

ERRATA

ص ٤ سطر ٩ الفتح بن خاقان : صوابها ياقوت
١٠٠ « ١٤ معجم البلدان : « معجم الادباء



FOREWORD

The purpose of this liltte essay is to place at the disposal of the student of Arabic literature a concise account of Ibn ʿAbd Rabbihi and his *ʿIqd*.

For a study of Andalusian thought and literature in the third century, and the first twenty years of the fourth century A. H., this anthology (*Al-ʿIqd*) is naturally very important. It not only constitutes in itself a piece of Andalusian thought and literature, but shows the great influence of Eastern Moslem thought, in the first period of its development upon Moslem Spain and North Africa. Having received and studied a copy of the *ʿIqd*, Al-Ṣâḥib ibn ʿAbbâd (326-385 A. H.) remarked : « This, our property, has been returned to us. » *Quran*, XII, 65.

The *ʿIqd* is also valuable for the history of the Arab East in Umayyad and Abbasid times. It preserves to the historian a certain amount of historical information which is hardly mentioned elsewhere in the sources, and presents a point of view on certain events which seems to be free from Abbasid influence.

As this study of the *ʿIqd* is based entirely upon its printed editions, it is naturally defective. Evidence of corruption in the printed text is apparent almost everywhere. And the author of this essay hopes that some institution of Arabic studies in the East or in the West will soon decide to publish a correct and well established edition of the text of Ibn ʿAbd Rabbihi. Corrupt texts often lead to corrupt history.

The author wishes to acknowledge with the deepest sense of gratitude his great indebtedness to Father Henry Lammens of the Jesuit University in Beirut and Professors Anîs Khûrî, Asad Rustum, and Costi Zurayk of the American University of Beirut for their valuable suggestions and their great encouragement.

To Mr. Fuʾâd E. Bustânî of the Jesuit University and of the *Revue Al-Machriq* where this essay was first published, the author is especially indebted for his untiring courtesy, interest, attention, and help in reading the proofs.

J. S. J.

American University of Beirut, May, 16, 1933.

IBN ʻABD RABBIHI AND HIS ʻIQD

AN ESSAY SUBMITTED TO THE DEPARTMENT OF ARABIC STUDIES
AT THE SCHOOL OF ARTS AND SCIENCES OF THE
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
IN PARTIAL FULFILMENT
OF THE REQUIREMENTS FOR THE DEGREE OF

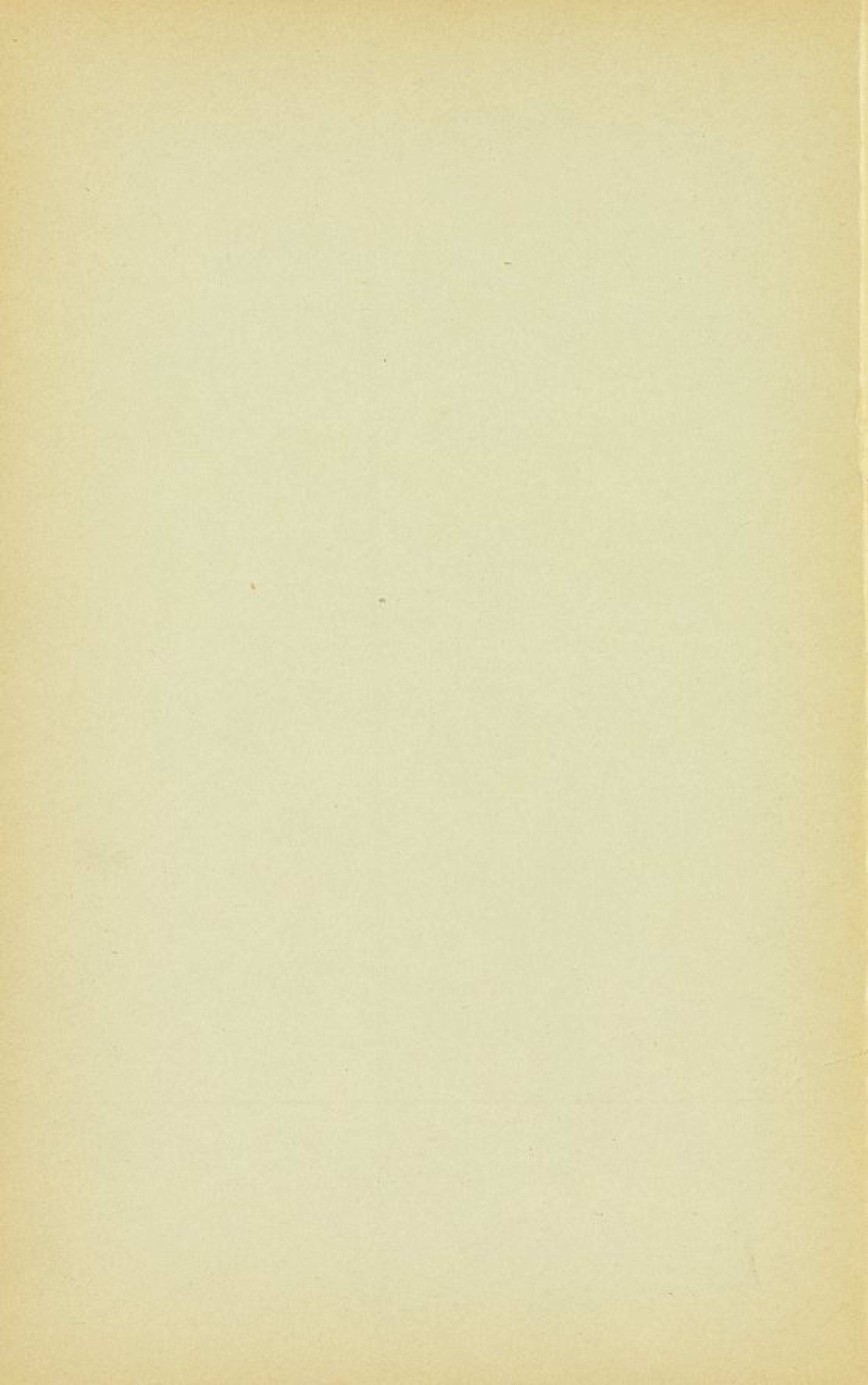
MASTER OF ARTS

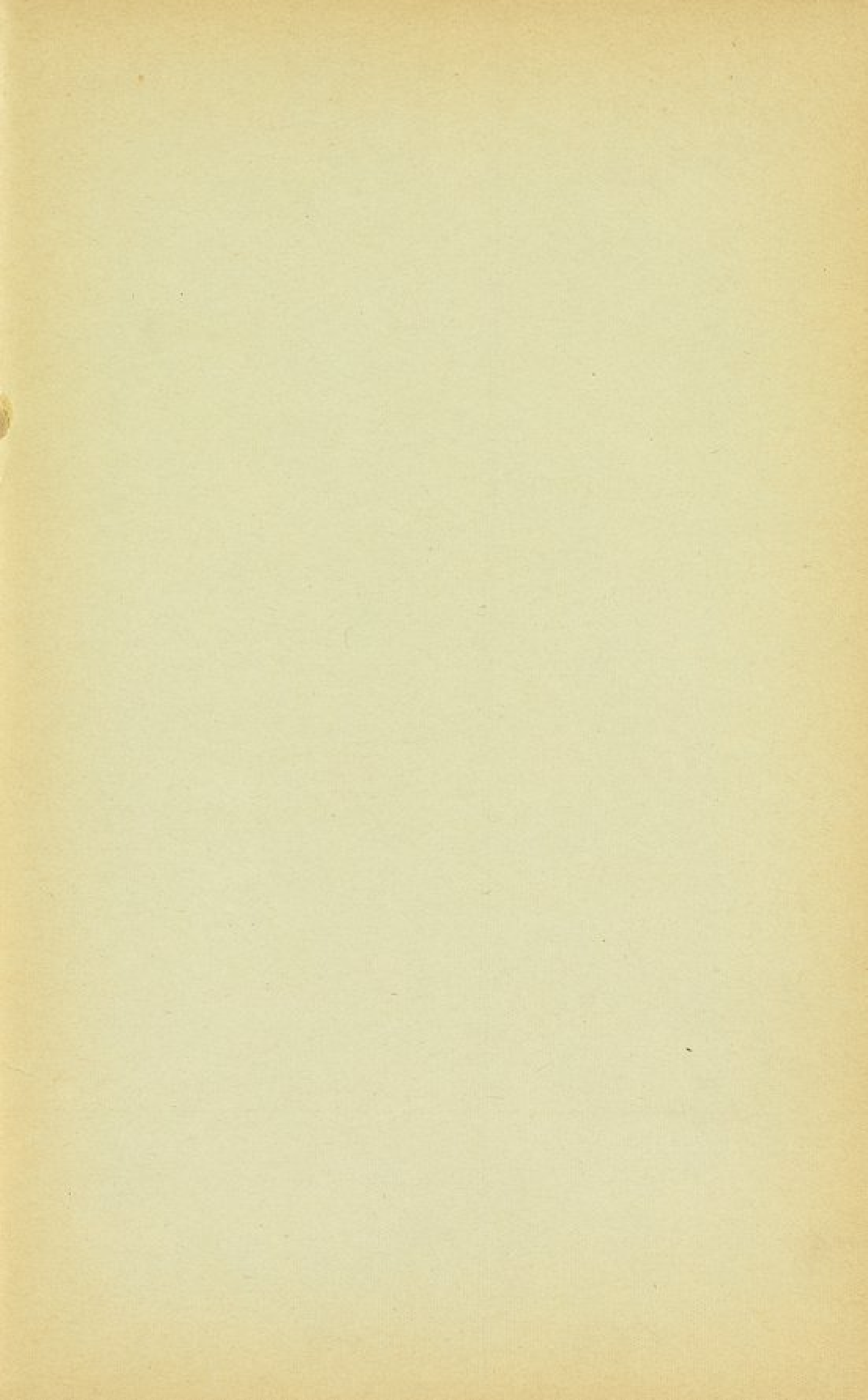
BY

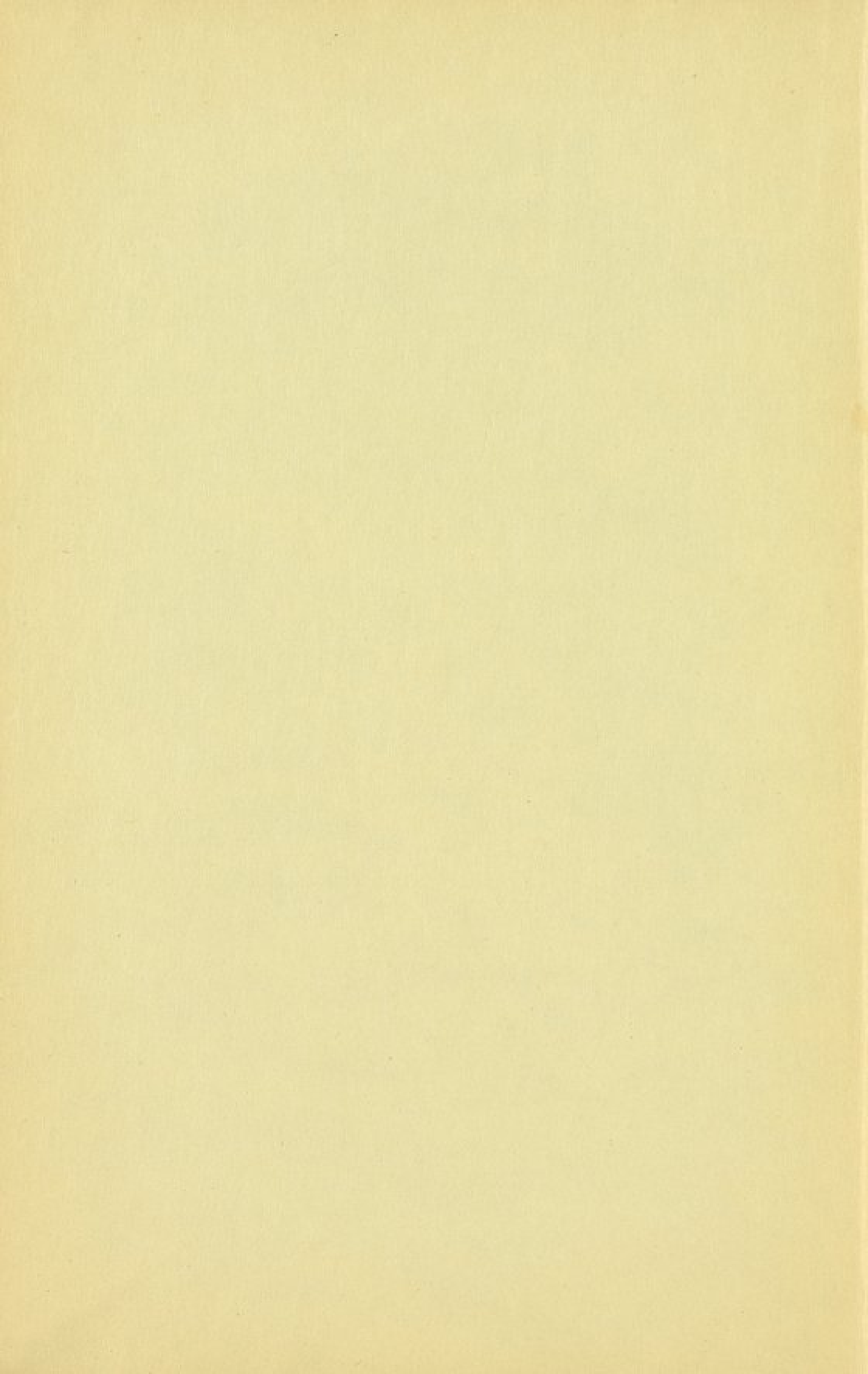
JIBRAIL S. JABBUR
INSTRUCTOR IN ARABIC

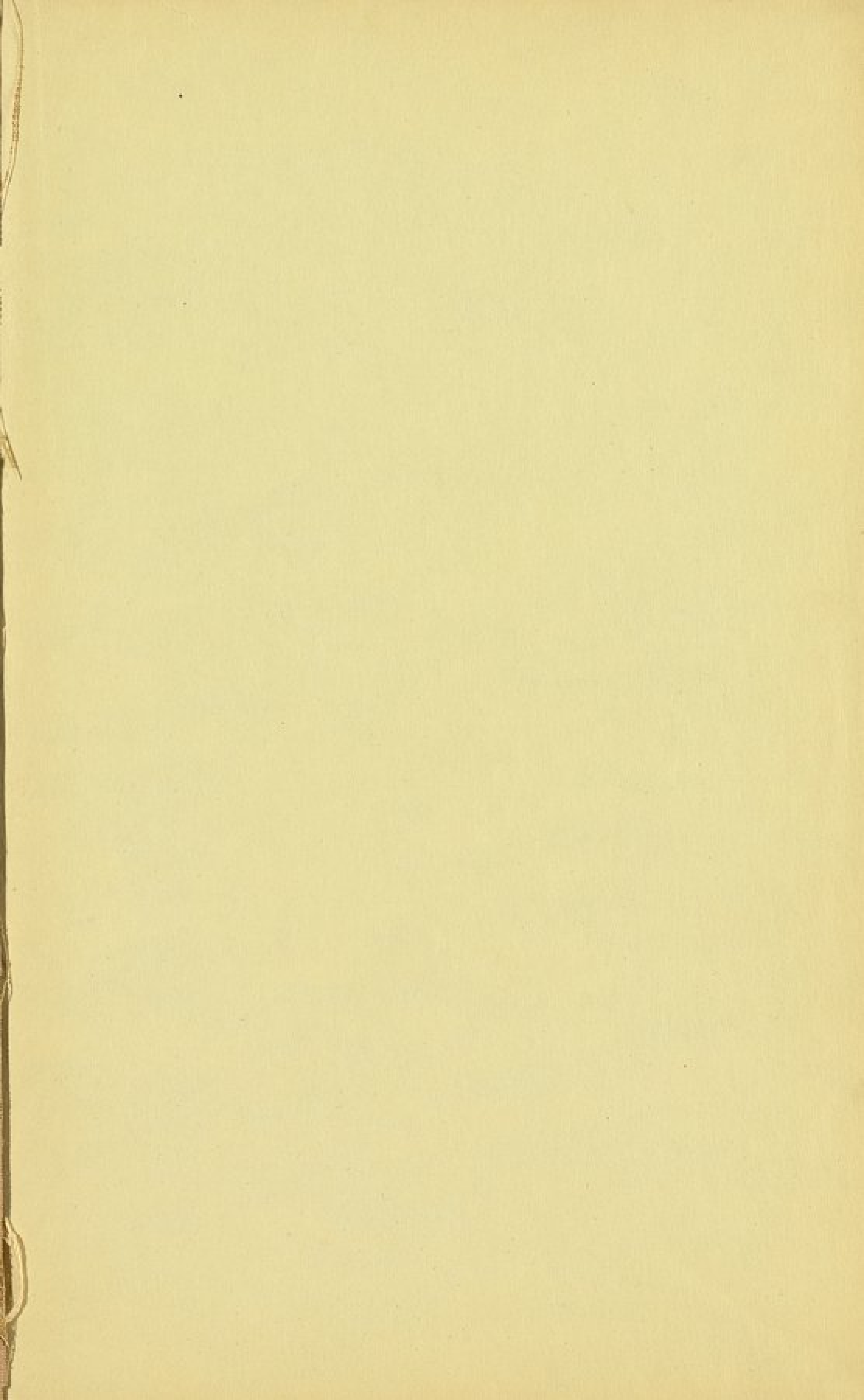
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

PRINTED AT THE CATHOLIC PRESS — 1933











IBN 'ABD RABBIHI AND HIS 'IQD

AN ESSAY SUBMITTED TO THE DEPARTMENT OF ARABIC STUDIES
AT THE SCHOOL OF ARTS AND SCIENCES OF THE
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
IN PARTIAL FULFILMENT
OF THE REQUIREMENTS FOR THE DEGREE OF

MASTER OF ARTS

BY

JIBRAIL S. JABBUR
INSTRUCTOR IN ARABIC
AT THE
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

PRINTED AT THE CATHOLIC PRESS — 1933